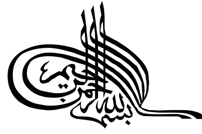
تكوين
TAKWEEN
للدراسات والأبحاث

ميليشيا الإلحاد

مدخل لفهم الإلحاد الجديد



عبدالله بن صالح العجيري



﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ
كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ
وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

الفهرس

الموضوع	الصفحة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

ففي سنة ٢٠٠٦م قُدِّر لي سفرةٌ إلى مدينة واترلو، وهي إحدى المدن الكندية الصغيرة القريبة من تورنتو، وفي أثناء زيارتي لها أقيم مؤتمر مفتوح لحوار الأديان في الجامعة المحلية بها. وأعترف أن قدراً من الفضول وحب الاستطلاع غلب عليّ لمعرفة حقيقة ما يدور في قاعات وأروقة مثل هذه الملتقيات، وكان موضوع ذلك الملتقى حول البعد الأخلاقي في الأديان.

حضرت فعلاً، وفي القاعة الرئيسية حيث كانت تُلقى الأوراق، كان على المنصة كافة ممثلي الأديان مسلمٌ، ونصرانيٌ، ويهوديٌ، وهندوسيٌ، وبوذيٌ، وسيخيٌ وحتى بعض ممثلي بعض الديانات المحلية، والذي شدني ولفت انتباهي هو وجود أحد الملاحدة على منصة الحوار، وكان ذلك المشهد غريباً شيئاً ما بالنسبة لي، فلم يسبق أن أجتمع أنا وملحد في قاعةٍ واحدةٍ، بل لعل مسألة الإلحاد لم ترد على ذهني على نحو جاد قبل تلك اللحظة.

قدم الرجل ورقته وكنت أحس أنه في مأزق حقيقي بمحاولة وضع قاعدة صلبة ينطلق منها في بناء تصوره الأخلاقي، أو يبرر لضرورة الاستمساك بالقيم الأخلاقية دون الوقوع في فخ النسبية أو البراغماتية، وهي إشكالية عميقة جداً للخطاب الإلحادي، وأعتقد أن المقدم لم يفلح في تقديم جوابٍ مقنع عنها.

خرجنا من القاعة الرئيسية إلى البهو والذي أُعد ليكون معرضاً مصغراً

يعرض فيه كل أصحاب دين واتجاه شيئاً مما يتعلق بدينهم من كتب ومطويات ومواد سمعية ومرئية وغير ذلك، ذهبت مباشرةً إلى ركن الملاحدة، وأخذت أقلب بعض المواد المعروضة، ولا أخفي أن عدداً منها كان لافتاً للنظر بل ومستفزاً، (استحالة الإلٰه) (the Impossibility of God)، (فقد الإيمان في الإيمان.. من قس لملحد) (Losing Faith in Faith: From Preacher to Atheist)، بل وجدت بعض الكتب المصورة لتقريب المفاهيم الإلحادية للأطفال، وأظن أنه وبسبب هذه الحادثة قفز اهتمامي بهذا الملف ليحتل منطقة متقدمة في دائرة اهتماماتي العلمية.

تزامن في تلك المدة خروج واحدٍ من أهم الكتب إثارة للجدل في السنوات القليلة الماضية في المجال العقدي الغربي وهو كتاب (the God Delusion) (وهم الإلٰه) لمؤلفه داعية الإلحاد الأشهر (ريتشارد دوكنز) وهو الكتاب الذي ظل على رأس قائمة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعاً لأسابيع، وظل على القائمة لأكثر من سنة، كما احتل الموقع الثاني لأكثر الكتب مبيعاً على نافذة بيع الكتب الأشهر على الإنترنت (أمازون) وذلك في السنة التي طبع فيها، وقد بلغت مبيعاته خلال أربع سنوات أكثر من مليوني نسخة باللغة الإنجليزية، وطبع بلغات أخرى كثيرة.

ازداد اهتمامي بملف الإلحاد، وكان هذا الاهتمام متزامناً مع موجة إلحادية جديدة تجتاح المجتمعات الغربية اشتهرت في الدوائر الفكرية والثقافية والعقدية بالإلحاد الجديد (New Atheism) والذي يتميز عن غيره من أنماط الإلحاد بجملة من الخصائص والسمات والرموز والمؤلفات.

عدتُ إلى المملكة وبدأت في حكاية شيء من هذه التجربة لبعض الزملاء، وكان أحدهم سبباً في التواصل مع أحد طلبة العلم المهتمين محلياً بهذا الملف وهو الشيخ (عايض الدوسري) أستاذ العقيدة المساعد بجامعة الملك سعود بالرياض، وقد ضمني والشيخ بعد ذلك مجالس متعددة تناقشنا فيها حول قضية الإلحاد وأهم سؤالاته وإشكالاته وشيء من دوافعه وغير ذلك.

وقد كتب الشيخ في تلك المدة مقالة مهمة حول أخطار الإلحاد على مشهدنا المحلي عنونها بـ «عقولنا تحت القصف»[1] وكانت أشبه بصيحة نذير مبكرة من ظاهرة تنبأ الشيخ بتمددها في مشهدنا المحلي. وكان لي وللشيخ مجموعة من الحوارات المتفرقة مع مجموعات شبابية محلية تأثرت بشبهات الإلحاد ووقعت في فخاخ شكوكه، فكان لمثل هذه الحوارات دورٌ كبير في الاقتراب من ظاهرة الإلحاد محلياً، والتعرف على بعض المناطق المظلمة في مشهدنا العقدي.

وأعترف أنني ظللت مدةً من الزمن متحرجاً من فتح هذا الملف بشكل علني عامٍ خشيةً من تفتيح أعين غُفْلٍ عن جوانب أرى من الخير للإنسان أن يكون غافلاً عنها، مع قناعةٍ بأن موجة الإلحاد التي كانت تضرب المجتمعات الغربية ستتمدد لتقرع أبوابنا لكني ما كنت أظن أن الأمر سيكون بهذه السرعة.

وحين بدأ الكلام يتخذ طابعاً علنياً في مشهدنا المحلي بعد بعض الحوادث الشهيرة المتصلة بهذا الموضوع، شرفني الشيخ سعد الغنام باستضافةٍ في ديوانيته الفكرية والتي يعقدها في استراحته بمدينة الخرج لتقديم رؤية حول الإلحاد الجديد، تلاه لقاءات ومحاضرات متعلقة بهذا الموضوع أهمها ندوة مطولة في ملتقى (تهافت الفكر الإلحادي) بالرياض والذي كان له أصداء طيبة بحمد الله، بالمشاركة مع الصديقين الشيخ الدكتور خالد الدريس، والشيخ عبد الله الشهري. كما شرفتُ بالمشاركة مع الشيخ عبد الله الشهري في حلقات خاصة حول الإلحاد على شاشة دليل في برنامج الصديق الشيخ عبد الله القرشي (حورات نماء).

وقد اطلع بعض الأحباب على شيء من هذه المواد السمعية والمرئية فشجعني على تسجيلها في كتاب، فكانت هذه الورقة التي أسأل الله أن تكون نافعة مفيدة، وأن تكون محركاً لجهد شرعي أوسع لتناول هذا الموضوع بقدر أعلى من الجدية والعمق.

---

(١) تجدها بالملحق رقم (١) في آخر الكتاب.

والقصد من هذه الورقة أن تكون مدخلاً موجزاً للتعريف بالظاهرة الإلحادية الجديدة، وإطلاع المتلقي على أهم السمات والخصائص لها، وليس من قصدها أبداً معالجة كافة جوانب الظاهرة الإلحادية، ولا مناقشة الشبهات والإشكالات التي تطرحها، إذ هذه الظاهرة معقدة ومركبة وهي تستدعي حديثاً تفصيلياً أوسع ومن زوايا متعددة، لا تحيط بها مثل هذه الورقة المختصرة، بل لا يحيط بها بحث شخصي مطول، وإنما الحاجة إلى أبحاث كثيرة متعددة في هذا المضمار، لشخصيات متعددة، ومن خلفيات علمية متنوعة، تخلق نوعاً من التكامل المهم في إدارة هذا الموضوع، وأرجو أن تتضمن هذه الورقة شيئاً من الإشارات إلى بعض المجالات البحثية المهمة، والتي يمكن أن تمثل مشاريع علمية مستقبلية.

هذه الورقة إذن محاولة يسيرة لتعريف الدعاة والمشايخ وطلبة العلم والمربين والمفكرين بأهم التطورات التي لحقت بالخطاب الإلحادي، والذي جعلنا أمام خطاب إلحادي تم وصفه في الأدبيات الفكرية والعقدية الغربية بالإلحاد الجديد (New Atheism)، خصوصاً وأنني من خلال استقراء كثيرٍ من الخطابات الشرعية العقدية والتي تتناول الظاهرة الإلحادية مؤخراً وجدت قدراً من الغيبة عن إدراك كثير من المستجدات حيال هذا الملف، بل إن كثيراً من الشرعيين وغيرهم لا يكاد يخرج تصوره عن واقع الإلحاد اليوم عن أحد تصورين:

ـ **التصور الأول**: أن الإلحاد يمثل استثناءً في المشهد العقدي، وشذوذاً بشرياً، وأنه لا يكاد يوجد من الملاحدة إلا الفرد بعد الفرد، وأن نسبتهم إلى مجموع الجنس البشري لا يشكل رقماً ذا بال، وقد يتعضد هذا التصور ببعض المقولات العقدية في الكتب التراثية؛ كقول ابن تيمية مثلاً: (بل الناس متفقون على إثبات وجودٍ واجبٍ، اللَّهُمَّ إلا ما يُحكى عن بعض الناس قال: إن هذا العالم حدث بنفسه، وكثير من الناس يقولون: إن هذا لم تقله طائفة معروفة، وإنما يقدر تقديراً كما تقدر الشبه السوفسطائية ليبحث عنها، وهذا مما يخطر في قلوب بعض الناس كما يخطر أمثاله من السفسطة، لا أنه قول معروف

لطائفة معروفة يذبون عنه، فإن ظهور فساده أبين من أن يحتاج إلى دليل)[١]، أو قول الشهرستاني: (أما تعطيل العالم عن الصانع العليم، القادر الحكيم، فلست أراها مقالة، ولا عرفت عليها صاحب مقالة، إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا: كان العالم في الأزل أجزاء مبثوثة، تتحرك على غير استقامة، فاصطكت اتفاقاً؛ فحصل العالم بشكله الذي تراه عليه، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر وجود الصانع؛ بل هو يعترف بالصانع، لكنه يحيل سبب وجود العالم على البحث والاتفاق؛ احترازاً عن التعليل)[٢].

ويمكن أن يكون مثل هذا التوصيف مقبولاً فعلاً لمرحلة تأريخية ماضية، لكنه لا يمثل مطلقاً الواقع العقدي الذي نعيشه اليوم، فللملاحدة اليوم وجودهم الحقيقي في الخارطة العقدية البشرية، وحجمهم ليس بالضآلة التي يتصورها البعض، بل هم يمثلون رقعة بشرية واسعة من تلك الخارطة، فبحسب كتاب حقائق العالم (the World Factbook) والصادر عن CIA مثلاً يشكل الملاحدة ٢,٠١٪ من مجموع الجنس البشري، ويمثل اللادينيون ٩,٦٦٪ وذلك بحسب إحصائيات صادرة سنة ٢٠١٠م، هذا في الوقت الذي يشكل فيه اليهود ٠,٢٢٪ فقط من مجموع البشر[٣]. بطبيعة الحال يقفز هذا الرقم بشكل كبير جداً في بعض دول العالم، ففي إحصاء (اليوروستات يوروبارومتر) والذي أجري سنة ٢٠١٠م أظهرت الإحصائيات أن الملاحدة في أوروبا يمثلون ٢٠٪ من مجموع الأوروبيين، وأن الرقم يرتفع في فرنسا ليصل إلى ٤٠٪، وفي بريطانيا ٢٥٪، بينما أظهرت بعض الإحصائيات أن الذين لا يؤمنون بالله في كندا ٢٣٪، وفي

(١) منهاج السُّنَّة ٣/ ١٧٤.

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام ص١٢٣.

(٣) ثمة قدر من الاختلاف بين النسب في بعض الدراسات، وجزء منه عائد إلى بعض الصعوبات التي تواجه الباحث في جمع المعلومات لتقدير مثل هذه الأعداد؛ كتداخل الإلحاد في بعض أنماطه مع التدين، ولاشتباه الإلحاد مع اللاأدرية أو اللادينية مثلاً، وللحالة الدينية السابقة للملحد بحيث يتم احتسابه منها أحياناً، ولغيرها من الأسباب، لكن تظل تلك النسب عالية نسبيّاً، والمقصود استعمالها كمؤشرات فقط إلى التغير الحاصل في طبيعة نسب الملاحدة، وأنها باتت ظاهرة عقدية ملحوظة في الواقع.

أمريكا التي تعد أكثر تديناً ٩٪؛ أي: أنك تتحدث عن وجود ملحد واحد تقريباً من كل عشرة أمريكيين. هذه الأرقام تؤكد على أن ثمة تغيراً كبيراً في طبيعة التوزيع الديمغرافي للملاحدة اليوم، وأن الإلحاد لم يعد تلك الحالة الاستثنائية الشاذة في المشهد العقدي. يؤكد هذا الأمر أننا بتنا اليوم نسمع بالابن الملحد الذي يقول: كان أبي وجدي ملاحدة، وهذه ظاهرة إنسانية لافتة للنظر فعلاً في المجال العقدي.

ـ **التصور الثاني**: أن الإلحاد حالة اقترنت في العهد القريب بالحالة الشيوعية، ففي الوقت الذي تمددت فيه الظاهرة الشيوعية تمددت الظاهرة الإلحادية، وحين تقلصت تقلصت هذه الظاهرة، وبالتالي يستغرب البعض من الاهتمام بهذا الملف في هذا الوقت الذي يظن أنه في تراجع وانحسار منذ سنوات. أذكر أنني شاهدت حلقة موضة الإلحاد وذلك في برنامج ساعة حوار على قناة المجد الفضائية، والتي كان ضيفها الدكتور محمد العوضي، وقد طرح مقدم البرنامج د. فهد السنيدي في أول اللقاء سؤالاً معبراً عن هذه الإشكالية فقال: (الإلحاد منحسر جداً خصوصاً بعد سقوط أركانه وأقطابه الأساسية، كيف تسميه موضة يا دكتور؟!) وللإنصاف فإن الدول التي تحلحلت عنها القبضة الشيوعية تشهد فعلاً ظاهرة العودة للتدين أو إعلان التدين كما يظهر ذلك في كثير من الإحصائيات. لكن في المقابل أيضاً ثمة موجة إلحادية جديدة تكتسب أنصاراً وتشهد تمدداً في دول أخرى كثيرة، وهذه الموجة تستدعي بلا شك قدراً من الفحص والدراسة، وهي ملاحظة لم يقتصر على رصدها المهتمين بهذه القضية محلياً أو عالمياً، بل هي محل تناول كبير في الدوائر الإعلامية الغربية، ففي سنة ٢٠٠٧م مثلاً نشرت قناة CBC news تقريراً مصوراً تحت عنوان «الإلحاد ينتشر في العالم»، وعاد هذا الملف ليحتل موقعاً بارزاً في الصحف والمجلات الكبرى كالواشنطن بوست، والتايمز، والجارديان، وغيرها، بل وليكون محل جدلٍ شعبي عام لحظه كثير من المهتمين بهذا الملف، يقول ألستر مكقارث مثلاً: (إذاً كانَ الإلحاد الجديد يريد تفعيل جدل حول الدين، فقد نجح يقيناً، فجأةً أصبح

الجميع يريد التحدث عن الله)[١].

إذن فتصحيح التصور حيال ملف الإلحاد، وبيان واقعه اليوم، وما استجد فيه هو الباعث المركزي لكتابة هذه الورقة، وعليه سيدور المحور الأول منها. يضاف إليه الرغبة في بعث مناقشة أظنها مهمة في مراجعة أداء الخطاب العقدي الإسلامي، ومدى كفاءة أدواتنا العلمية الحالية لمجابهة إشكالية الإلحاد، وتخليق الحصانة العقدية المطلوبة لأبناء المسلمين اليوم، وهذه القضية ستشكل المحور الثاني لهذه الورقة إن شاء الله.

وأعترف قبل الخوض في غمار الموضوع أنني تذكرت عبارة طريفة للصفدي يعبر فيها عن إشكالية وقعت له في أثناء تأليف بعض كتبه من جنس إشكالية وقعت لي هنا، يقول رحمه الله: (لم أعتن قديماً بمثل هذا ـ يريد تقييد بعض الفوائد الأدبية من بعض المجالس ـ وأهملت من ضبطه شيئاً كثيراً، ورب إهمال آذى، فلما اضطررت إلى جمعه، وظمئت نفسي إلى سقيا غيثه وهمعه، أخذت ألتقطه من كل بقعة، فكم أصابتني في هذا السوم سآمة، وكم لزمني في بعض المواضع من غرامة)[٢]. فقد طالعت مدة اهتمامي بهذا الملف قدراً كبيراً جداً من المواد المكتوبة والمرئية والمسموعة، لكني ما عزمت حينها من كتابة مثل هذا البحث، فلما شرعت فيه علمت أن كثيراً مما مر بي من الشواهد والأدلة ستغيب عني، وأن تطلبها بعد هذه المدة فيه عسر، واتكلت في كثير مما أكتب هنا على بعض ما علق بالذهن وبقي في الذاكرة، أقدم بذكر هذا اعتذاراً للقارئ من أي تقصير بحثي، وقد آثرت المضي في مشروع الكتابة مع شيء من التقصير، آخذاً في هذا بالقاعدة الفقهية الشهيرة ما لا يدرك كله لا يترك كله.

عبد الله بن صالح العجيري
Abosaleh95@gmail.com
@abosaleh95

---

(١) Why God won't go away viii.

(٢) ألحان السواجع ١/ ٤٠.

الإلحاد الجديد

«التطورات والسمات والخصائص»

الإلحاد الجديد
«التطورات والسمات والخصائص»

هذه الورقة كما سبق في المقدمة معنية بتقديم تصور مختصر لأهم التطورات التي لحقت بالخطاب الإلحادي، حتى أفرزت هذه الظاهرة محل الدراسة ظاهرة (الإلحاد الجديد)، ولس هذا البحث معنياً بالحديث عن تأريخ الحركة الإلحادية، وبيان مساراته التاريخية سواءً في تجلياته الفلسفية على يد بعض فلاسفة اليونان والإغريق، أو حالته في عصر التنوير الأوروبي، أو تمدده المقترن بالحالة الشيوعية، وإنما الحديث سيكون محصوراً في هذه الحركة الإلحادية الجديدة والتي لها حضور متنامي في المشهد العقدي عالمياً، ولها رموز وأدبيات وأدوات متنوعة في الترويج للفكرة الإلحادية.

ويبدو أن أول من سك هذا الاسم، ووضع هذا المصطلح (الإلحاد الجديد) (new atheism) هو (جيري وولف) في مقالةٍ نشرها سنة ٢٠٠٦م في مجلة «وايرد» البريطانية بعنوان: «كنيسةُ غير المؤمنين»[١] والعنوان الفرعي لها: «فرقة من الأشقاء فكرياً يقيمون حملة ضد الإيمان بالله، هل نجحوا في كسب المتحولين؟ أم اقتصروا على التبشير بين جمهورهم؟».

وقبل الخوض في ذكر سمات الإلحاد الجديد، أقدم بالتنبيه إلى قضية تتعلق بمفهوم الإلحاد ذاته ليعرف القارئ بدقة المفهوم الذي تدور عليه هذه

---

(١) The Church of the Non-Believers.

الورقة، وذلك أنني وجدت من بعض الباحثين قدراً من التوسع في المفهوم سينتج عنه بطبيعة الحال تناولاً لملفات قد تكون غائبة عند باحثين آخرين، وجزءٌ من هذا التوسع والضيق في توصيف مفهوم الإلحاد عائدٌ في تقديري إلى تطور في مفهوم الإلحاد في البحث العقدي، فالإلحاد في أصل وضعه اللغوي دالٌ على معنى الميل والانحراف، ومن هنا جُعلت هذه اللفظة توصيفاً للانحرافات العقدية العميقة والكبيرة خصوصاً في الكتابة العقدية التراثية؛ كاعتقاد الحلول والاتحاد، أو التعطيل المغالي لأسماء الله وصفاته، أو إنكار مبدأ النبوة، أو الأخذ بالتأويلات الباطنية الغالية للشريعة أو غير ذلك.

ولذا فقد تنبه بعض الباحثين إلى أحد الفوارق بين نمط الإلحاد في الفضاء الغربي وحالته في الفضاء العربي الإسلامي وذلك في سياقات تاريخية متقدمة، فالمتهمون بالإلحاد في سياق التاريخ الغربي هم من المنكرين فعلاً لوجود الخالق جل وعلا، أما في السياق العربي الإسلامي فكثير ممن اتهم بهذا الوصف ليس منكراً في الحقيقة لوجود الخالق تعالى، وإنما كثير منهم من أصحاب المنكرات العقدية الكبيرة كإنكار النبوة أو القول بالاتحاد أو غير ذلك، فابن الراوندي والسهروردي والرازي الطبيب وغيرهم ليس انحرافهم من قبيل إنكار وجود الخالق لكنه من قبيل إنكار النبوات والوحي، يقول عبد الرحمن بدوي منبهاً إلى طبيعة الإلحاد في الفضائين الغربي والعربي: (إذا كان الإلحاد الغربي بنزعته الديناميكية هو ذلك الذي عبر عنه نيتشه حين قال: (لقد مات الله)، وإذا كان الإلحاد اليوناني هو الذي يقول: (إن الآلهة المقيمين في المكان المقدس قد ماتت) فإن الإلحاد العربي ـ وهو الذي يعنينا هنا في هذا الكتاب ـ هو الذي يقول: (لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء)[1].
والحق أن قدراً من التطور الذي لحق بمصطلح الإلحاد في الفضاء العربي يمكن أن يُتلمس أيضاً في الفضاء الغربي، لكن مشكلة إنكار وجود الله مشكلة طارئة في الفضاء العربي بالمقارنة بالفضاء الغربي.

(١) تاريخ الإلحاد في الإسلام ص٧.

وفي العصر الحديث طرأ على مصطلح الإلحاد في البحث العقدي الإسلامي شيء من التطور ليقترن مفهومه بحالة عقدية خاصة وهي عدم الإيمان بوجود الخالق، وليكون ترجمة للموقف العقدي الذي يمثله مصطلح (Atheism) في الوسط الغربي. ويبدو أنه كان ثمة عدد من المحاولات المتنوعة لوضع لفظة عربية مناسبة لمعنى ذلك اللفظ الغربي كالدهرية مثلاً، ولكن اللفظة التي اشتهرت في المجال العقدي الحديث كمقابل عربي لتلك اللفظة الأجنبية هي هذه اللفظة (الإلحاد) لتكون تعبيراً اصطلاحياً عن فكرة إنكار وجود الله، وليكون هو المعنى الذي يقفز إلى الذهن بمجرد ذكر هذه اللفظة، ولتتراجع الانحرافات العقدية الأخرى التي كان يشملها هذا الاصطلاح وتخرج من عباءته. وإن ظل بعض الباحثين يدخل في مفهوم الإلحاد إنكار النبوات ليكون عنده مفهوماً متناولاً للأصلين جميعاً (إنكار وجود الله، وإنكار النبوات). وأنا أميل إلى أن الإلحاد في الاستعمال الاصطلاحي الشائع اليوم إنما يتناول الانحراف الأول بالأصالة والثاني وغيره بالتبعية واللازم.

وحتى تتضح هذه المسألة بشكل أكبر، وندرك طبيعة الموقف الإلحادي من الإيمان بالله تعالى، فإن المواقف العقدية الممكنة من مبدأ وجود الله تعالى والوحي والنبوة، أربع مواقف عقدية رئيسية، وهي مرتبة من أشدها تنكراً لهذه المبادئ إلى المؤمنين بها:

ـ **الإلحاد الصلب، أو الإلحاد الإيجابي (Atheism)**، وهو الإلحاد الذي يؤمن صاحبه بعدم وجود الخالق، وبالتالي يتنكر للوحي والنبوات، ولا يتدين بدين، هذا من جهة الأصل كمفهومٍ حديثٍ للإلحاد، وإن كانت بعض الملل تمارس طقوساً دينية وتؤمن بقدرٍ من المغيبات لكنها لا تؤمن بوجود الله كمرتكز عقدي لها كالبوذية مثلاً، وتدينها إنما هو لطلب تحصيل الحكمة والسعادة والكمال البشري الإنساني. وهذا أفرز قدراً من الخلط في مفهوم الإلحاد وعلاقته بالحالة الدينية، ولذا اقترح أحد مشاهير الملاحدة (سام هارس) ـ والذي يعتبر نفسه متتلمذاً للمدرسة البوذية ـ ضرورة أن يسعى

البوذيون في إخراج البوذية عن إطار الديانات، ليكون مدرسة سلوكية إنسانية بعيداً عن أنماط التدين.

ـ **الإلحاد السلبي، أو اللاأدري، (Agnosticism)** وهو الإلحاد الذي لا يؤمن صاحبه بوجود الخالق، لكنه أيضاً لا يؤمن بعدم وجوده، بل يقول: ليس عندي دليل يدل على وجوده فلست مؤمناً بوجوده، ولا عندي دليل أيضاً يدل على عدمه فلست مؤمناً بعدمه، بل متوقف في شأنه لا أثبت ولا أنفي. وهو موقف يجعل من سؤال وجود الخالق سؤالاً مفتوحاً دون تقديم جواب عليه. وقد يتبنى بعضهم إمكانية الوصول لجوابه، لكن تكافأت في عينه الأدلة إيجاباً وسلباً، وقد يُنكر بعضهم إمكانية معرفة الجواب، لعدم وجود أدوات التوصل أصلاً إلى مثل هذا الجواب.

ـ **الربوبية (Deism)** وهو موقف عقدي يؤمن صاحبه بوجود خالق لهذا الكون، لكنه ينكر صلة هذا الخالق بهذا الكون عبر الوحي والرسالة، فالخالق في هذا المنظور العقدي خلق العالم ثم تركه، فلم يكلف الخلق إيماناً ولا تديناً، ولا هو بالذي يسمع دعوات الداعين ويستجيب لهم، ولا يتدخل في شؤون هذا الكون بالمعجزات والخوارق، ولا أرسل رسلاً ولا أوحى بشرائع، والتعرف على هذا الخالق إنما يتم عن طريق التأمل في الكون، والاستدلال العقلي عليه، دون أخبار الأنبياء والرسل والمعرفة المتحصلة عن طريق الوحي.

ـ **المؤمن المتدين (Theism)** وهو الموقف العقدي الذي يؤمن صاحبه بوجود خالق لهذا الكون، كما يؤمن بالوحي والنبوات، وأن الخالق سبحانه عرّف نفسه لخلقه عن طريق الأنبياء والرسل، وأن الخلق مأمورون من خالقهم بالإيمان والتدين، وأنه سبحانه يسمع لمن دعاه، ويثيب على العمل الصالح، ويعاقب على الأعمال الطالحة.

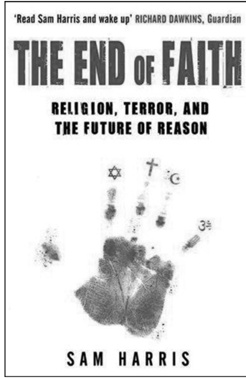
وبناءً على تفهم هذه الأنماط العقدية المتعلقة بموضوع الإلحاد ووجود الخالق، فهذه الورقة معنيةٌ بمعالجة ما يتعلق من الظواهر بالموقف العقدي الأول والثاني دون بقية المواقف. وهذه المعالجة ستكون بحسب ما سبق بتسليط الضوء على أهم التطورات التي لحقت الخطاب الإلحادي الجديد، والتي أرجو أن يتضح شيء من ملامحها من خلال استعراض ما سيأتي من السمات.

السمة الأولى
الحماسة والحرص الشديد على الدعوة للإلحاد

من التداعيات غير المنظورة لحادثة الحادي عشر من سبتمبر أثرها في تفجير الموجة الإلحادية الجديدة، وقد احتاج الأمر إلى شيء من الوقت ليتجلى حجم الأثر الذي خلفته هذه الحادثة في استفزاز الملاحدة.

كان الإلحاد في سياقه التاريخي إجمالاً يمثل خطاباً ميالاً نسبياً إلى قدرٍ من الحيادية من الموقف الديني، ولم يكن لديه تلك الحماسة الكبيرة لممارسة الدعوة والتبشير بقضية الإلحاد، بل كانت قضية الإيمان في حسه قضيةً شخصيةً متعلقةً بالأفراد لا تستفز الملاحدة كثيراً، ولسان حال الواحد منهم أن قضية الإيمان والكفر مسألة شخصية، وما دام هذا المتدين لم يكسر لي رجلاً أو يفقأ لي عيناً فليؤمن وليتدين كيف شاء. ولكن من لحظة اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة العالمي تغيرت المعادلة تماماً، وترسخ في وعي كثير من الملاحدة أن قضية الإيمان والتدين باتت مهدداً حقيقياً للبشرية، وأن التزام ذلك الهدوء والحيادية من الدين لم يعد خياراً مقبولاً، وأنه من المتعين على الملاحدة اليوم السعي جدياً في استئصال مبدأ التدين من الحياة البشرية، وإحلال قضية الإلحاد كخيار منقذ.

كانت هذه الحادثة نقطة التحول في حياة (سام هارس) مثلاً وهو أحد أقطاب الإلحاد الجديد، وصاحب الكتاب الأول في مسلسل إصدارات إلحادية ستتلوه إصدارات أخرى تمثل النواة المركزية لظاهرة الإلحاد الجديد. وليس



من الغريب أن تمثل ردة الفعل من حادثة ١١ سبتمبر الثيمة المركزية التي يدور حولها هذا الكتاب، والذي سينكشف للقارئ من لحظة قراءته للعنوان: «نهاية الإيمان.. الدين، والإرهاب، ومستقبل العقل»[١]. وقد صرح سام هارس في أكثر من مناسبة في ثنايا هذا الكتاب وخارجه بأن المحرك الأساس لتأليف هذا الكتاب هي هذه الواقعة، ومن ذلك مقطع مرئي صريح على اليوتيوب تحت عنوان: «سام هارس.. رحلة نحو الإلحاد انطلقت شرارتها بسبب ٩/١١»[٢]. وحتى تدرك عمق تأثير هذه الحادثة على سام هارس فقد صرح في آخر كتابه «نهاية الإيمان» بأنه ابتدأ تأليفه في ٢٠٠١/٩/١٢م؛ أي: في اليوم التالي مباشرة من حصول الحادثة[٣].

وسام هارس ليس لوحده المتأثر بهذه الحادثة فهذا ريتشارد دوكنز داعية الإلحاد الأشهر يقول في آخر جملةٍ له في محاضرة له بعنوان «ميليشيات الإلحاد» والتي ألقاها في TED: (يتساءل الكثيرون كيف غيرتك أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ إليكم كيف غيرتني: لنتوقف جميعاً عن هذا التصنع المقيت في إبداء الاحترام ـ يعني: للأديان ـ). بل إنه بعد أربعة أيام فقط من حادثة ١١ سبتمبر كتب مقالةً عن الحادثة في (الجارديان) البريطانية يقول في آخرها: (إن ملء عالَمٍ بالدين، أو بأديان كالأديان الإبراهيمية، هو تماماً كملئ الشوارع بالمسدسات المحشوة بالرصاص، لا تتعجب إذا ما تم استعمالها)[٤].

وهذه الروح المستحضرة لحادثة ١١ سبتمبر هي روح لا تخطئها العين

---

(١) the End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason.

(٢) Sam Harris-Journey to Atheism Sparked by 9/11.

(٣) نهاية الإيمان ص٣٣٣.

(٤) To fill a world with religion, or religions of the Abrahamic kind, is like littering the streets with loaded guns. Do not be surprised if they are used.
Religion's misguided missiles.

مطلقاً عند بقية رموز الإلحاد الجديد ككريستوفر هيتشنز، ودانيل دانيت، بل هي روح حاضرةٌ بقوة في الظاهرة الإلحادية الجديدة ككل، وهي التي أفرزت عامة السمات والخصائص لهذه الظاهرة كما سيتضح إن شاء الله.

المقصود أن حادثة الحادي عشر من سبتمبر ولدت ردة فعلٍ ضخمة في تشجيع الملاحدة على ممارسة دور تبشيري ضخم بالمضامين الإلحادية، وليتراجع بشكل كبير ذلك الموقف الحيادي من الفكرة الدينية، ومن الطريف فعلاً أن تبلغ حماسة بعض الملاحدة في الترويج لأفكاره باستعمال ذات النهج والهيئة والأساليب لبعض دعاة النصرانية بالدعوة في الشارع عبر رفع اللوحات الإلحادية، والصياح في المارة داعياً لإلحاده، وقد لقب واحد من هؤلاء نفسه بمسيح الإلحاد وغير اسمه لداروِن احتفاءً بشارلز داروِن وأخذ يمارس دوراً شديد الشبه بطريقة بعض دعاة النصرانية بالوعظ والتذكير بالقيم النصرانية[١]، وإنما ذكرت هذه الحالة لطرافتها فقط لا أنها تمثل نهجاً عاماً للحالة الدعوية الإلحادية، ولكن يظل مبدأ الحماس للدعوة للإلحاد قضية حاضرةً بلا شك في الاتجاه الإلحادي الجديد.

وبسبب هذه الحماسة وهذا الحراك في الدعوة للإلحاد قفز سؤال (وجود الله) في الفضاء الإعلامي الغربي ليحتل موقعاً متقدماً، وليكون موضوع (the God debate) موضوعاً حاضراً وبقوة في فضاءات الإعلام التقليدي والإعلام الجديد في المجتمعات الغربية، وليصبح رموز الإلحاد الجديد نجوماً إعلامية لها حضورها الشعبي الطاغي، حتى على مستوى الترفيه، فقد ظهرت شخصية ريتشارد دوكنز ـ وإن بقالب ساخر ـ في عدد من المسلسلات الكرتونية الساخرة والشهيرة كـ (south park) و(the Simpsons) وغيرها، وسيأتي الحديث عن أثر هذه النجومية ومظاهرها في فقرة آتية بإذن الله.



(١) انظر البرنامج الوثائقي على اليوتيوب (the Trouble with Atheism).

ومسألة حمل الهم الدعوي لدى الملاحدة الجدد، والسعي في كسب الأتباع والمتحولين (converters) قضية حاضرة جداً في العقلية الإلحادية الجديدة، فهذا ريتشارد دوكنز يقول في بدايات كتابه «وهم الإلٰه»: (إذا عمل هذا الكتاب كما أردت له، فالقراء المتدينين الذين سيفتحونه سيكونون ملاحدة بمجرد فراغهم منه)[١]. وفي أحد التزكيات الموضوعة على غلاف الكتاب الخارجي عبارة تقول: («وهم الإلٰه» كتاب ذكي، رحيم، صادق كالثلج؛ كالنار. إذا لم يغير هذا الكتاب العالم، فالويل لنا)[٢].

وقد اتخذ هذا النهج الدعوي أشكالاً متعددة، وعمل على مسارات عدة من أهمها:

التأليف والكتابة:

حيث انهمرت مجموعة من التآليف المتعددة والتي شكلت القوة الدافعة للإلحاد الجديد، ونواته الصلبة، واستطاعت أن تخترق الفضاء العام بسبب جودة الأسلوب، وسحر العبارة، ووضوح الأفكار، ومباشرة الطرح، خصوصاً وأن كثيراً من أولئك الكتاب ممن اشتهر بالكتابة في مجال (البوب ساينس)[٣] وهي الكتابة الشعبية في مجال العلوم الطبيعية، فانتقلت هذه الأفكار الإلحادية إلى الإطار الشعبي العام بدل ما كانت حبيسة في دوائر نخبوية ضيقة نسبياً.

وقد برز بسبب هذه التآليف مؤلفوها كرموز للإلحاد الجديد والذين صاروا يشكلون العمود الفقري لهذه الظاهرة العقدية الجديدة. ومن اللافت للنظر فعلاً حالة الإقبال الشديد على شراء هذه المؤلفات والتهامها، إذ تصدر أكثرها قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، كما حظي مؤلفوها بجوائز متنوعة من مؤسسات معنية بمجال الكتابة والتأليف، كما أنها ترجمت إلى لغات متعددة،

---

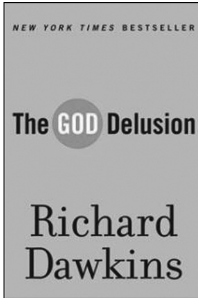
(١) (If this book works as I intended, religious readers who open it will be atheists when they put it down) 5.

(٢) (The God delusion is smart, compassionate, and true like ice, like fire. If this book doesn't change the world, we're all screwed).

(٣) Pop-science = Popular science.

وتجاوز سقف مبيعاتها مئات الآلاف من النسخ بل والملايين أحياناً. وأهم هذه الكتب، والتي يمكن أن يقال أنها فجرت الظاهرة الإلحادية الجديدة، ما يلي مرتبة بحسب ظهورها:

○ **كتاب «نهاية الإيمان» لسام هارس** المختص في مجال علوم الأعصاب (نوروساينس)، والذي سبقت الإشارة إليه، وهي كتابة نقدية غاضبة للظاهرة الدينية عموماً، وكيف أنها تشكل بحسب دعوى المؤلف معوقاً هائلاً عن التفكير المنطقي العقلاني، وحاضناً للممارسة الإرهابية، وقد صدر الكتاب سنة ٢٠٠٤م، ليشكل الكتاب الأول لظاهرة الإلحاد الجديد. وقد حظي المؤلف على جائزة (PEN American Center) عن كتابه هذا، وظهر الكتاب على قائمة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعاً واستمر على القائمة لمدة ٣٣ أسبوعاً.

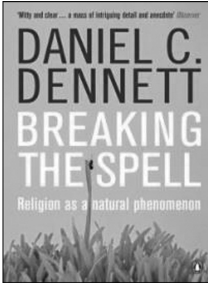


○ **كتاب «وهم الإلٰه»[(١)] للبيلوجي الداروني الشهير ريتشارد دوكنز** صاحب الكتاب الداروني الشهير (الجينة الأنانية) و(صانع الساعات الأعمى) وغيرها، ويمثل كتاب «وهم الإلٰه» الكتاب الأهم والأشهر للظاهرة الإلحادية الجديدة، كما يمثل مؤلفه الأيقونة الأشهر للإلحاد الجديد. ويعالج الكتاب مسألة وجود الله تعالى، والذي يعتبره المؤلف وهماً، وينطلق فيه من قول روبرت بيرسيق: (حين يعاني شخص واحد من الوهم فإنه يسمى جنوناً، وحين يعاني الكثيرون من الوهم فإنه يسمى ديناً)[(٢)]، والكتاب حظي بترجمات متعددة، وبيع منه من وقت ظهوره سنة ٢٠٠٦م وحتى ٢٠١٠م أكثر من مليوني نسخة، وظل على رأس قائمة النيويورك تايمز (بست سلر) لأسابيع وظل على القائمة لمدة ٥١ أسبوعاً.

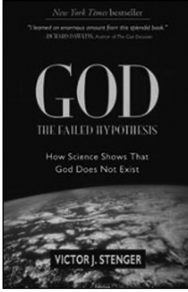
---

(١) the God Delusion.

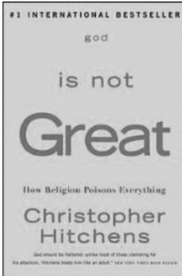
(٢) وهم الإلٰه ص٥.



○ **كتاب «كسر السحر.. الدين كظاهرة طبيعية»**[١] **للفيلسوف الأمريكي دانييل دينت**، والذي ظهر في سنة ٢٠٠٦م، ويعالج الكتاب موضوع الظاهرة الدينية في محاولة لتقديم تفسير مادي دارويني لظهورها في الحياة الإنسانية، ويحاول أيضاً أن يخمن من خلال ذلك مستقبل الظاهرة الدينية، ومدى إمكانية التخلص منها، ويسعى فيه المؤلف إلى ترسيخ قناعةٍ بأن الظاهرة الدينية قابلة للدراسة في مجال العلوم الطبيعية التجريبية وأنها ليست خارج قبضتها.



○ **كتاب «الله الفرضية الفاشلة»**[٢] **للفيزيائي فكتور ستنجر**، والذي ظهر على قائمة (النيويورك تايمز بست سلر) أيضاً في السنة التي خرج فيها ٢٠٠٧م، ويقدم رؤية إلحادية لسؤال وجود الخالق في ضوء العلوم الطبيعية التجريبية على حد دعوى المؤلف.



○ **كتاب «الله ليس عظيماً.. كيف يسمم الدين كل شيء»**[٣] **للصحفي كريستوفر هيتشنز**، والذي ظهر في ٢٠٠٧م أيضاً، ويُمثل الكتاب هجوماً شرساً على الأديان في محاولة لربط كافة الشرور بها، فالأديان بحسب زعمه (عنيفة، وغير عقلانية، وغير متسامحة، ومتحالفة مع العنصرية، والقبلية، والتعصب الأعمى، وغارقة في الجهل، ومعادية لحرية التعبير، تقوم على احتقار المرأة، وقهر الأطفال). وقد حظي الكتاب بانتشار واسع، وتصدر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً وترجم إلى عدد من اللغات المختلفة.

---

(١) Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon.

(٢) God: The Failed Hypothesis.

(٣) God Is Not Great: How Religion Poisons Everything.

هذه أهم الكتب التي تشكل القاعدة التي تأسست عليها ظاهرة الإلحاد الجديد، وهي كما ترى متنوعة تعمل على مسارات متعددة، كما أن مؤلفوها ذوو تخصصات مختلفة، وهذا الاختلاف والتنوع ساهم في مزيد من التأثير والانتشار، وخلق فضاءات متعددة للتأثير.

ولم تكن هذه الكتب نهاية المشوار بالنسبة لمؤلفيها، بل خلفت حالة النجاح محفزاً لمزيد من الكتابة والتأثير فدوكنز مثلاً صاحب المؤلفات الكلاسيكية في الداروينية الحديثة استمر في الكتابة في المضمار الإلحادي وفق مجاله الاختصاصي فكتب: «أعظم عرض على الأرض.. برهان التطور»(١) و«سحر الحقيقة»(٢)، كما أصدر الجزء الأول من سيرته الذاتية تحت عنوان «شهيةٌ للدهشة»(٣).

وكذلك سام هارس كتب عدداً من المؤلفات التي تعالج مجالات فلسفية متنوعة في ضوء رؤيته المادية الإلحادية ككتابه «رسالة إلى أمة نصرانية»(٤) والتي حاول أن يناقش فيها بعض الاعتراضات التي جاءت على كتابه «نهاية الإيمان»، وكذلك كتب «المشهد الأخلاقي.. كيف يمكن للعلم التجريبي أن يحدد القيم الإنسانية»(٥)، وكتاب (الإرادة الحرة)(٦)، ويعمل حالياً على عدد من الكتب.

ولكريستوفر هيتشنز كتب متعددة أيضاً من أهمها: «الملحد المحمول.. قراءات ضرورية لغير المؤمنين»(٧) وكتاب «هل النصرانية جيدة للعالم؟»(٨)

---

(١) The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution.

(٢) The Magic of Reality.

(٣) An Appetite for Wonder: The Making of a Scientist.

(٤) .Letter to a Christian Nation

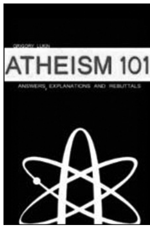
(٥) The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values.

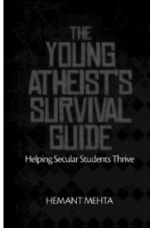
(٦) Free Will.

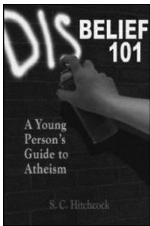
(٧) The Portable Atheist: Essential Readings for the Non-Believer.

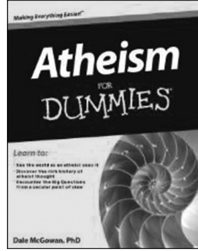
(٨) Is Christianity Good for the World.

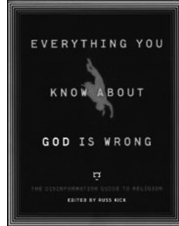
ومذكراته والتي عنون لها بـ «هتش ـ ٢٢»[١]، وبمناسبة ذكر هذا الكتاب الأخير، فالذي لقبه (بهيتش) هو الملحد المرتد الشهير سلمان رشدي صاحب الآيات الشيطانية، والذي يعد صديقاً مقرباً جداً من هيتشنز، وهو ما يكشف سبباً من أسباب تعصبه الشديد ضد الظاهرة الإسلامية كما سيأتي. والشيء بالشيء يذكر فدوكنز قبل أكثر من عشرين سنة كتب بالمشاركة مع ٣٦ كاتباً بمجلة «نيو ستيتمنت» كتابةً دفاعيةً عن سلمان رشدي حين صدرت الفتوى الشهيرة بقتله.











وعوداً للموضوع، فلم تتوقف الظاهرة الإلحادية عن إنتاج الكتب بطبيعة الحال، كما أنها لم تتوقف عند هذه الأسماء فقط بل تجاوزتها إلى غيرها، وإن ظلت تلك الكتب تمثل الأدبيات المركزية لهذه الظاهرة، وما تلاها من كتب أشبه بالروافد في تثبيت وترسيخ الظاهرة في المشهد.

كما أن لغة بعض الكتب ازدادت سهولة وبساطة لتتمكن الظاهرة من اختراق فئات مجتمعية أوسع مختلفة الوعي ومتنوعة الثقافة، وأصبحت الظاهرة تحظى بكتب شعبية عامة تصلح لجميع الشرائح، فسلسلة الكتب الشهيرة (للأغبياء) (For Dummies)[٢] تضمنت كتاباً مختصاً بفهم ملف الإلحاد بعنوان «الإلحاد للأغبياء»[٣] وهو كتاب مبسط يقدم تأريخاً للظاهرة الإلحادية إضافةً إلى شيء من المفاهيم المتصلة بها، وتقديم

---

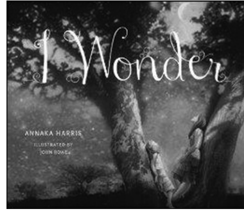
(١) Hitch-22.

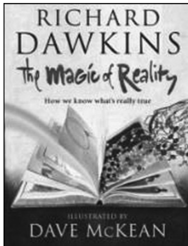
(٢) الطريف أن هذه السلسلة تم ترجمة عنوانها الرئيس هذا في الوطن العربي (بالمبتدئين) بدل (الأغبياء) ويبدو أن السبب واضح.

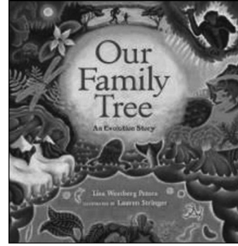
(٣) Atheism for Dummies.

خارطة طريق لكيفية العيش كملحد. وثمة سلسلة شعبية أخرى تحت عنوان «كل ما تعرف عن. . . . خطأ» فكان من ضمنها كتابٌ بعنوان «كل ما تعرفه عن الله خطأ»[1] وهو يشتمل على مجموعة من الأوراق المبسطة المتنوعة لمناقشة مبدأ وجود الله، والموقف من الأديان، والموقف من الإلحاد. ومن الكتب المبسطة كذلك (الإلحاد ١٠١)[2] وهو كتاب للمبتدئين في دراسة الإلحاد، وآخر بعنوان «عدم الإيمان. . دليل شخصي للإلحاد للشباب»[3]، ومثله «دليل البقاء للملاحدة الصغار. . مساعدة الطلاب العلمانيين للازدهار»[4].









وأبلغ من هذا في تبسيط المفاهيم الإلحادية كتب مؤلفة للأطفال للترويج للفكر الإلحادي ومن الأمثلة كتاب «إني أتساءل»[5] لمؤلفته أناكا هارس، وهي زوجة سام هارس. ومن الكتب كذلك «ما الذي تؤمن به؟»[6]، وكتاب «شجرة عائلتنا: قصة تطور»[7]، وسلسلة كتب (الكون يخبرنا عن قصة أرضنا) بل إن ريتشارد دوكنز ألف كتاباً للمراهقين والأطفال وهو كتابه الأحدث «سحر الحقيقة. . كيف نعرف ما هو حقيقة فعلاً»[8].

---

(١) Everything you know about God is wrong.

(٢) Atheism 101.

(٣) Disbelief 101: a Young Person's Guide to Atheism.

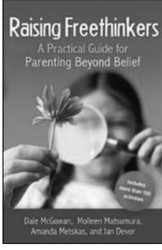
(٤) The Young Atheist's Survival Guide: Helping Secular Students Thrive.

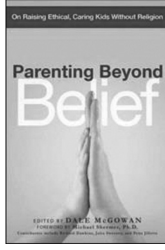
(٥) I Wonder.

(٦) What Do You Believe?

(٧) Our Family Tree: An Evolution Story.

(٨) The Magic of Reality: How We Know What's Really True.







والشيء بالشيء يذكر فثمة كتب تربوية تقدم إرشادات ونصائح للملاحدة في كيفية تنشئة أطفالهم وفق منظور إلحادي، ومن تلك الكتب مثلاً كتاب «تربية الأطفال بعيداً عن الإيمان»[١]، وكتاب «دليل إلى خلق الملاحدة»[٢]، وكتاب «تنشئة الأحرار فكرياً»[٣]، ومصطلح الحر فكرياً هو واحد من المصطلحات المقترحة كبديل لمصطلح الإلحاد في الفضاء العام بحكم ما لكلمة الإلحاد من حمولة سلبية في الوعي الاجتماعي العام.

هذه بعض الأنشطة الإلحادية المختلفة في مجال التأليف والكتابة، وهي في تزايد كبير، وإن لم تحظ جميعاً بمثل شهرة أو أصداء تلك الكتب التي شكلت بدايات الظاهرة الإلحادية الجديدة.

البرامج الفضائية والإذاعية:

أنتج الملاحدة عدداً غير قليل من البرامج الإعلامية المتنوعة، ما بين برامج حوارية، وأفلام تعليمية ووثائقية، بل إن عدداً كبيراً من الأفلام والمسلسلات الترفيهية تشكل فيها الفكرة الإلحادية أحياناً فكرة شديدة المركزية، أو على الأقل تتضمن لقطات ومشاهد ذات خلفية إلحادية، فمن تلك الأفلام الحديثة نسبياً والتي يُشكل فيها الإلحاد فكرة شديدة الحضور فلم (رجل من الأرض)[٤]، و(اتصال)[٥]، (أي شيء قابل للعمل)[٦]، (الغروب

---

(١) parenting beyond belief.

(٢) A Manual for Creating Atheists.

(٣) Raising Freethinkers.

(٤) The Man from Earth.

(٥) Contact.

(٦) Whatever Works.

المحدود)[١]، (أجورا)[٢]، (باول)[٣]، (كوكب القردة)[٤]، (الخلق)[٥]، (الحافة)[٦]، (طريق الخلاص)[٧]، (اختراع الكذب)[٨] وغيرها الكثير. أما تسريب المضامين الإلحادية بشكل جزئي وعلى هامش الفلم فأكثر من أن يحصى، سواءً عن طريق الأفلام أو المسلسلات، وأنا لا أتحدث عن أعمال مغمورة بل عن أعمال شديدة الشهرة في محيط المهتمين بمتابعة هذه الأفلام والمسلسلات وهي نطاقات شعبية واسعة جداً. فمن تلك المسلسلات مثلاً (ضائع)[٩]، (غير طبيعي)[١٠]، (هاوس أم دي)[١١]، (عظام)[١٢]، (باتل ستار جلاكتيكا)[١٣]، (رجل عائلة)[١٤]، (نظرية الانفجار الكبير)[١٥]، (مجتمع)[١٦] وغيرها الكثير الكثير، وهو مجال خصب من مجالات البحث لتعميق نظرتنا في حجم تأثير من هذه الأفلام في تشكيل العقول وتغيير القناعات.

وحتى لا أخلي المقام من توصيف حجم الجرعة الإلحادية التي يتم تمريرها عن طريق بعض هذه الأفلام ألخص الفكرة المحورية لأحدها وهو فلم (اختراع الكذب) (The Invention of Lying)، ليتضح بشكل واضح كيف يتم

---

(١) The Sunset Limited.

(٢) Agora.

(٣) Paul.

(٤) Planet of the Apes.

(٥) Creation.

(٦) The Ledge.

(٧) Salvation Boulevard.

(٨) The Invention of Lying.

(٩) Lost.

(١٠) Supernatural.

(١١) House MD.

(١٢) Bones.

(١٣) Battlestar Galactica.

(١٤) Family Guy.

(١٥) Big Bang Theory.

(١٦) Community.

تمرير الرسائل الإلحادية بشكل مكشوف من خلال مثل هذه الأفلام الترفيهية، فالفلم من بطولة (ركي جرفيز)[1] وهو ممثل مخلصٌ لإلحاده، وله لقاءات متعددة بهذا الخصوص أحدها مع ريتشارد دوكنز. يقوم (جرفيز) في هذا الفلم بتأدية دور مارك والذي يعيش في جنسٍ بشريٍ لا يعرف الكذب مطلقاً، بل لا يستطيع حتى تعقل معنى الكذب فضلاً



عن ممارسته، وكل كلمة ينطق بها هو ومن حوله هي محض الصدق، وبالتالي فإن الناس تتقبل كل ما يقال لأنه لا يتصور إلا أن يكون صدقاً ولاستحالة وقوع الكذب. يبتدأ الفلم باستعراض حياة مارك المليئة بالإحباطات والفشل، فمن حوله لا يحبونه ويكاشفونه بذلك، ثم يُفصل الرجل من عمله، فيعجز عن سداد مستحقات شقته فيطرد منها. ثم تنقلب حياته رأساً على عقب حين استطاع أن يكتشف الكذب وذلك للحصول على بعض المال الزائد من البنك. في أحد اللقطات وحين صار متمرساً على الكذب يذهب لزيارة أمه في المستشفى بعد إصابتها بنوبة قلبية، والكل يخبرها أنها ستموت الليلة بنوبة قلبية أخرى. تبدي الأم تخوفها من الموت، وتخوفها من الذهاب للمعدوم، فيقوم الابن بتطمينها ـ بالكذب طبعاً ـ بأنها ذاهبة لمكان جميل، حيث جميع أصدقائها، وزوجها، وأنها ستعيش في هناء وسعادة في قصير كبير، ثم تفارق الأم الحياة مطمئنة راضية. سمع هذا الحوار الطبيب وطاقم التمريض، وآمنوا بقضية الحياة بعد الموت، وأن الإنسان سينتقل لمكان جميل عقب الوفاة، ونشروا الخبر بين الناس. عاد مارك إلى بيته ليجد تجمعاً ضخماً يسألونه عن تفاصيل الحياة بعد الموت، فيدخل مسرعاً لبيته وبعد تفكير عميق يخرج إليهم حاملاً لوحين لعلبة بيتزا وقد كتب عليهما وصاياً عشر، ليبتدئ في سردها على الناس، أولاً ثمة رجل في السماء، وهو يسيطر على كل شيء، وكل ما

---

(١) Ricky Gervais.

يقع في الأرض فبسببه وإرادته، وأنه هو الذي أخبره بهذه التفاصيل، ثم يستمر في سرد ما لديه من الوصايا المتعلقة بفعل الخير ومجانبة الشر، وما يحصل للإنسان بعد الموت من الثواب أو العقاب، لينتقل مارك بعد ذلك في أعين الناس إلى شيء يشبه النبي، بل ويأتي في لقطة معينة وقد طال شعر رأسه ولحيته ليقدم هذا المشهد بشكل فج مظهراً نوعاً من التشبه بالمسيح عليه السلام في ضوء التصور الغربي النصراني له. وهكذا يتم تمرير فكرة أن (وجود الله) مجرد اختراع بشري، وأن فكرة (الحياة الأخروية) مجرد كذبة، وأن مخترعي هذه الأكاذيب مجموعة من الكذبة بواعثهم في نشر هذه الأكاذيب طلب مصلحة الخلق كما يقوله بعض الفلاسفة، ببث روح الاطمئنان بين الناس، ودعوتهم للإيمان بالحياة الأخروية لأجل تحقيق الانضباط الأخلاقي، وطلباً لتحقيق الراحة النفسية والمصالحة مع الموت. هذه قصة واحدة لفلم واسع الانتشار، وعلى مثيله عشرات الأفلام الأخرى.

كما أن ثمة أفلام كرتون للأطفال تقوم بتسريب مضامين إلحادية في قوالب غير مباشرة ومن الأمثلة التي يمكن تسجيلها هنا الفلم الكرتوني (الأقدام السعيدة)(١) وكذلك (كايينا. . النبوءة)(٢)، وغيرها.

الطريف أن ثمة مواقع نصرانية متعددة ترصد ما تنتجه استديوهات هوليوود وغيرها، وتقوم بتقييمه وفقاً لمعايير متعددة أخلاقية وعقدية، وتقدم تقارير مفصلة بهذا الخصوص، فمن تلك المواقع مثلاً:

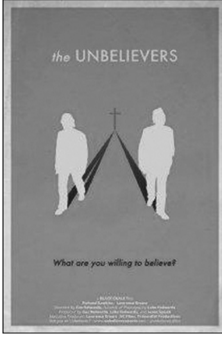
- http://www.movieguide.org/
- http://christiananswers.net/spotlight/
- http://www.crosswalk.com/culture/movies/

وبعيداً عن هذا النمط من الأفلام الترفيهية، والتي يتم تسريب المضامين الإلحادية بأشكال غير مباشرة من خلالها في الغالب، فثمة عددٌ كبيرٌ من الأفلام الوثائقية والتعليمية التي تعالج ملفات الإلحاد بشكل مباشر، وبعضها

---

(١) Happy Feet.

(٢) Kaena: the Prophecy.



لرموز الإلحاد الجديد، فريتشارد دوكنز مثلاً قدم عدداً من الأفلام الوثائقية تحت سلسلة له بعنوان «جذر الشرور كلها»[١]، تضمنت حلقةً بعنوان «وهم الإلٰه» وحلقةً أخرى «فيروس الإيمان» إضافة إلى حلقات أخرى، وله أفلام وثائقية أخرى كـ«عبقرية شارلز دارون»[٢] و«خطر المدارس الدينية»[٣] وغيرها، وقد ظهر مؤخراً بالمشاركة مع لورنس كراوس في فلم «غير المؤمنين»[٤] للحديث عن قضية الإلحاد، مع إجراء عدد غير قليل من الحوارات مع الملاحدة. ومن مظان الأفلام الإلحادية كثير من البرامج التي تبث على قناة ديسكفري، وناشينول جيوغرافك والتي تتضمن ملفات إلحادية مباشرة، أو ملفات تتصل بملف بالإلحاد.

وما دمنا بصدد الحديث عن الإلحاد في المجال الفني، فمن الملاحظات التي يمكن تسجيلها أن عدداً كبيراً من مشاهير الممثلين والممثلات في الفضاء الغربي ملاحدة، وبعض هؤلاء لديهم حماسة حقيقية فيما يتعلق بالتعبير عن هويتهم الملحدة، ولهم مواقف ومقولات بهذا الخصوص، فمن مشاهير الممثلين والممثلات على سبيل التمثيل لا الحصر: وودي آلن، كيفن بيكن، سيمون بيكر، مونيكا بيلوشي، جاك بلاك، جورج كلوني، وليام ديفيز، كيري فيشر، جودي فوستر، ستيفن فراي، ركي جرفيز، سيث جرين، أنجلينا جولي، كيرا نايتلي، هف لوري، جون مالكوفيتش، إيان مكلين، جوليان مور، سليان مورفي، جاك نيكولسن، باتن أوسوالت، سيمون بق، سين بن، كريس باين، براد بت، ناتلي بورتمان، دانيال رادكلف، كينو ريفز، راي رامانو، بروس ولس، وغيرهم كثير[٥].

---

(١) The Root of All Evil.

(٢) The Genius of Charles Darwin.

(٣) Faith School Menace.

(٤) The Unbelievers.

(٥) توجد قوائم كثيرة تكشف عن مشاهير الملاحدة في مختلف المجالات على شبكة الإنترنت.

ومن الأنماط الفنية التي دخل فيها الملاحدة، وقاموا بتمرير كثير من الرسائل الإلحادية من خلالها الأغاني والفيديو كليبات، فمن الأغاني الشهيرة بهذا لخصوص أغنية (تخيل) لجون لينون[١] والتي تقول كلماتها: تخيل أنه لا جنة، إنه سهل إذا حاولت، لا جحيم بالأسفل منا، فوقنا السماء فقط، تخيل جميع البشر، يعيشون لهذا اليوم.. إلى آخر كلمات هذه الأغنية[٢].

ومن الأغاني الإلحادية الشهيرة أيضاً (عزيزي الرب)[٣] وهي أغنية تضرب على وتر سؤال الخير والشر والعدل الإلٰهي، وهي الثيمة التي تدور عليها غالب الأغاني الإلحادية مثل (الكذبة البشعة)[٤]، (حب الرب)[٥]، ومن الأغاني الإلحادية الشهيرة كذلك (أنا لست خائفاً) لهولي نير[٦] والتي مطلعها: أنا لست خائفاً من يهوه، أنا لست خائفاً من الله، أنا لست خائفاً من عيسى، أنا خائف مما تمارسه باسم إلهك[٧]. ومن الأغاني أيضاً: (سلام الملحد)، (الدين السيء)، (حرة الإرادة)، (عديم الإيمان)، (باسم الله)، (تحرير)، (لا أحتاج للدين) وغيرها الكثير.

مؤسسات إلحادية:

العمل الإلحادي اليوم ليس عملاً عشوائياً يعتمد على الجهود الذاتية الفردية فقط، بل ثمة مؤسسات إلحادية معنية بالدعوة إلى الإلحاد، ورعاية الملحدين، ودعم المؤسسة العلمانية، وضمان مبدأ الفصل بين الدين والدولة، فمن المؤسسات الإلحادية الشهيرة مثلاً:

---

(١) John Lennon-Imagine.

(٢) Imagine there's no Heaven, It's easy if you try, No hell below us, Above us only sky, Imagine all the people,Living for today, Imagine there's no countries, It isn't hard to do, Nothing to kill or die for, and no religion too, Imagine all the people, Living life in peace.

(٣) XTC-Dear God.

(٤) Nine Inch Nails-Terrible Lie.

(٥) Bad Religion-God's Love.

(٦) I Ain't Afraid-Holly Near.

(٧) I ain't afraid of your Yahweh, I ain't afraid of your Allah, I ain't afraid of your Jesus, I'm afraid of what you do in the name of your god.

○ التحالف الدولي للملاحدة (Atheist Alliance International).

○ رابطة الملاحدة (Atheist Nexus).

○ مؤسسة ريتشادر دوكنز لدعم العقل والعلم (Richard Dawkins Foundation for Reason and Science).

○ الاتحاد الدولي للاتجاه الإنساني والأخلاقي (International Humanist and Ethical Union).

○ الرابطة الدولية لغير المتدينين والملحدين.

هذه بعض المؤسسات ذات الهم العالمي، وثمة بالطبع مؤسسات كثيرة جداً منتشرة في مختلف دول العالم تعمل في مجالها المحلي. ومن الطريف أن فاعلية العضو في دعم هذه المؤسسات يتفاوت أحياناً بحسب الطبيعة الإلحادية للملحد، فمثلاً قائمة الاشتراكات لدعم التحالف الدولي للملاحدة هو على النحو التالي:

- مساعد وثني ٣٥٠ دولار شهرياً.
- مستثمر كافر ١٥٠ دولار شهرياً.
- مرتد متحمس ٨٠ دولار شهرياً.
- ممول متحرر فكرياً ٣٥ دولار شهرياً.
- داعم عقلاني ٥ دولار شهرياً.

AAI Membership

AAI has a number of membership options, depending on your ability and interest level of support. Choose the one that works best for you!

Monthly Supporter Options *(Auto-Renewing, Paypal account required)*:

Helping Heathen — Level 1 : $350.00 USD - monthly Local Group (Optional) Subscribe	Investing Infidel — Level 1 : $150.00 USD - monthly Local Group (Optional) Subscribe
Ardent Apostate — Level 1 : $80.00 USD - monthly Local Group (Optional) Subscribe	Funding Freethinker — Level 1 : $35.00 USD - monthly Local Group (Optional) Subscribe
Rational Supporter — Level 1 : $5.00 USD - monthly Local Group (Optional) Subscribe	Want to cancel your auto-renew? Just click on this button: Unsubscribe

مواقع على شبكة الإنترنت:

ثمة مواقع إلحادية كثيرة جداً على شبكة الإنترنت، تقدم مواداً كثيرة متصلة بالظاهرة الإلحادية، وتمارس دوراً دعوياً للفكرة الإلحادية، وبعض هذه المواقع عبارة عن مدونات شخصية لكنها مؤثرة في المشهد الإلحادي، وبعضها تابع لبعض المؤسسات وهي أشد تأثيراً، ومن أهم هذه المواقع الإلحادية:

- reddit.com/r/atheism
- richarddawkins.net
- scienceblogs.com/pharyngula
- friendlyatheist.com
- skepdic.com
- commonsenseatheism.com
- venganza.org
- unreasonablefaith.com
- skepticsannotatedbible.com
- infidels.org
- freeratio.org
- atheists.org
- thinkatheist.com
- samharris.org
- ffrf.org
- atheismresource.com

إضافة إلى حضور قوي لبعض صفحاتهم على (الفيسبوك) ومواقع التواصل الاجتماعي.

وكما أن ثمة كتباً مؤلفة للأطفال فثمة مواقع إلحادية مصممة للأطفال، ومنها موقع (www.kidswithoutgod.org) وهو موقع يستهدف الأطفال الصغار، والمراهقين، والوالدين ويقدم التوجيهات والإرشادات والمواد الإلحادية.

ما سبق بعض الأذرعة التي يتم ضخ الخطاب الإلحادي من خلالها، وثمة عدد من الاستراتيجيات والتقنيات التي يعمل عليها الملاحدة لأجل نشر

الإلحاد والدعوة إليه، أهمها **تطبيع الحضور الإلحادي مجتمعياً**، إذ يحاول الملاحدة الاستفادة من تقنيات الشواذ جنسياً لخلق حالة القبول مجتمعياً بالإلحاد، وذلك عبر التحفيز على تطبيع حضور الإلحاد في الواقع عبر الظهور العلني للملاحدة وفق فكرة (الخروج من الخزانة) (getting out of the closet)، فثمة قناعة لدى الملاحدة أن عدد الملاحدة فعلياً



في المجتمعات أكبر بكثير مما نتوقع، وأن المستترين بإلحادهم يشكلون رقماً قد يتجاوز بكثير عدد المستعلنين به، وبالتالي فالسعي في إخراج هذه الأعداد للعلن سيوجد كتلة حرجة تقلب ميزان القبول بهم مجتمعياً، ويسهل بعد ذلك عملية انتشار الإلحاد أكثر وأكثر، وأن لوجود هذه الكتلة الحرجة أثر كرة الثلج والتي سيتزايد عدد الملتصقين بها كلما تدحرجت في الواقع، وأنه كلما ظهر المزيد من الملاحدة في المجتمع فإن



ذلك سيكون محفزاً لغيرهم للظهور كذلك وهكذا، حتى تبلغ الحالة وضعاً طبيعياً مقبولاً في المجتمع، ولا تكون ذات طبيعة مستهجنة أو مستفزة. يقول دوكنز موضحاً هذه الفكرة في كتابه وهم الإلٰه: (حلمي أن يساعد هذا الكتاب الناس على الظهور للعلن، تماماً كحركة الشواذ جنسياً، كلما ازداد ظهور الناس فسيساعد ذلك الآخرين على الانضمام لهم. قد يكون هنالك كتلة حرجة والتي ستحدث سلسلة من عمليات التحفيز)[١].

وقد وضع دوكنز في آخر كتابه «وهم الإلٰه» عناوين لمؤسسات متعدد سماها (صديقة) والتي تقدم المساعدة للراغبين في الهرب من الدين[٢].

---

(١) (My dream is that this book may help people to come out. Exactly as in the case of the gay movement, the more people come out, the easier it will be for others to join them. There may be a critical mass for the initiation of a chain reaction). The God Delusion 4.

(٢) وهم الإلٰه ص٣٧٥.

وهناك فعلاً عددٌ من المبادرات لدعوة الملاحدة للخروج العلني من قِبل رموز الإلحاد الجديد وبعض المؤسسات الإلحادية الكبرى، ومن أشهر تلك المبادرات المبادرة التي أطلقها ريتشارد دوكنز في موقع المؤسسة التي أنشأها (RDFRS) والتي سماها بـ (The out campaign) وتعني (حملة الخروج)، والتي يدعو فيها دوكنز الملاحدة للخروج علانيةً عبر حكاية تجاربهم وقصصهم مع الإلحاد، وإبراز هويتهم الملحدة مجتمعياً عبر ارتداء القمصان التي تشير إلى ذلك، أو القبعات التي عليها حرف A اختصاراً لكلمة ملحد (Atheist) أو وضع الملصقات الدعائية للإلحاد على السيارة، أو غير ذلك، المهم هو الإعلان عن الهوية الملحدة، والسعي في تطبيع الإلحاد في المجتمع.



ومن المبادرات كذلك مبادرة موقع (نحن الإلحاد) (www.weareatheism.com) والذي يشكل شبكة اجتماعية واسعة للملاحدة يتم فيه الإعلان عن هوياتهم الملحدة، عن طريق نشر الصور ومقاطع الفيديو والتعليقات، كما يقدم الموقع أيضاً إرشادات ونصائح لمن يريد الإعلان عن إلحاده في محيطه الأسري القريب أو المجتمع الأوسع.

ويبدو أن إيجاد الروابط الاجتماعية الإلحادية باتت قضية مهمة عند كثير منهم وأصبحت مسألة يحرص عليها، فثمة شعور متزايد عند الملاحدة بأهمية تغذية نزعة الانتماء، وإذا كانت الأديان تغذي هذه النزعة بمظاهر التجمع والدعوة لممارسة الشعائر والطقوس وغيرها فليكن للملاحدة ما يغذي هذه النزعة أيضاً، ومن الطريف في هذا السياق تأسيس الملاحدة لعدد من (كنائس الإلحاد) في دول متعددة؛ ككندا، وبريطانيا، وأمريكا وغيرها، وكذلك إقامة الاحتفاليات والأعياد لمناسبات إلحادية؛ كعيد ميلاد دارون، ويوم الإلحاد العالمي، بل ويوم الزندقة والكفر والتجديف (blasphemy day)، وهذا الأخير تم الإعلان عنه في ٢٠٠٩م من خلال منظمة (CFI - Center for Inquiry) ويصادف ٣٠ من سبتمبر، وسبب اختيار هذا اليوم خصيصاً أنه اليوم الذي نشرت فيه الصحف الدنماركية الرسوم المسيئة للنبي عليه الصلاة والسلام.

وما سبق ذكره من كتب وأفلام وأغاني كلها تمارس بلا شك دوراً تطبيعياً ضخماً مع واقع الإلحاد، ويخفف من حالة الحساسية والممانعة اتجاهه.



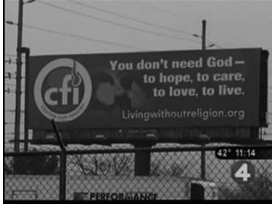
ومن مظاهر الدعوة للإلحاد وتطبيع حضوره في الواقع، الدعوة للإلحاد عبر اللوحات الدعائية في الشوارع، حيث يقوم الملاحدة في كثير من المدن باستئجار اللوحات الدعائية الصغيرة والكبيرة وكتابة العبارات الدعوية الإلحادية عليها.



كما تتم الدعوة للإلحاد بوضع العبارات الإلحادية على الباصات كحملة (باص الإلحاد) في بريطانيا مثلاً والتي رعاها ريتشارد دوكنز ودعمها، حيث قاموا باستئجار المساحة الدعائية الموجودة على جوانب الباصات في بريطانيا وكتبوا عليها: (ثمة احتمال أنه لا إله، دع القلق واستمتع بحياتك). وقد انتشرت هذه الفكرة بعد ذلك في أمريكا وغيرها من دول العالم.



أما اللوحات الدعائية للإلحاد فكثيرة جداً ومن أمثلة العبارات المكتوبة عليها: (الأديان جميعاً قصص خرافية)، (لا تؤمن بالله؟ لست لوحدك)، (لا تؤمن بالله؟ انضم إلى النادي)، (في البدء خلق الإنسان الرب)، (ليس ثمة إله)، (الملايين بخير دون الله)، (نحن جميعاً ملاحدة بالنسبة لأكثر الآلهة، بعض الناس يذهب لأبعد





من ذلك بالنسبة لإله واحد)، (لست بحاجة لله لتتمنى، لتهتم، لتحب، لتعيش)، (لقد بت كبيراً قليلاً لأصدق بصديق متخيل) وغيرها. بل وصل الأمر إلى وضع لوحة في وسط نيويورك في (التايمز سكوير) في عيد الكريسمس مكتوباً فيها (أبق على البهجة) بأسفل صورة (بابا نويل) (وألق الخرافة) تحت صورة المسيح).













وقد أثارت هذه اللوحات بطبيعة الحال جدلاً عريضاً في الشارع الغربي، وولدت ردة فعل دينية واسعة عند المتدينين، فقاموا بوضع لوحاتهم المضادة للملاحدة، ومن أطرفها والتي جاءت استجابة لقول الملاحدة: (لا تؤمن بالله؟ انضم إلى النادي)، فوضعوا لوحة مكتوباً فيها: (نحن نؤمن بالله، انضم إلى النادي الصحيح). ومن اللوحات شديدة الجدية التي وضعوها: (إذا كان الله لا يعني له شيئاً، هل ستكون أنت؟) ووضعوا صورة شخص يحمل مسدساً مصوباً اتجاهك.



ولتأكيد الهوية الإلحادية للملاحدة يقوم الملاحدة بارتداء عدد من القمصان والملابس التي تتضمن عبارات موحية بالهوية الإلحادية، إضافة إلى وضع الملصقات على سياراتهم تتضمن عبارات دعوية إلحادية.



















كما يقوم الملاحدة أيضاً ببعض المظاهرات والاعتصامات للمطالبة بما يرونه لهم من حقوق، كما تقوم بعض المؤسسات الإلحادية بالملاحقة القانونية لأي قضية تتعلق بترسيخ مبدأ العلمانية والفصل بين الدين والدولة، وكذلك السعي في انتشار الداروينية وملاحقة سائر المحاولات لإدخال نظرية التصميم الذكي أو الخلق أو حتى مجرد إبداء الاعتراض على نظرية دارون وكشف ما فيها من ثغرات ومشكلات في الفصول الدراسية. ومن أشهر الحوادث في هذا السياق (قضية كتزملر ضد دوفر (Kitzmiller v. Dover)، والتي كان من أطرافها (المركز الوطني لتعليم العلوم التجريبية (National Center for Science Education) والتي ترأسها الملحدة الداروينية (إيوجين سكوت) وهي امرأة شديدة الحماسة لمحاربة كل حركة مناهضة للداروينية في أمريكا.

السمة الثانية
عدائية الخطاب الإلحادي الجديد

من الملاحظات المهمة التي يمكن تسجيلها حول ظاهرة الإلحاد الجديد، ولعلها تمثل الصفة المركزية المميزة لهذه الظاهرة، تلك اللغة شديدة العدائية للدين، ولمبدأ التدين، ولقضية الإيمان بالله، حتى تم توصيف الظاهرة الإلحادية الجديدة في بعض الدوائر الفكرية الغربية بـ (مليشيات الإلحاد) (Militant Atheists)، وذلك بسبب النمط العدائي الشديد الذي يتميز به هذا الخطاب الإلحادي، أو كما يصفهم بعض المهتمين بالظاهرة (In your face Atheists).

حقاً لقد (ذهبت أيام الإلحاد المؤدب) كما يقول سكوت هان وبنجمن وكر[١].

فالملاحدة الجدد ينطلقون في تعاملهم مع الدين من رؤية ترى فيه منبعاً للشرور والكوارث والقوارع البشرية، وأنه من الواجب السعي بجدية في محاربته وفق الأدوات المتاحة والممكنة. ومن هنا سُميت سلسلة الأفلام الوثائقية الإلحادية الشهيرة لريتشارد دوكنز بـ (جذر الشرور كلها)، ويقصد بهذا الجذر (الدين والإيمان). ومثله كريستوفر هيتشنز والذي جعل لكتابه الشهير (God is not Great) عنواناً فرعياً يقول فيه: (كيف يسمم الدين كل شيء)[٢]،

---

(١) Answering the New Atheism 1.

(٢) How religion poisons everything.

وبخلاف دوكنز الذي أبدى تحفظه على عنوان سلسلته[١]، فإن هتشنز يبدي جديته في اختيار هذا العنوان الفرعي، ويرى فيه تعبيراً حقيقياً عن نظرته للدين، وأن الأمر ليس من قبيل العبارات التسويقية التي يُراد منها مجرد لفت الانتباه للكتاب واستفزاز القارئ، بل الأمر كذلك فعلاً[٢]. بل يقول في مقدمة الكتاب والذي يكشف عن عمق مشكلة هيتشنز مع الدين بل ومع المتدينين: (وأنا أكتب هذه الكلمات، وأثناء قراءتك لها، فإن أصحاب الإيمان بطرائقهم المختلفة يخططون لتدميرك وتدميري، وتدمير كل المنجزات المستحقة للبشرية والتي مررت عليها. الدين يسمم كل شيء)[٣]. ويقول أيضاً: (هنالك بالتأكيد طرق متعددة تكشف أن الدين ليس فاقداً للحس الأخلاقي فحسب، بل يدفع دفعاً إيجابياً للفساد الأخلاقي)[٤].

وما من شك أن مثل هذا التوصيف يكشف عن عصبية شديدة ضد الدين، كما يُفارق أقل درجات العدل والموضوعية حتى وفق المقاييس المادية الإلحادية، إذ مسببات الشرور التي تعصف بالبشرية كثيرة لا يمكن حصرها في معامل أو حتى معاملات محدودة. وفي المقابل لماذا هذا التنكر الفظيع للخير الذي اجتلبه الدين لحياة الناس؟! ومما يكشف عن عدم موضوعية الملاحدة الجدد في مثل هذا الموقف، موقف بعض الملاحدة الآخرين والذين يُبدون قدراً أعلى من الموضوعية والهدوء في تناول أمثال هذه المسائل، فمايكل شرمر مثلاً الملحد الشهير، ورئيس تحرير مجلة «الشكاك» «Skeptics» يقول بعد

---

(١) حيث قال في كتابه وهم الإلٰه ص١: (لم يعجبني العنوان، الدين ليس جذر الشرور كلها؛ لأنه ليس ثمة شيء واحد يمكن أن يعد جذراً لكل شيء، لكنني سعدت بالدعاية التي وضعتها القناة الرابعة في الجرائد المحلية). ولئن لم يُعجب العنوان دوكنز، فمن الواضح أنه أعجب آخرين في القناة، ممن يرى فعلاً بأن الأمر كذلك، وبكل حال فالرسالة تم تمريرها عبر هذا البرنامج لشرائح مجتمعية واسعة.

(٢) من حوار مرئي لهتشنز على اليوتيوب.

(٣) (As I write these words and as you read them, people of faith are in their different ways planning your and my destruction, and the destruction of all the hardwon human attainments that I have touched upon. Religion poisons everything). God is not great 13.

(٤) (There are, indeed, several ways in which religion is not just amoral, but positively immoral). God is not great 205.

ذكره لشيء من الشرور التي فُعلت باسم الدين: (ولكن في مقابل أي من هذه المآسي الضخام فهناك عشرات الآلاف من الأعمال الشخصية الطيبة، والاجتماعية الخيرة والتي لا يتم رصدها... الدين مثل غيره من المؤسسات الاجتماعية ذات العمق التاريخي والتأثير الثقافي لا يمكن أن يختزل في مثل هذه الثنائيات الواضحة إما خير أو شر)[١].

ونتيجة لمثل ذلك التصور شديد القتامة عن التدين في التصور الإلحادي الجديد، فإن موقفهم سيكون واضحاً تماماً حيال الموقف الديني، فهذا ريتشارد دوكنز يقول بصراحة: (أتمنى حقاً حقاً أن أرى الدين يزول تماماً)[٢]. ويقول سام هارس في أحد حواراته والمنشورة في مجلة «صن»: (لو كان بإمكاني الحصول على عصاً سحرية، واستطعت القضاء إما على الاغتصاب أو الدين، لما ترددت أبداً في القضاء على الدين)[٣].

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد في تحديد الموقف من المسألة الدينية، إذ يصرح سام هارس في كتابه نهاية الإيمان ـ وهو الملحد الليبرالي ـ بتصريح في غاية الخطورة والأهمية فيقول: (بعض المسائل من الخطورة بمكان بحيث يمكن أن يكون قتل من يعتقدها أخلاقياً)[٤]، وليس من الصعب معرفة شيء من مواصفات هذه المسائل التي يتحدث عنها سام هنا، خصوصاً وأننا قد عرفنا كيف أن الدين يسمم كل شيء! وأنه جذر الشرور كلها!

ولا فرق مؤثر هنا بين ألوان التطرف الديني، وأنماطه المعتدلة في حس الملاحدة الجدد، بل جميعها وإن تفاوتت تمثل مشكلة حقيقية، ينبغي السعي

---

(١) (However, for every one of these grand tragedies there are ten thousands acts of personal kindness and social good that go unreported... Religion, like all social institutions of such historical depth and cultural impact, cannot be reduced to an unambiguous good or evil). How We Believe: Science, Skepticism, and the Search for God 71.

(٢) (I really, really would like to see religion go away altogether). INTERVIEW: RICHARD DAWKINS KEEPS MAKING NEW ENEMIES.

(٣) (If I could wave a magic wand and get rid of either rape or religion, I would not hesitate to get rid of religion) the temple of reason, the SUN magazine.

(٤) (Some propositions are so dangerous that it may even be ethical to kill people for believing them). The End of Faith 52.

في إعدامها جميعاً من الوجود، ومن الشعارات الإلحادية المعبرة عن هذا الشعور عبارة موضوعة على بعض القمصان: (الدين.. معاً نستطيع إيجاد العلاج)، والعلاج معروف طبعاً، استئصاله من الوجود.



يقول (جلن سلايد): (المعتدلون يقدمون قاعدة قوية يتكؤ عليها المتطرفون). أما دوكنز فقد خصص في كتابه وهم الإلٰه فصلاً بعنوان: «كيف يرعى الاعتدال الديني التعصب»[١]، ويقول سام هارس منتقداً بعض علماء الطبيعة ممن يمثلون في تقييمه خطأً دينياً معتدلاً: (حان الوقت للعلماء والمفكرين أن يلحظوا أن المنافسة بين الإيمان والعقلانية نتيجته صفرية، ليس ثمة شك في هذا، ولكن علماء الطبيعة المعتدلين دينياً مثل فرانسيس كولنز، وكينيث ميلر، بتسببون بضرر دائم لحديثنا بسبب حالة التوافق التي صنعوها مع اللاعقلانية الدينية)[٢].

وحين رُشِّح (فرانسيس كولنز) رئيس مشروع الكشف عن الجينوم البشري لرئاسة معاهد الصحية الوطنية الأمريكية (NIH)، هاجمه سام هارس بشدة مبرراً هجومه بأن تدين كولنز سيؤثر سلباً على دعم البحث العلمي، وأنه متنكر للرؤية العلمية المادية للوجود. كما قام جيري كُوْين أيضاً بالتهجم على كولنز واصفاً إياه بأنه (مثير للخجل للمعاهد الوطنية الصحية، وللعلماء، وجزماً لجميع البشر العقلاء)، بل يصفه الملحد الشرس (بي زي مايرز) بقوله بأنه (شخص مغفل يؤمن بفكرة الخلق وأنه ضد النظريات العلمية)، بل وصفه في مقام آخر بأنه (مهرج)، (وأن جميع ما كتبه حيال طريقة تفكيره في العلم هو مجرد زبالة)[٣].

---

(١) (HOW 'MODERATION' IN FAITH FOSTERS FANATICISM) the God delusion 301.

(٢) (It is time that scientists and other public intellectuals observe that the contest between faith and reason is zero-sum. There is no question but that nominally religious scientists like Francis Collins and Kenneth R. Miller are doing lasting harm to our discourse by the accommodations they have made to religious irrationality). The Politics of Ignorance.

(٣) انظر مقال: (Monday must be Pick On Francis Collins Day).

هذا مع العلم أن لكولنز منجزات علمية حقيقية وكبيرة تفوق كثيراً منجزات منتقديه، بل لم يشفع له حماسته في الدفاع عن نظرية التطور والترقي، والذي أثنى على كتابته فيها كريستوفر هتشنز في أحد المناسبات، وكذلك نقده لحركة التصميم الذكي، إضافة إلى ما يبديه من نمط شديد الاعتدال والتسامح من التدين، ولكن هذا كله لم يشفع له في تخفيف حدة الهجوم عليه، إذ الإشكالية ليست مع نمط التدين، ولا في مستوى التنازلات التي يمكن أن تقوم بها، وإنما هو مع التدين ذاته أياً كانت طبيعته.

ويمكن مشاهدة الفلم الشهير (مطرود) (expelled)، والذي يكشف عن حالة الإقصاء التي تمارس في المؤسسة الأكاديمية لمخالفي نظرية دارون في المجتمع الغربي، وكذلك ما كتبه البيولوجي (جيري بيرغمان) والذي تم وضع اسمه في قائمة (Who's Who) في أمريكا، خصوصاً في كتابه «ذبح المنشقين.. الحقيقة الصادمة عن حقيقة قتل مهن المتشككين في الداروينية»[١].

وإذا كان هارس يعتقد أن مجرد اعتقاد أن الله يعلم بأفكارك ينبغي أن يعد نوعاً من الأمراض العقلية[٢]، فمن الطبيعي أن نتفهم حالة الاحتقان الشديد ضد مختلف المظاهر والشعائر الدينية، ومن جميع المتدينين والتي يمكن التعبير عنها بعبارة مختصرة (حان الوقت للملاحدة للتوقف عن مداهنة النصارى وباقي أصحاب الديانات) كما يقول فيكتور ستنجر.

هذه النفسية شديدة العدائية للدين تظهر في طبيعة اللغة المستخدمة عند كثير من رموز الإلحاد الجديد وأتباعهم، فالبجاحة والوقاحة والتحقير والكِبر كلها سمات شديدة الحضور في كثير من الخطابات الإلحادية الجديدة، وليس من المستغرب أن يتم شرعنة مثل هذه الممارسات عبر تأصيل ـ ليس مبدأ نقد

---

(١) (Slaughter of the Dissidents.. the Shocking Truth About Killing the Careers Of Darwin Doubters).

(٢) (It is merely an accident of history that it is considered normal in our society to believe that the Creator of the universe can hear your thoughts while it is demonstrative of mental illness to believe that he is communicating with you by having the rain tap in Morse code on your bedroom window). The End of Faith 72.

الدين فقط ـ بل شرعنة السخرية والهزء من الدين والتدين، وهو ما يؤصل له نظرياً ويمارسه عملياً رموز الإلحاد الجديد خصوصاً كريستوفر هيتشنز، ولورانس كراوس، وبي زي مايرز، وغيرهم. ويكفي أن تشاهد شيئاً من محاضراتهم أو مناظراتهم لتعلم عن ماذا أتكلم.

وقد كتبت المرتدة (آيان هرسي علي) الملحدة الصومالية، وكاتبة سيناريو فلم (الخضوع) (Submission) والذي تم فيه الطعن في دين الإسلام والتهجم الشديد عليه، والذي قتل على إثره مخرج الفلم الهولندي فان خوخ، كتبت مقالةً في تأصيل مبدأ إهانة الأديان بعنوان «حق الإهانة»[1]، تهجمت فيها بشكل خاص على النبي ﷺ ودين الإسلام بلغة لاذعة، وهي تلقى حفاوةً كبيرةً من رموز الإلحاد الجديد، بل ودعماً مادياً ومعنوياً.

وريتشارد دوكنز نفسه يؤصل لهذا المبدأ عبر كلمة له في أحد التجمعات الإلحادية ختمها موصياً الملاحدة بما يلي: (اسخروا منهم، واستهزؤا بهم علانية، إياكم أن تقعوا في فخ العرف الدارج أننا مؤدبون جداً لنتحدث عن الدين، الدين ليس مرفوعاً عن الطاولة، ولا هو خارج عن حدود النقد، الدين يقدم تصورات معينة عن الكون والتي تحتاج إلى التثبت منها، ينبغي تحديها والسخرية منها باحتقار)[2].

فلا مكان للدين في عالم اليوم، ولا مكان للمتدينين في المجتمع العلمي، ولا محل لمجرد النقد البريء المهذب، وإنما هي السخرية والاستهزاء والاحتقار والازدراء.

يوضح (جيري وولف) الملحد اللاأدري والذي سَكّ مصطلح (الإلحاد الجديد) هذه النفسية العدائية الفجة من خلال قصة شخصية طريفة حصلت له مع مجموعة من زملائه المختصين في مجال التقنية والعلوم الطبيعية، يقول: (أعود إلى أكسفورد متحمساً للجدل. أجرب مباشرة تطبيق مناشدة دوكنز مع مجموعة مؤدبة، وذلك على حفلة عشاء وشراب. أطلب ممن حولي الإفصاح

---

(١) The Right to Offend.

(٢) Reason Rally 2012.

عن أنفسهم وأسأل: (من هاهنا من الملاحدة؟). في الغالب تكون ردة الفعل الأولية صمت مطبق مع تبادل النظرات على أمل أن يبادر شخص آخر للجواب. وبعد برهة يقوم شخص بالجواب، ويكاد يكون دائماً رجل، ويكاد أن يكون ذلك مصحوباً بابتسامة تحدي ونغمة فيها قدر من الحماسة فيقول بشيء من الفرح: (أنا كذلك!)، لكن التعليق التالي هو المعبر. شخص آخر يلتفت إليه ويقول: (ينبغي أن تكون كذلك). فيسأله: (ولمه؟)، فيأتيه الجواب: (لأنك تستمتع باستفزاز الناس)، فيقول: (في الواقع هذه هي الحقيقة)[1].

هذا في الواقع هي النفسية التي تسيطر على كثير من الملاحدة في حملتهم التبشيرية بالإلحاد (نفسية الاستفزاز)، وهي النفسية التي تسربت إلى كثير من الأتباع وصارت مسيطرة على أقوالهم وأفعالهم.

كما صاروا يتعاملون مع مثل هذه التقنيات التحقيرية ويستعملونها للتوهين من المسألة الدينية ونزع مفهوم القداسة عنها، فقاموا بإصدار عدد كبير من المقالات، والتدوينات، والكتابات، والمقاطع المرئية، والأفلام، وغيرها والتي يبثون من خلالها قدراً مرتفعاً من النقد الموجه للأديان، بلغة شديدة السقوط، وأسلوب شديد العدوانية، وفضاء الإنترنت بمدوناته وصفحات الفيسبوك وتويتر واليوتيوب يغص بمثل هذه المقاطع البذيئة.

بل إن المنتدى الخاص بموقع (مؤسسة ريتشارد دوكنز لدعم العلم والمنطق) والذي يُعد أكبر المنتديات الإلحادية على الشبكة والذي يشتمل على

---

(١) (I return from Oxford enthusiastic for argument. I immediately begin trying out Dawkins' appeal in polite company. At dinner parties or over drinks, I ask people to declare themselves). "Who here is an atheist?" I ask.
Usually, the first response is silence, accompanied by glances all around in the hope that somebody else will speak first. Then, after a moment, somebody does, almost always a man, almost always with a defiant smile and a tone of enthusiasm. He says happily, "I am"!
But it is the next comment that is telling. Somebody turns to him and says: "You would be".
Why?
Because you enjoy pissing people off.
Well, that's true.
The Church of the Non-Believers.

أكثر من ٨٥ ألف مشترك، وقعت له قصة تكشف عن طرف من السقوط الأخلاقي في مجال الحوار والنقد عند كثير من رواده من الملاحدة، حيث فوجئ كثير من المشتركين في ٢٣ فبراير ٢٠١٠م بعدم تمكنهم من الدخول للمنتدى، إذ اتُخذ قرار بزيادة الجانب الرقابي للمواد المكتوبة بسبب حجم البذاءات والسباب والشتائم والتي كان يعج بها المنتدى، واشتعلت كثير من المدونات في ذلك الحين في نقد هذا القرار بلغة لاذعة، ولم ينجو ريتشارد دوكنز نفسه من بعض الهجوم حتى كتب فيه أحدهم بأنه (قيح موجود في دبر فأر محشو في ظربان ميت)! وقد كشفت جريدة (التلغراف) البريطانية وكذا (الجارديان)[١] شيئاً مما جرى بخصوص هذا المنتدى، وردود الأفعال جراء إغلاقه[٢].

ولم تنته القصة عند هذا الحد فمما يصلح أن يُذكر هنا استطراداً أن الشخص الذي كان يدير الموقع وهو (جوش تيمونن) وهو شخصية قريبة من ريتشارد دوكنز، حتى جعل دوكنز إهداء كتابه «أعظم عرض على الأرض» له بما يدل على احتفائه به. لكن دوكنز في أكتوبر سنة ٢٠١٠م قام برفع دعوى قضائية ضد جوش متهماً إياه بأنه احتال عليه بسرقة مئات الآلاف من الدولارات من خلال بيع بعض المعروضات الإلحادية والأعمال التذكارية الخاصة بدوكنز من خلال الموقع، مطالباً إياه بتعويضات تصل إلى ٩٥٠ ألف دولار، ودافع جوش عن نفسه معتبراً ما قام به دوكنز هنا خيانة كبرى، واتهاماً غير مدلل. وقد نشرت جريدة (الإندبندت) البريطانية تفاصيل القصة[٣].

وعوداً على اللغة العدائية والتي يستعلمها بعض الملاحدة في تمرير أفكارهم الإلحادية، يقول أحد الملاحدة في تعليق له على المناظرة الشهيرة التي جرت بين دوكنز وجون لينكس في أمريكا سنة ٢٠٠٧م: (لماذا الجميع

---

(١) http://www.theguardian.com/commentisfree/andrewbrown/2010/feb/25/atheism-dawkins-meltdown-comments.

(٢) http://www.telegraph.co.uk/news/religion/7322177/Richard-Dawkins-in-bitter-web-censorship-row-with-fellow-atheists.html.

(٣) http://www.independent.co.uk/news/world/americas/an-ungodly-row-dawkins-sues-his-disciple-2115632.html.

متفاجئ من أن هذه المناظرات تنتهي دوماً بنفس الطريقة. لماذا؟! لماذا نتوقع أي شيء أفضل من المتدينين؟ بدأت أعتقد أن أفضل شيء نفعله هو مجرد الصراخ في وجوههم، «إنكم أغبياء، إنكم حمقى، إنكم بله!!» قد يكون هذا نافعاً كنفع استخدام المنطق والعقل. العقل والمنطق لعنة على هؤلاء الناس. سوف أصيح فيهم)[١].

أما الشتائم المقذعة واللغة البذيئة الساقطة فشيء يصعب أن ينقل هنا، ولكن لعلي أورد شيئاً من أسماء الكتب المعبرة عن مثل هذا السقوط، معتذراً عن ترجمة العناوين وذلك لشدة قبحها وشناعتها، وإنما أوردها ليعلم حجم الجرأة التي يبديها هؤلاء، وأننا حين نتحدث عن البذاءة في إدارة الحوار، فإن الأمثلة حاضرة فعلاً وليس الأمر اتهاماً مجرداً:

- Jesus Is Lard: Smelly, Corrupt, and Bad For You
- Does God Get Diarrhea?: Flushing 4000 Years Of Lies, Myths, And Fairy Tales Down The Toilet
- God Hates you, Hate Him Back

أما شتائم أصحاب الحسابات والمعرفات المجهولة فشيء لا يوصف.

واسترسالاً مع مسألة السخرية والهزء بالأديان فهناك كوميديون ملاحدة يمارسون دوراً بشعاً في هذا المضمار؛ كـ(بل ماهر)[٢] صاحب البرنامج الشهير (ريل تايم وث بل ماهر)، والذي لا تخلوا كثير من حلقاته من طعن في الأديان وسخرية لاذعة منها، خصوصاً الإسلام، كما لا تخلوا حلقاته من استضافات متعددة لرموز الإلحاد الجديد. وقد قدم أيضاً فلماً وثائقياً ساخراً من التدين تحت عنوان «Religulous». ومن الكوميديين كذلك والذين يقومون

---

(١) (Why is everyone surprised that these debates all end the same way. Why, why would we expect something better from the religionists? I'm beginning to believe the best we can do is to just shout at them, "you're stupid, you're idiots, you're morons!!" It is probably as effective as using reason and logic. Reason and logic are anathema to these people. I'm going to yell at them).
http://old.richarddawkins.net/audio/1707-debate-between-richard-dawkins-and-john-lennox

(٢) Bill Maher.

بدعوة ساخرة للإلحاد الكوميدي الملحد (جورج كارلن)[1] والذي يقدم عروضاً متعددة تتضمن سخرية لاذعة من التدين. وهي ظاهرة حاضرة بشكل كبير في كثير من برامج الـ(ستاند أب كوميدي).

وهناك قدر من الجدل في الوسط الإلحادي عن المقاربة الأفضل لنشر الإلحاد هل يمر عبر الترفق والملاينة أم بالإهانة والاستفزاز، وقد ناقش هذه القضية ريتشارد دوكنز في محاضرة له بـ (تد)[2] بعنوان «ميليشيات الإلحاد»، فذكر أن لاسم الإلحاد حمولة سلبية تعرقل عملية قبول الملاحدة مجتمعياً، وأخذ يناقش بعض المصطلحات البديلة الممكنة كـ(الشكاك)[3]، (الإنساني)[4]، (طبيعي)[5]، (غير متدين)[6]. ثم عبر عن وجهة نظره بضرورة الاستمساك بمصطلح (الملحد) لذات السبب الذي يُراد لأجله التفتيش له عن بدائل، حيث أن الإلحاد يعد أحد (التابوهات) المجتمعية، ويخلق ذكره حالةً من الاستفزاز التي تساهم في لفت النظر للظاهرة، وإثارة الجدل حولها، والذي يسهم إيجاباً في انتشارها. كما تم مناقشة هذه المسألة في حوار جرى مع دوكنز ولورنس كراوس بخصوص فلمهم الأخير (غير المؤمنين).

ومن الواضح أن ثمة تيار متزايد في الدوائر الإلحادية بات يتبنى هذا الخط الاستفزازي، ويعول كثيراً على السخرية والاستهزاء كتقنية للدعوة إلى الإلحاد، وبعض من كان يبدي قدراً من الملاينة واللطف في خطابه الإلحادي كالمدون الملحد (همنت مهتا) صاحب كتاب «دليل البقاء للملاحدة الصغار» والذي سمى مدونته (بالملحد اللطيف) (Friendly Atheist) بات خطابه أكثر

---

(١) George Carlin.

(٢) TED سلسلة شهيرة جدّاً من المؤتمرات العالمية، شعارها (أفكار تستحق الانتشار) ترعاها مؤسسة (سابلنج الأمريكية).

(٣) Agnostic.

(٤) Humanist.

(٥) Naturalists.

(٦) Non Theist! ومن البدائل التي يستخدمها بعض الملاحدة (المتنورون) (Brights) (المتحررون فكرياً) (Free Thinkers) وغيرها.

حدةً، وعبر في مقطع مرئي له عن تفهمه لعدوانية الخطاب الإلحادي الجديد للتدين.

وحتى تتخيل حالة الانتقال إلى هذا (الإلحاد الوقح) خذ هذه اللقطة من الواقع:

في أحد الجامعات الأمريكية حين كان الطلاب النصارى يهدون غيرهم الكتاب المقدس كان الملاحدة يردون عليهم بإهدائهم كتاباً من كتب الرواية ذات الطابع الخيالي، في محاولة لتمرير رسالة مفادها أن كتابكم عبارة عن كتاب خيالات فقط. انتقل الحال بعد ذلك إلى أن صار الملاحدة يردون الهدية بإهداء بعض الأعمال الجنسية في إشارة إلى بعض القصص الجنسية الموجودة في الكتاب المقدس، والمقابلة بالمثل، ولا يخفى الفرق بين طبيعة الردين.

بطبيعة الحال فليست مثل هذه الممارسات العدوانية من قِبل الملاحدة الجدد محل قبول وموافقة عند جميع الملاحدة، إذ وجد من ينتقد هذه الممارسات، ويراها مفتقدة للموضوعية والمهنية، ومضرة بالخطاب الإلحادي ذاته، وهو ما اعترف بوجوده ريتشارد دوكنز نفسه حيث قال في كتابه وهم الإلٰه: (بغض النظر عن كراهتي لمنافسات المصارعة، ولكن يبدو أنني بطريقة ما كسبت سمعةً لمحبة المشاكسة والخصام اتجاه الدين. بعض زملائي ممن يوافقونني على أنه ليس ثمة إله، وأننا لسنا بحاجة للدين لنكون أخلاقيين، وأن باستطاعتنا تفسير جذور الدين والأخلاق بطريقة لا دينية، ومع ذلك يناقشونني بلطف مرتبك. لماذا أنت عدائي جداً؟ ما هو الخطأ في الدين حقيقةً؟ هل هو مصدر لهذا الحجم من الضرر والذي يوجب علينا أن نكون فاعلين في محاربته؟ لماذا لا تعيش وتجعل غيرك يعيش أيضاً، كما يفعل الواحد مع برج الثور أو العقرب، الطاقة البلورية أو خطوط لاي، أليس الجميع هراءً غير ضار)[1]،

---

(١) (Despite my dislike of gladiatorial contests, I seem somehow to have acquired a reputation for pugnacity towards religion.Colleagues who agree that there is no God, who agree that we do not need religion to be =

فملاحظة النمط العدائي للخطاب الإلحادي الجديد أمر يلحظه حتى بعض الملاحدة، بل ويقدمون نقداً قاسياً له.

فمن الملاحدة الذين انتقدوا هذه الحالة المفرطة في العدوانية من الدين والمتدينين البروفيسور في مجال الاتصالات (ماثيو نسبت ويس)[١] والذي يقول في مقالة له بعنوان «صورتين للإلحاد»[٢]: (لدى الملاحدة مشكلة كبيرة في صورتهم الذهنية مجتمعياً، ثمة سبب حين يسألني الناس عن معتقدي فأجيب مبتسماً: (أنا ملحد.. لكن ملحد لطيف). بالتأكيد ظل الملاحدة لوقت طويل عرضة لصور نمطية غير عادلة في الإعلام والثقافة الشعبية. لكن لدينا متحدثون شديدو السوء نصبوا أنفسهم يضرون بصورتنا العامة. وهم عادة يتصفون بالغضب وانعدام الكاريزما مع عاطفة جياشة للسخرية من المتدينين. وكل ملحد يختلف مع خطاباتهم الساخرة فإنه يتم تصنيفهم كمداهنين.. هؤلاء الملاحدة الجدد هم الظُلمة بالجزء السفلي للإلحاد، في كتبهم، ومدوناتهم، وتصريحاتهم يبيعوننا أيديولوجيا إباحية، والتشدق غير الناضج والذي يغذي الجوانب السلبية فينا، ويعزز من الصورة النمطية الظالمة في أنفسنا حول الآخرين كالمتدينين مثلاً)[٣].

ويقول (نعوم تشومسكي) أستاذ اللسانيات الشهير صراحةً واصفاً هيتشنز وهارس: (إنهم ببساطة متدينون متعصبون)[٤].

= moral, and agree that we can explain the roots of religion and of morality in non-religious terms, nevertheless come back at me in gentle puzzlement. Why are you so hostile? What is actually wrong with religion? Does it really do so much harm that we should actively fight against it? Why not live and let live, as one does with Taurus and Scorpio, crystal energy and ley lines? Isn't it all just harmless nonsense?) the God delusion 281.

(١) Matthew Nisbet Weighs.

(٢) Two Images of Atheism: Hate versus Community.

(٣) (Atheists have a major image problem. There's a reason that when people ask me what I believe I have to say with a smile: "I'm an atheist... but a friendly atheist." For sure, atheists for a long time have been unfairly stereotyped in the mainstream media and in popular culture. But we also have a lot of lousy self-proclaimed spokespeople who do damage to our public image. They're usually angry, grumpy, uncharismatic male loners with a passion for attacking and ridiculing religious believers. Any fellow atheist who disagrees with their Don Imus rhetoric, they label as appeasers... These "new atheists" are the dark under belly of atheism. In books, blogs, and public statements, they sell us ideological porn, sophomoric rants that feed our dark sides and reinforce our own unfair stereotypes about the "other," i.e. the religious).

(٤) جزء من إجابة على سؤال في محاضرة لتشومسكي موجودة على اليوتيوب.

وممن انتقد الملاحدة الجدد أيضاً الفيزيائي الملحد (بيتر هيجز) الحائز على جائزة نوبل ومكتشف جسيم (بوزون هيجز) والذي اشتهر باسم (جسيم الرب)[1] حيث قال واصفاً دوكنز: (دوكنز بطريقة ما يكاد يكون متطرفاً، ولكن من نوع مختلف). وعبر عن استيائه من موقف دوكنز من المتدينين، وصرح بأنه يوافق أولئك الذين يرون أن مقاربته للموضوع مخجلة[2].

وممن اشتهر بنقد هذه الحالة الإلحادية الوقحة (مايكل روس) الملحد الدارويني الشهير، صاحب الترجمة الشهيرة لتشارلز دارون، والذي كتب في رسالة لـ(دانييل دينيت): (أعتقد أنك وريتشارد دوكنز كارثة حقيقية في الحرب ضد فكرة التصميم الذكي، إننا نخسر المعركة، ليس فقط بسبب أن اثنين من قضاة المحكمة العليا سيصوتون يقيناً بإدخالها إلى الفصول الدراسية. الذي نحتاجه ليس إلى إلحاد يمثل ردة فعل غير محسوبة وإنما قدر من الجدية في التعاطي مع مختلف الموضوعات. وليس عندكما الإرادة لدراسة النصرانية دراسة جادة والدخول في نقاش جاد مع تلك الأفكار. وبشكل واضح فإنه من السخف بل ليس من الأخلاق ادعاء أن النصرانية تمثل قوة للشر كما يدعي ريتشارد. وأكثر من هذا إننا في معركة، وفي المعارك نحتاج لحلفاء وليس إبادة كل أصحاب النوايا الطيبة)[3].

ومما يؤكده مايكل روس أيضاً عدم جدية الملاحدة الجدد في تفهم الموقف الديني، والتعرف على حججه، والدخول في دائرة جدل حقيقي معه، يقول في عبارة لاذعة واصفاً سطحية كتاب «وهم الإلٰه» وحركة الإلحاد الجديد:

---

(١) وقد دعا هيغز لتجنب استعمال هذا الاسم مراعاة لمشاعر المتدينين وتجنباً لأي استفزاز.

(٢) (Fundamentalism is another problem. I mean, Dawkins in a way is almost a fundamentalist himself, of another kind). Peter Higgs criticises Richard Dawkins over anti-religious 'fundamentalism'.

(٣) (I think that you and Richard [Dawkins] are absolute disasters in the fight against intelligent design-we are losing this battle, not the least of which is the two new supreme court justices who are certainly going to vote to let it into classrooms-what we need is not knee-jerk atheism but serious grappling with the issues-neither of you are willing to study Christianity seriously and to engage with the ideas-it is just plain silly and grotesquely immoral to claim that Christianity is simply a force for evil, as Richard claims-more than this, we are in a fight, and we need to make allies in the fight, not simply alienate everyone of good will).

من رسالة منتشرة على شبكة الإنترنت، نشرها وليم دمسكي على مدونته الخاصة.

(بخلاف الملاحدة الجدد فإنني آخذ مسألة المعرفة بشكل جاد. لقد كتبت بأن كتاب «وهم الإلٰه» جعلني أشعر بالخجل من كوني ملحداً، وكنت أعني ذلك. محاولة فهم أن الله لا يحتاج إلى سبب مثلاً، كما يعتقده النصارى باعتقادهم أن وجود الله ضروري. ولقد بذلت جهداً كبيراً لمحاولة فهم ماذا يعني هذا الكلام. أما دوكنز وجماعته فهم جهلة في هذه المسائل بل ويزدرون من يحاول أن يفهمها دع عنك الإيمان بها. وهكذا فهم كطالب في سنته الجامعية الأولى يدور بفرح ويسأل بصوت عالٍ: «ما الذي تسبب في إيجاد الله» وكأنه اكتشف مسألة فلسفية خطيرة)[١]. وقد كرر مثل هذا الكلام في أحد حواراته المرئية[٢]، بل قال في أحد مقالاته: (لقد كتبت في مكان آخر أن (وهم الإلٰه) يجعلني أشعر بالخجل من كوني ملحداً. دعني أقولها مرة أخرى، ودعني أقول أنني أفخر أن أكون محل طعن الملاحدة الجدد. إنهم كارثة حقيقية وأريد أن أكون في الصف الأمامي لمن يقول هذا)[٣].

وممن انتقد هذه الحالة الإلحادية المتطرفة أيضاً الفيلسوف (باول كرتز) والذي لقب (بأبي العلمانية الإنسانية في أمريكا)، والذي يعتبره البعض أباً روحياً للملاحدة الجدد، يقول (باول كرتز): (الإلحاد الغاضب لا ينفع)[٤]، ومما قاله في مقالةٍ له بعنوان «غير المؤمن الحقيقي»[٥]: (الإلحاد المقاتل غالباً ما يكون مقطع الأوصال وضيق الأفق.. غير مهموم بالقيم الإنسانية والتي

---

(١) (Unlike the new atheists, I take scholarship seriously. I have written that The God Delusion made me ashamed to be an atheist and I meant it. Trying to understand how God could need no cause, Christians claim that God exists necessarily. I have taken the effort to try to understand what that means. Dawkins and company are ignorant of such claims and positively contemptuous of those who even try to understand them, let alone believe them. Thus, like a first-year undergraduate, he can happily go around asking loudly, "What caused God?" as though he had made some momentous philosophical discovery). Dawkins et al bring us into disrepute.

(٢) من لقاء لمايكل روس تجده على اليوتيوب.

(٣) (I have written elsewhere that The God Delusion makes me ashamed to be an atheist. Let me say that again. Let me say also that I am proud to be the focus of the invective of the new atheists. They are a bloody disaster and I want to be on the front line of those who say so). Why I Think the New Atheists are a Bloody Disaster.

(٤) http://www.nytimes.com/2010/10/02/us/02beliefs.html?_r=0

(٥) The true Unbeliever.

ينبغي أن تكون مصاحبة لرفض التدين. بحسب رؤيتي فإن الملاحدة الجدد قدموا إضافةً مهمةً للثقافة المعاصرة لأنهم عرضوا الدعاوى الدينية للفحص في المجال العام... اعتراضي على الملاحدة المقاتلين الذين يبدون ضيق عطن بالمتدينين، ويرفضون تماماً اللاأدريين، والشكاك، وأولئك اللامبالين بالدين، متهمين إياهم بالجبن)[١].

ويقول عالم الإنثربولوجيا (سكوت آترن): (أنا لا أنتقد سام هارس أو أولئك الذين يوافقونه في رغبتهم في تخليص العالم من المعتقدات الدوغمائية التافهة، والبربرية، والخاطئة، والتي عفا عليها الزمن. اعتراضي في طريقة مكافحتهم لمثل هذه المعتقدات، والتي غالباً ما تكون بلا قاعدة علمية، وعن جهل ذاتي، وسذاجة سياسية، وتأتي بنتائج عكسية للأهداف المشتركة التي نريد الوصول إليها)[٢].

ويكتب الصحفي (توم شيفرز) في جريدة «التلغراف البريطانية» مقالة بعنوان: «أرجوك يا ريتشارد دوكنز، التزم الصمت، إنني أتوسل إليك كمعجب»[٣]، يقول في أولها: (لا أرغب فعلاً بكتابة هذه القطعة، فقد كنت لوقت طويل أُجلّ ريتشارد دوكنز، وكنت أتمنى بطريقة ما لو أنني لم أبدأ بمتابعته على تويتر؛ لأن ذلك يفسد عليّ جميع الذكريات الجميلة لصانع الساعات الأعمى)[٤].

ويقول الفيلسوف الملحد (توماس نايجل): (أحد أهداف دوكنز هو إلغاء

---

(١) (Militant atheism is often truncated and narrow-minded... it is not concerned with the humanist values that ought to accompany the rejection of theism. The New Atheists, in my view, have made an important contribution to the contemporary cultural scene because they have opened religious claims to public examination...What I object to are the militant atheists who are narrow-minded about religious persons and will have nothing to do with agnostics, skeptics, or those who are indifferent to religion, dismissing them as cowardly).

(٢) (I do not criticize Sam Harris, or those he identifies with, for wanting to rid the world of dogmatically-held beliefs that are vapid, barbarous, anachronistic and wrong. I object to their manner of combating such beliefs, which is often scientifically baseless, psychologically uninformed, politically na]ve, and counterproductive for goals we share). http://www.edge.org/discourse/bb.html#atran2

(٣) Please be quiet, Richard Dawkins, I'm begging, as a fan.

(٤) (I really don't want to write this piece. I have long worshipped Richard Dawkins and sort of wish I'd never started following him on Twitter because it's ruining all my happy memories of The Blind Watchmaker).

هذا التقليد الذي يبدي احتراماً نحو الدين والذي هو من آداب الحضارة المعاصرة. يقوم بهذا من خلال الانتهاك المستمر لهذا العرف، وبأن يكون مُهيناً بالقدر الذي يستطيعه، وأن يشير بغضب وهو مبتهج إلى المعتقدات الدينية أو الممارسات التي تبدو سخيفة أو مدمرة)[١].

ويقول بروفسور البيولوجيا الملحد (أتش آلن أور): (على الرغم من إعجابي بكثير من أعمال دوكنز، لكني أخشى أنني من أولئك العلماء المضطرين لمفارقته هنا. بالتأكيد يبدو لي كتاب وهم الإلٰه معيباً بشدة. ومع أني وصفت دوكنز كملحد محترف، لكني مجبر بعد قراءة كتابه الجديد لاستنتاج أنه في الحقيقة مجرد هاو. لا أحاول أن أدعي معرفة ما إذا كان ثمة أكثر مما تلاقيه العين، فبحسب معرفتي أن النتيجة العامة لدوكنز صحيحة. لكن الكتاب أبعد ما يكون عن بناء قضية مقنعة لها. أكثر شيء مثير للإحباط في وهم الإلٰه هو فشل دوكنز في مناقشة الأفكار الدينية بطريقة جادة. وهذا بالتأكيد شيء غريب أن يقال عن كتاب مطول يبحث في موضوع الله)[٢].

ويقول أيضاً: (النتيجة أن وهم الإلٰه، كتاب لا يواجه خصومه بشكل مباشر. لن تجد فحصاً جاداً لمعتقدات اليهود أو النصارى في كتاب دوكنز)[٣].

وينقل ألستر مكقارث في كتابه «وهم دوكنز» عن أحد زملائه الأكاديميين

---

(١) (One of Dawkins's aims is to overturn the convention of respect toward religion that belongs to the etiquette of modern civilization. He does this by persistently violating the convention, and being as offensive as possible, and pointing with gleeful outrage at absurd or destructive religious beliefs and practices). The Fear of Religion.

(٢) (Despite my admiration for much of Dawkins's work, I'm afraid that I'm among those scientists who must part company with him here. Indeed, The God Delusion seems to me badly flawed. Though I once labeled Dawkins a professional atheist, I'm forced, after reading his new book, to conclude he's actually more an amateur. I don't pretend to know whether there's more to the world than meets the eye and, for all I know, Dawkins's general conclusion is right. But his book makes a far from convincing case.
(The most disappointing feature of The God Delusion is Dawkins's failure to engage religious thought in any serious way. This is, obviously, an odd thing to say about a book-length investigation into God). A Mission to Convert.

(٣) (The result is The God Delusion, a book that never squarely faces its opponents. You will find no serious examination of Christian or Jewish theology in Dawkins's book). A Mission to Convert.

الملاحدة من جامعة أكسفورد: (لا تحاكموا بقيتنا وفق هذا الزيف الفكري الصبياني)[1].

وفي أحد ندوات (RSA) والمعنونة بـ (After New Athiesm: Where now for the God Debate) قدم (روجر سكروتون)، و(جوناثان ري) رؤى نقدية متعددة للإلحاد الجديد.

بل يقول (جيري وولف) أول من سمى هذه الظاهرة بالإلحاد الجديد، والذي يعد نفسه (ملحداً لا أدرياً) في أول مقالته عن الإلحاد الجديد: (أصدقائي، يجب عليّ أن أسألكم سؤالاً مهماً اليوم، أين تقفون من موضوع وجود الله؟ إنه سؤال قد لا ترغبون في طرحه عليكم، لكن أخشى أنه ليس لدي خيار إلا أن أطرحه عليكم. لقد وجدنا أنفسنا في هذا الخريف بعد ثلاثة قرون ونصف من استشهاد جاليليو فكرياً في وسط صراع غاية في الأهمية، حيث يجب على كل واحد منا أن يقدم التزاماً، لقد حان الوقت للإعلان عن موقفنا.

هذا هو التحدي الذي يقدمه الملاحدة الجدد. لقد تم نداؤنا نحن اللاأدريين اللينين، وغير المؤمنين المراوغين، والربوبيين الغامضين، نحن الذين سنشعر بالخجل من الدفاع عن السخافات القديمة من جنس ولادة العذراء أو فكرة أن مريم صعدت إلى السماء دون أن تموت، أو أي خرافات سامجة. لقد تم نداؤنا نحن الجالسين على الحياد للمساعدة في التخلص من البلاء المضعف، بلاء الدين.

الملاحدة الجدد لن يخلوا سبيلنا ببساطة لمجرد أننا لسنا مؤمنين. إنهم لا يدينون الإيمان بالله فحسب، بل مجرد فكرة احترام هذا الإيمان. الدين ليس خطأ فقط إنه شر، وبما أن المعركة قد ابتدأت فلا مبرر مطلقاً للتهرب)[2].

---

(١) (As a senior atheist scientific colleague at Oxford said to me afterward, "Don't judge the rest of us by this pseudointellectual drivel"). the Dawkins Delusion 51.

(٢) (My Friends, I must ask you an important question today: Where do you stand on God? It's a question =

وقد كتب الفيلسوف الملحد (جوليان باجيني) مقالاً نشر في مجلة «Fri Tanke» تحت عنوان «حركة الإلحاد الجديد مدمرة»(١) انتقد فيه الظاهرة الإلحادية الجديدة بجملة من الأمور أهمها أن الملاحدة الجدد يُعرِّفون أنفسهم من خلال الهجوم على الدين بشكل يفوق كثيراً تعريف ذواتهم من خلال معتقداتهم الذاتية، وأنهم يؤكدون بتصرفاتهم هذه بأن الملاحدة من دون أُسقف كسمكة بلا ماء، وأنهم بحاجة إلى عدو للتعرف على هوياتهم الذاتية، كما انتقدهم في تخليق الانطباع بأن الحقيقة إقطاع محتكر للملاحدة وذلك بسبب وصف معتقدات الآخرين بأنها (أوهام) و(سحر) بل وإعطاء انطباع بأنه بسبب الغباء أو تجاهل المنطق تُعتقد مثل هذه الأوهام وأنه لولاهما لما كان للإنسان خيار إلا أن يكون ملحداً، عموماً كانت ردة فعل الملاحدة من مثل هذا النقد شديداً جداً، وقد ذكر طرفاً من هذا النقد في مدونته قائلاً: (لقد تم حرقي كمهرطق من خلال تعليقات الكثيرين على موقع richarddawkins.net، ووصفت بأوصاف مختلفة كبرغوث، وأحمق، وكيس هواء مغرور. وهذا من ١١ تعليق فقط من ٨٣ اطلعت عليها ساعة كتابتي لهذه السطور)(٢).

فإذا كان هذا طبيعة الخطاب الإلحادي لبعض زملائهم الملاحدة ممن لا يشاركونهم عصبيتهم المفرطة اتجاه الدين، وخطابهم العدائي، فكيف الظن بخطابهم للمتدينين؟!

= you may prefer not to be asked. But I'm afraid I have no choice. We find ourselves, this very autumn, three and a half centuries after the intellectual martyrdom of Galileo, caught up in a struggle of ultimate importance, when each one of us must make a commitment). It is time to declare our position.

This is the challenge posed by the New Atheists. We are called upon, we lax agnostics, we noncommittal nonbelievers, we vague deists who would be embarrassed to defend antique absurdities like the Virgin Birth or the notion that Mary rose into heaven without dying, or any other blatant myth; we are called out, we fence-sitters, and told to help exorcise this debilitating curse: the curse of faith.

(The New Atheists will not let us off the hook simply because we are not doctrinaire believers. They condemn not just belief in God but respect for belief in God. Religion is not only wrong; it's evil. Now that the battle has been joined, there's no excuse for shirking). The Church of the Non-Believers.

(١) The New Atheist Movement is destructive، وقد نبه في مدونته على أن وضع هذا العنوان اجتهاد من المجلة عند ترجمة المقال لا منه.

(٢) (I have been burned as a heretic by many of the commenters at richarddawkins.net, who call me variously a flea, a fool and a pompous air bag. And that's only reading down to comment 11 of 83 at the time of writing).

وما من شك أن الممارسة الطاغية لكثير من الملاحدة اليوم، والصوت العالي إنما هو لذلك النفس العدائي المستفز من الخطابات الإلحادية والذي يمثل السمة المركزية في الخطاب الإلحادي الجديد. باختصار الرسالة التي يريد الملاحدة الجدد تمريرها في المشهد هو (العلم الطبيعي مدهش، وهو جميل، أما الدين فهو ليس مدهشاً ولا جميلاً، بل هو معيق)[1] كما يقول دوكنز وبالتالي فمن الضروري التخلص منه.

(١) من فلم (غير المؤمنين) له وللورنس كراوس.

السمة الثالثة

استعمال أداة الإرهاب في حرب الأديان

من الأسئلة التقليدية التي يفضي بها الخطاب الديني اتجاه الملاحدة السؤال التالي: تخيلوا عالماً بلا دين؟ وبلا إيمان؟ كيف ستكون أحوال البشرية؟ وما الذي سيولد حالة الانضباط الأخلاقي عند الناس؟ تأتي هذه الأسئلة كمحاولة للتأكيد على أهمية البعد الديني في حياة الناس، وكارثية التفلت الأخلاقي الذي سيتولد نتيجة إلغائه وإعدامه من الوجود.

فيسعى الخطاب الإلحادي اليوم عبر إيراد ذات السؤال: تخيلوا عالماً بلا دين؟ إلى إثارة الشبهات حول الموقف الديني وقلب الطاولة عليه.



لن تكون هناك محاكم تفتيش، ولا حروب صليبية، ولا صراع عربي إسرائيلي، ولا صراعات يوغسلافية، ولا ١١ سبتمبر.. الخ هكذا يجيب الملاحدة الجدد، فينقلب الخطاب الديني ليكون في موقف الدفاع عن موقع الأديان في الحياة الإنسانية بدل أن يكون السؤال هجومياً محرجاً للخطاب الإلحادي.



ويمكن اعتبار هذه المسألة مسألة (الشرور التي مورست باسم الأديان) أحد أشهر المحركات والأدوات والسؤالات المستعملة في الخطاب الإلحادي الجديد، وهي تشكل الثيمة المركزية للكثير من كتاباته وأطروحاته،

والتي سبق استعراض بعضها، ويكفي في اختصار هذا الموقف العنوان الفرعي لكتاب هيتشنز «كيف يسمم الدين كل شيء».



ومن شعارات الملاحدة المعبرة عن خطورة الدين في مقابل تصورهم المادي للعلم وغيرها عبارات من جنس: (العلم يطير بك إلى القمر، والدين يطير بك في المباني)، (هنالك سبب منطقي وراء عدم قيادة الملاحدة للطائرات في المباني).

والملاحدة حين يتحدثون عن فكرة تسميم كل شيء فحديثهم بطبيعة الحال لا يقتصر فقط على مجال الحروب والقتل وإن كان هو الأصل، بل يمتد ليشمل جملةً واسعةً من الأنشطة البشرية، والمجالات المتنوعة. ويتسم في كثير من تجلياته بقدر من السطحية في المعالجة، والبغي في التوصيف، فسام هارس مثلاً في كتابه نهاية الإيمان يحدثنا عن دور الدين في تخليق مشكلة المخدرات في أمريكا[1]. ويتحدث هيتشنز عن ممانعة المتديين للتطعيم ضد الجدري مستحضراً ممانعة بعض المتديين فعلاً كالكاتب تيموثي دوايت المتوفى سنة ١٨١١م، والذي كان رئيساً لكلية ييل، والتي صارت جامعة بعد ذلك، والذي عارض فعلاً مسألة التطعيم[2]. متغافلاً عن النماذج التي لا تخدم قضيته. مثل جوناثان إدورد والذي كان رئيساً لجامعة برينستون ويعد أحد الشخصيات الدينية الشهيرة في التاريخ الأمريكي، والذي قام بالتطعيم كدعم لهذه القضية ولإقناع طلابه بأنها آمنة، فتوفي بعدها بأيام قلائل سنة ١٧٥٨م؛ أي: قبل معارضة تيموثي بزمن طويل. بل متغافلاً عن حالات الممانعة والموجودة عند بعض الملاحدة مثل الكاتب الملحد الشهير جورج برنارد شو في الثلاثينات الميلادية[3]. إضافةً إلى استعمال منطق التعميم هنا، ووضع الأديان جميعاً في سلة واحدة.

(١) نهاية الإيمان ص١٦٠.

(٢) God is not Great 47.

(٣) انظر كتاب (why God won't go away) 21.

وهكذا تتم عملية الانتقاء للحوادث التي تدعم وجهة النظر الإلحادية والتي تريد الربط بين الدين والشر، ويتم التغافل عن الحوادث التي لا تساعد على ذلك، بل تتم عملية تبييض الصفحة الإلحادية تماماً من كل الشرور في مقابل إلصاق النقائص بالدين.

وأبلغ من هذا وبسبب سيطرة الشعور بأن الدين شر كله، وأنه لا يمكن أن يصدر عنه إلا الشر، فإن الملحد إذ صدم بنموذج ديني وكان محلاً لإعجابه وتقديره فإنه يسعى إلى تبرئته من تهمة التدين، فمثلاً مارتن لوثر كنغ القس الشهير والناشط الحقوقي الأمريكي في مسألة السود، يقول فيه كريستوفر هيتشنز: (ومن ثمة فلم يكن في الحقيقة نصرانياً إلا في الإطار الشكلي)[١]. وكأنه يريد أن يقول لنا بأن الدين شر كله، ومارتن لوثر كنغ لم يكن شريراً، وبالتالي فلا يمكن أن يكون متديناً فعلاً! ومثله ريتشارد دوكنز وتصريحه بأنه واثق من أن باراك أوباما وجون كندي ملاحدة[٢]، أو قوله: (ليس ثمة عضو واحد من الكونجرس مستعد للاعتراف بأنه ملحد. إن هذا لا يبدو منطقياً إطلاقاً. إما أنهم أغبياء أو يكذبون، ولديهم دافع للكذب طبعاً، الجميع يعلم بأنه لا يمكن أن يُنتخب ملحد)[٣]. وكأنه هو الآخر ينطلق من فرضية تقول إنهم من الذكاء بحيث لا يمكن أن يكونوا متدينين فعلاً! وبالتالي فلا بد أن يكونوا ملاحدة! إذ (الناس مرتفعي الذكاء في الغالب ملاحدة)! كما قال في مقام آخر.

والعكس بالعكس فهيتشنز عندما تحدث عن نموذج الدولة الملحدة (الاتحاد السوفيتي) حاول أن يقول بأنها في الحقيقة كانت دولةً دينية، وأن الاشتراكية تحولت إلى دين، وهنا بدأت المشاكل الحقيقية[٤]. والسبب

---

(١) (In no real as opposed to nominal sense, then, was he a Christian). God is not great 176.

(٢) من لقاء له مع (بل ماهر) في برنامجه الشهير.

(٣) (Not a single member of either house of Congress admits to being an atheist. It just doesn't add up. Either they're stupid, or they're lying. And have they got a motive for lying? Of course they've got a motive! Everybody knows that an atheist can't get elected). The Church of the Non-Believers.

(٤) God is not great 243.

واضح، فالدين منبع الشرور، والاتحاد السوفيتي كانت كذلك، فلا بد أن تكون إذاً دولةً دينية! وهكذا ينتقل من تأصيل فكرة (الدين شر) إلى فكرةٍ أخرى أشد تطرفاً (كل الشرور دينية)![1].

وفي مقابل سعي الملاحدة المستمر إلى التأكيد على أن الدين منبع للشرور، فإنهم يسعون إلى تبرئة الإلحاد من جميع صور الشرور، فلا قتل ولا مجازر ولا عنف ناتج عنه. ويصرح دوكنز بأنه لا يوجد دليل مطلقاً على أن الإلحاد يقوم بدور فعلي في تحريك الناس نحو الأفعال المشينة[2]. بل يقول: (لا أعتقد أن هناك ملحد في العالم من شأنه أن يدمر مكة، أو كنيسة شارتر، أو يورك، أو نرت ديم، أو شويداغن، أو معابد كيوتو، وطبعاً أصنام بوذا باميان)[3]. وبالتالي فهو يصرح في مناسبات متعددة جداً أن العالم سيكون في عافيةٍ لو تم التخلص من الدين جملةً وتفصيلاً.

وأترك لأحد الملاحدة المتحمسين لإلحادهم الرد على هذا التصور السطحي الساذج لطبيعة الناس ولطبيعة الحياة، جاء هذا الكلام في مناظرة مهمة عُقدت في جامعة كامبرج تحت عنوان «لا مكان للدين في القرن الواحد والعشرين»[4]، وكان من ضمن المتناظرين ريتشارد دوكنز، وطارق رمضان، ووليم رولان، وغيرهم. يقول (دوغلاس ميري): (لقد بَشَّرنا الطرف المقابل بأننا لو تخلصنا من الدين فسنجري باتجاه المرتفعات تحت ضوء الشمس[5]، حيث كل شيء سيكون رائعاً، حيث سنكون كائنات عقلانية، ذات رغبات معقولة، في كون معقول. هل أنت متأكد فعلاً من هذا؟! هل أنت متأكد تماماً أنك إن أخبرت جيلاً أو جيلين أو ثلاثة بأن الدين لا مكان له مطلقاً في القرن

---

(١) why God won't go away 52.

(٢) وهم الإله ص٢٧٣.

(٣) (I do not believe there is an atheist in the world who would bulldoze Mecca-or Chartres, York Minster or Notre Dame, the ShweDagon, the temples of Kyoto or, of course, the Buddhas of Bamiyan). The God Delusion 249.

(٤) وهي موجودة على اليوتيوب، تحت عنوان (this house believes religion has no place in the 21st century).

(٥) وهو تعبير يدل على التحرر والتقدم والنهضة والخروج من الظلمات (sunlit upland).

الواحد والعشرين أننا سنصل إلى تلك المرتفعات المضاءة بنور الشمس، أم أنه من الممكن أنك إن أخبرت الناس بشكل كافٍ بأنهم يعيشون حياة لا معنى لها، في كون لا معنى له، ووجود لا معنى له، بأنك قد تنال شيئاً شبيهاً بالمسلسل الفارغ «الطريق الوحيد إلى إسكس»[(١)]، وواضح من التمثيل الذي اختاره هنا الإشارة إلى كارثية هذا الخيار ولكن بأسلوب ساخر.

وقراءة عجلى للتاريخ القريب تكشف أن أكبر الحروب والتي ذهب ضحيتها ملايين البشر لم تكن حروباً دينية، بل حروباً علمانية، وأن عدداً من الملاحدة الكبار كلينين وإستالين وموسوليني وماو وغيرهم كانوا هم ممن يقف خلفها وتسببوا في قتل ملايين البشر. ولئن حاول الملاحدة أن يدافعوا عن الإلحاد بقولهم بأن أولئك لم يمارسوا قتلهم باسم الإلحاد، فالواقع يشهد بأنهم مارسوا حرباً حقيقيةً ضد الدين، بهدم دور العبادة، وملاحقة المتدينين، ومصادرة الكتب الدينية، ومنع الحريات المتعلقة بالدين وممارسته.

بل يمكن رصد حوادث فردية تدل على مشكلة التعصب للإلحاد، وما يمكن أن يفعل باسمه من الجرائم. في سنة ٢٠٠٦م قام مسلح بإطلاق النار على طالبات بأحد المدارس الخاصة (بالآمش)[(٢)] في قرية (نِكلماينز) في ولاية بنسلفينيا بأمريكا. وقد قُتل خمس طالبات في الحادثة، وقام المجرم بالانتحار في موقع الحادثة مباشرة، ووجد معه رسالة مكتوب فيها بأنه مملوء بالكراهية اتجاه الله[(٣)].

ولست هنا بصدد مناقشة قضية العنف والإرهاب اللاديني تفصيلاً بطبيعة الحال، وإنما المقصود الإشارة فقط إلى أحد الأدوات شديدة الحضور في

---

(١) وله مقال في مجلة (سبكتيتر) تكلم فيها على المناظرة، وتضمن تعليقاً مقارباً لهذا التعليق، بعنوان (Atheists vs Dawkins).

(٢) وهي طائفة دينية نصرانية شديدة المحافظة، ومسالمة جداً، ومباعدة للتقنية والحياة المادية المدنية المعاصرة.

(٣) Why God won't go away 49.

الخطابات الدعوية الإلحادية الجديدة، وهي التسلط على الظاهرة الدينية عبر الممارسات السيئة التي مورست باسم الدين، أو ما يعتقد الملاحدة أنها ممارسات سيئة من الممارسات الدينية.

السمة الرابعة
الهجوم اللاذع على دين الإسلام

من الأسئلة الكبيرة التي ينبغي أن نكون واعين بها فيما يتعلق بالظاهرة الإلحادية الجديدة، ما هو موقع الإسلام من خارطة هذه الظاهرة؟ فمن يدرس ظاهرة الإلحاد في السياق الغربي، فسيجد إجمالاً أن حالة السجال كانت في أكثر تجلياتها بين الإلحاد والنصرانية، وذلك بحكم الحاضنة المجتمعية الغربية، ولكن بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر، وربط الحدث بالإرهاب، والإرهاب بالإسلام، انتقل الإسلام من كونه قضية على هامش اهتمام الملاحدة الغربيين، ليكون في فوهة مدفع الإلحاد الجديد، وليحظى بموقع شديد التقدم في حرب الملاحدة الجدد على الأديان.

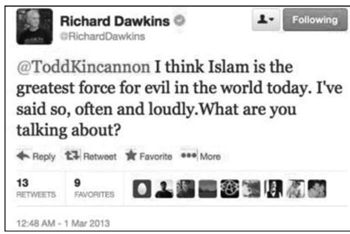
لقد بات الإسلام وتمثلاته في الواقع هاجساً حقيقياً شديد الحضور في الذهنية الإلحادية الجديدة، وباتت المصطلحات العربية من جنس (الله، محمد، الشريعة، القرآن، الحديث، الأئمة، الملالي، العلماء، المدارس، الفتوى، الجهاد) وغيرها ذات حضور حقيقي في الكتابة الإلحادية. ويكفي أن تعلم أن أحد أهم أدبيات الإلحاد الجديد (الله ليس عظيماً) لكريستوفر هيتشنز إنما اختير عنوانه هذا مناكفة لشعار المسلمين (الله أكبر)[1].

بل كتاب «نهاية الإيمان» لسام هارس وهو أول الكتب المشكلة لظاهرة

---

(١) وانظر ص٢٥ من كتابه حيث ذكر ترجم الله أكبر بـ (God is Great).

الإلحاد الجديد يمثل فيه الإسلام المحور الأساس الذي يدور عليه الكتاب، وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة بقراءة الكتاب، بل من قراءة أول صفحةٍ فيه، وقد سجل هذه الملاحظة بيتر سنغر في تزكيته للكتاب بشكل غير مباشر إذ قال: (نهاية الإيمان ليس تحدياً للمسلمين فحسب لكنه تحد كذلك للهندوس واليهود والنصارى كذلك)[١]، فالكتاب نقد للإسلام بالأصالة ولغيره تبعاً. وهاجس الإسلام حاضر جداً عند سام هارس حيث خصص في مدونته قسماً خاصاً بالإسلام.



لقد كشف ريتشارد دوكنز عن موقف الإلحاد الجديد من الإسلام بغاية الوضوح والصراحة قائلاً في تغريدة له: (أعتقد أن الإسلام هو أعظم قوة للشر في عالم اليوم، قلت ذلك مراراً وبصوت عالٍ، فعن ماذا تتحدث)[٢].

ويقول أيضاً مخاطباً مخرج فلم (فتنة) وهو واحد من الأفلام المسيئة للإسلام: (بخصوص قوة فلم (فتنة) فإنني أحييك كرجل شجاع، والذي كانت لديه الشجاعة للوقوف في وجه هذا العدو المتوحش)[٣].

أما سام هارس فهو يقول بغاية الوضوح: (بأن فكرة الحرب على الإرهاب لا معنى لها). (وأنه حان الوقت للاعترف بأننا لسنا في حرب مع الإرهاب وإنما في حرب مع الإسلام)[٤]. بل يقول: (إننا في حرب تحديداً مع الرؤية للحياة التي يحددها القرآن لكل المسلمين. لسنا نقول بأننا في حرب مع جميع المسلمين لكننا قطعاً في حرب مع ملايين ليس لهم صلات

---

(١) العبارة موضوعة في أول الكتاب.

(٢) ويمكن مشاهدته وهو يقولها شفهياً في مقطع مرئي على اليوتيوب.

(٣) (On the strength of Fitna alone I salute you as a man of courage, who has the balls to stand up to a monstrous enemy).

(٤) (It is time we admitted that we are not at war with "terrorism." We are at war with Islam). Mired in a religious war.

مباشرة بالقاعدة)[١]. ويقول: (ما لم يدرك الليبراليون أن هناك عشرات الملايين من البشر في العالم الإسلامي والذي هم أشد ترويعاً بكثير من ديك تشيني، فلن يتمكنوا من حماية الحضارة الإنسانية من أعدائها الحقيقيين)[٢]. ويقول في كتابه «رسالة إلى أمة نصرانية»: (فكرة أن الإسلام دين سلام لكن تم اختطافه من قبل المتطرفين مجرد خيال)[٣]. ويقول: (الإسلام وبشكل أكبر من أي دين ابتدعه الناس، فيه كل مكونات صناعة طائفة مغالية في القتل)[٤].

وقد تجلت هذه الحالة العدائية عنده بشكل سافر في عدد من مقالاته فهو يدعو صراحةً قي مقالة له بالقيام بالتعامل مع المسلمين تعاملاً خاصاً في عمليات التفتيش في المطارات وغيرها وأنه يتوجب فرزهم عن غيرهم في ذلك، يقول: (يجب علينا أن نمارس تشخيصاً وفرزاً للمسلمين عن غيرهم، وكذلك كل من يبدو أنه أو أنها يمكن أن يكون مسلماً، ويجب أن نكون صادقين بهذا الخصوص)[٥]. وقد ولدت هذه المقالة بطبيعة الحال ردود أفعال كثيرة، ما بين تأييد كثير من الأتباع ومعارضة من غيرهم.

فإذا اقتربنا من الظاهرة الإلحادية أكثر لمحاولة التعرف على موقفها من الإسلام بشيء من التفصيل، وما الذي يمثله القرآن مثلاً بالنسبة إليها، فإن سام هارس يصرح بأنه يتضمن جبالاً من الوصايا التي لا معنى لها والمدمرة للحياة[٦]. بل يقول في مقالة له بعنوان «قصف أوهامنا»: (إننا الآن في القرن الواحد والعشرين، جميع الكتب بما فيها القرآن ينبغي أن تكون مباحة لنا

---

(١) (It is time we admitted that we are not at war with "terrorism"; we are at war with precisely the vision of life that is prescribed to all Muslims in the Koran. This is not to say that we are at war with all Muslims, but we are absolutely at war with millions more than have any direct affiliation with Al Qaeda). Bombing Our Illusions.

(٢) (Unless liberals realize that there are tens of millions of people in the Muslim world who are far scarier than Dick Cheney, they will be unable to protect civilization from its genuine enemies). The End of Liberalism?

(٣) رسالة إلى أمة نصرانية ص٨٥.

(٤) (Islam, more than any other religion human beings have devised, has all the makings of a thoroughgoing cult of death). End of faith 123.

(٥) (We should profile Muslims, or anyone who looks like he or she could conceivably be Muslim, and we should be honest about it). In Defense of Profiling.

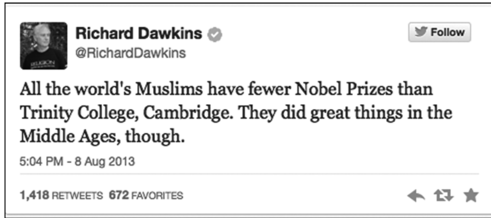
(٦) نهاية الإيمان ص٢٢.

بحيث يمكننا أن نلقيها في المرحاض دون خوف من ردود الفعل العنيفة)[١].

وحتى يتضح عمق مشكلتهم مع المسلمين فإن كريستفر هيتشنز وفي أكثر من مناسبةٍ يقوم بسؤال المناظر النصراني أو اليهودي أيهما تفضل: أن أكون مسلماً أو ملحداً؟ أو يسأل: أيهما تفضل أن تحكم أوروبا بالشريعة أم بالعلمانية الملحدة؟ أو يقول: في أي دولةٍ إسلامية اليوم تود أن تعيش؟ وهي أسئلة تنم عن حالة الاحتقار الشديد للإسلام والمسلمين. الطريف أنه وفي أحد المناظرات التي عقدها مع أحد اليهود طرح عليه هذا السؤال فكان جواب اليهودي: أفضل أن تكون مسلماً معتدلاً.

ويقول سام هارس: (في هذه اللحظة من تاريخهم، أعط غالب المسلمين حقهم في التصويت، وسيقومون بكامل حريتهم بالتصويت لاقتلاع حرياتهم السياسية من الجذور)[٢].

ويقول دوكنز كاشفاً عن بغض حقيقي لمظاهر الإسلام: (أحد المناظر الأكثر تعاسة مما يمكن أن يرى في شوارعنا اليوم صورة امرأة ملفوفة في سواد عديم الشكل من رأسها لقدميها، تنظر للعالم من خلال شق ضئيل)[٣]. ويقول في احتقار شديد للمسلمين، تنم عن سطحية شديدة في معرفة الأسباب الفعلية الحقيقية التي تقف خلف تخلف المسلمين العلمي في عالم اليوم: (جميع المسلمين اليوم لديهم عدد أقل من جوائز نوبل بالمقارنة بكلية ترنتي بكامبرج. لكنهم فعلوا أموراً عظيمة في القرون الوسطى). هذه التغريدة كتبها في عيد الفطر المبارك، والذي يزيد الأمر وقاحةً وإساءة.



---

(١) (We are now in the 21st century: all books, including the Koran, should be fair game for flushing down the toilet without fear of violent reprisal).
Bombing Our Illusions.

(٢) (At this point in their history, give most Muslims the freedom to vote, and they will freely vote to tear out their political freedoms by the root). The end of faith 132.

(٣) (One of the unhappiest spectacles to be seen on our streets today is the image of a woman swathed in shapeless black from head to toe, peering out at the world through a tiny slit). the God delusion 362.

وقد صرح في أحد حوارته بأنه نادم على المقارنة بين الإسلام وإحدى الجامعات لأنها أوهمت بعداً عنصرياً في النقد، وتمنى لو كانت المقارنة بين الإسلام واليهودية، فهو أكثر تعبيراً عن فكرته المهينة، وأكد أن في التراث اليهودي تشجيعاً على الإقبال على العلم والمعرفة، بخلاف الإسلام والنتيجة ما نراه في عالم اليوم[1]، وهو ما يكشف عن سطحية شديدة في تحليل ظروف وملابسات وأسباب ما يعانيه المسلمون اليوم من تخلف حضاري. العجيب أن أحد الملاحدة ممن تكلم عن هذه التغريدة في مناظرة له مع أحد المسلمين صرح بأن مشكلة المسلمين والتي أفرزت هذا الواقع اعتقادهم بأن العلم حرام في الإسلام! الطريف أنه حين قالها ضجت القاعة بالضحك بصوت مرتفع. وقد أحسن المناظر المسلم حين كشف عن هذا الكذب الصريح، الذي لم يكن آخر الكذبات بل أطلقت كذبات متعددة في ذات المناظرة[2]، بل يمكن القول إجمالاً أن الكذب على الإسلام عمداً أو جهلاً سمة أصيلة في عامة المحاضرات والمناظرات والتي يقدمها الملاحدة الجدد. وهي تكشف أن هذا العداء الشديد للإسلام ناشئ في غالب أحواله عن جهل عميق بطبيعة الإسلام وتشريعاته، ومحاكمته لمزاج الرجل الغربي بخلفياته الثقافية والقيمية، واتكاء على الإشاعات والأكاذيب الملصقة بالإسلام في الواقع. والواقع أننا أمام رؤيتين كونيتين شديدتي التباين فمن الطبيعي تماماً ومن المتفهم أن نرى حالة الاحتقان والاختلاف على هذا المستوى شديد التقدم، لكن المشكلة أن الاختلاف ممزوج بالكذب والبهت والجهل الشديد، وهو ما يزيد الأمر تأزماً وتعقيداً. وإليك بعض الأمثلة المنوعة من هذا.

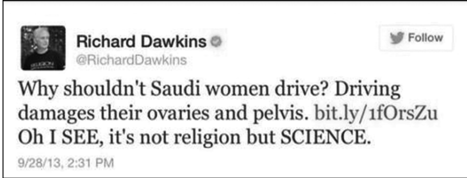
في لقاء جمع ريتشادر دوكنز، ودانيل دينيت، وسام هارس، وآيان هرسي، باسم (the Fourhoursemen part 2) والذي تم عقده في أستراليا،

---

(١) Interview: Richard Dawkins Keeps Making New Enemies.

(٢) مناظرة (الإسلام أو الإلحاد أيهما أكثر منطقية) والتي جمعت حمزة تزورتزس وفراز نعماني، وجون بركنز وإيان روبندون.
(Islam or Atheism which makes more sense).

شكل الحديث عن الإسلام السمة الأبرز لذلك اللقاء، وتم فيه طرح رؤى وأفكار تنم عن مشكلة حقيقية في فهم الإسلام وأحوال المسلمين، بل تمثل حالةً متطرفةً من البغض والكراهية لهذا الدين. اللافت للنظر هو حجم المتابعة للوضع المحلي السعودي، فقد جاء في ذلك اللقاء ذكر تغريدات (حمزة كشغري) وتداعياتها المحلية. وفي كتاب سام هارس (نهاية الإيمان) أورد كمثال على خطر الظاهرة الدينية على البشرية القصة المكذوبة عن منع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لرجال الإطفاء من إنقاذ الطالبات اللاتي حُبسن في مدرسة بمكة شب فيها حريق تحت ذريعة أن الطالبات لم يكن محجبات، الحادثة الشهيرة المكذوبة والتي دُمجت الرئاسة العامة لتعليم البنات بوزارة التربية والتعليم على إثرها[١].



بل إن لدوكنز تغريدة يتحدث عن موضوع منع قيادة المرأة للسيارة في السعودية ليس هذا فحسب بل مشيراً إلى من أقحم بجهل موضوع تأثير القيادة على مبايض المرأة، ومثله تغريدة لسام هارس، وشواهد متابعة الملاحدة الجدد للوضع المحلي السعودي كثيرة، بل إن دوكنز في أحد حواراته صرح بأنه (يتمنى أن يجد طريقة ليتعلم السعوديون أن بإمكانهم أن لا يكونوا مسلمين)[٢]. وعوداً إلى بعض ما جاء في لقاء (the Fourhoursemen) مما يتعلق بالإسلام يقول ريتشارد دوكنز في معرض الحديث عن حالة التخوف التي تنتاب الكثيرين من ممارسة السخرية بدين الإسلام وتمنع مثلاً من نشر صور كرتونية للنبي ﷺ: (من الممكن أن أستسلم لإرادتك بمنع نشر هذه الصور لأني أخاف من بربريتك! لكن لا تعتقد للحظة واحدة أن هذا ناتج من الاحترام أنا لا أحترمك أنا أحتقرك!). وجاء في ذات اللقاء حديث سطحي ساذج عن دوافع بعض المسلمين للقيام

---

(١) نهاية الإيمان ص٤٦.

(٢) (I would like to find a way in which people in Saudi Arabia could learn that they can be something other than a Muslim). INTERVIEW: RICHARD DAWKINS KEEPS MAKING NEW ENEMIES.

بالعمليات الاستشهادية، فكان مما قاله دانيل دينيت في هذا معبراً عن وجهة نظره بأنه من المحتمل أننا وبسبب ضخ أفلام الأكشن ولدنا حالةً من تطلب المغامرة، وبالتالي صار من السهل التغرير بأمثال أولئك الاستشهاديين عن طريق دعوتهم لحياة مليئة بالمعنى والمغامرة والأخطار، وترك تلك الحياة الرتيبة المملة التي يعيشونها، وأن هذا ما يشكل دافعاً لهم لطلب الشهادة، يعلق سام هارس وليعيشوا حياةً كحياة جيمس بوند قبل أن يستشهدوا!

أما الجهل بتفاصيل التشريعات الإسلامية فشيء عجيب فعلاً، فهذا دوكنز في آخر اللقاء يعبر عن استغرابه الشديد من بواعث التدين بدين الإسلام والذي يحرم الإنسان من متع الحياة وبهجتها، ويمثل بتحريم الإسلام للموسيقى والرقص (واللعب بالطائرة الورقية)! ومثل هذا الحديث يدل على أن حالة العداء الشديد التي يبديها الخطاب الإلحادي ناتج في أجزاء كبيرة منه جهل شديد بدين الإسلام، وواقع المسلمين، وأن ثمة إرادة حقيقية للتشويه دون أداء أدنى واجبات البحث والدراسة، والصدور عن تصور سليم للمشكلة.

ليس هذا اللقاء لوحده بطبيعة الحال هو شاهد العداء والجهل بالإسلام عندهم، بل الأمثلة والشواهد كثيرة جداً، ففي أحد لقاءات ريتشارد دوكنز تحدث عن تجربته مع بعض الطالبات في إحدى المدارس الإسلامية في بريطانيا، وكيف أنه سألهم عن مدى تصديقهم لما تضمنه القرآن من حقائق علمية، وكيف أنه تفاجأ من اعتقاد المسملين بأن الماء الحلو والمالح لا يمتزجان، وكيف أنه تمنى لو أن المدرسة قامت أمام الطالبات بتجربة هذا الأمر وإثبات أنهما يمتزجان في جهل كبير أو تجاهل لما تتحدث عن الآيات القرآنية في هذا الشأن[١].

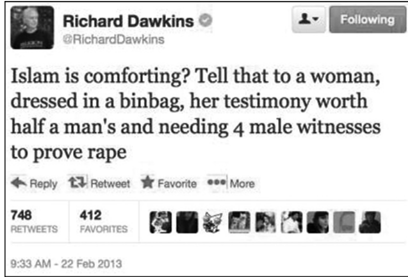
ويقول أيضاً: (السعودية تحت حكم الأمراء السعوديين، حيث المرأة لا تستطيع أن تقود السيارة، وتحصل لها المشكلات لو خرجت من المنزل من

(١) ومقطع زيارته للمدرسة موثق في أحد أفلامه الوثائقية، وتعليقه على تلك الزيارة موجود في أحد حواراته المرئية والموجدة على اليوتيوب.

غير قريب ذكر، والذي يمكن أن يكون وكتنازل سخي طفلاً صغيراً)[١].

وفي كتاب (God is not Great) لهيتشنز عقد فصلاً مخصصاً للإسلام عنون له بـ «القرآن مستعار من خرافات اليهودية والنصرانية»[٢]، أبان فيه فعلاً عن جهالات غريبة بدين الإسلام وتشريعاته وتاريخه، فمثلاً يتحدث أن أول من اهتم بهذا الدين الجديد المشركون بمكة، واليهود بيثرب، وفي الوقت الذي ازدادت فيه تهديدات الطائفة الأولى فإن الطائفة الثانية ازدادت وداً، الأمر الذي حمل النبي ﷺ على الهجرة ليثرب! أما حديثه عن كتابة القرآن وتاريخ جمعه وكذا السُّنَّة وسيرة النبي ﷺ فجهالات كبيرة، تكشف عن عجز حقيقي عن استيعاب مثل هذه القضايا والمسائل.

ويقول هارس مثلاً كاشفاً عن جهل كبير بتشريعات الإسلام وإرادة حقيقية لممارسة التشويه بالأكاذيب المحضة: (ضحايا الاغتصاب والذين يتم ضربهن، وسجنهن، وربما قتلهن كعاهرات في طول العالم الإسلامي)[٣]. ومثل هذا التصور شديد التشوه حيال موضوع الاغتصاب والزنا والخلط بينهما حاضر في الخطاب الإلحادي الجديد بشكل غريب، فهذا ريتشارد دوكنز يقول في تغريدة له:



(الإسلام يبعث على الراحة والطمأنينة؟ أخبر هذا لامرأة، يتم إلباسها كيس قمامة، وشهادتها على نصف شهادة الرجل، وتحتاج إلى شهادة أربع ذكور لإثبات اغتصابها).

ويقول هتشنز متحدثاً عن باكستان: (هنا مجتمع لا يعتبر الاغتصاب

---

(١) (Saudi Arabia under the Saudi princes, where women cannot drive, and are in trouble if they even leave their homes without a male relative (who may, as a generous concession, be a small male child)). the God delusion 302.

(٢) God is not Great 123.

(٣) (victims of rape who are beaten, imprisoned, or even killed as "adulteresses" throughout the Muslim world) RESPONSE TO CONTROVERSY.

وانظر أيضاً كتابه «رسالة إلى أمة نصرانية» ص٨٤.

جريمة، إنها عقوبة. ويمكن أن يتم معاقبة المرأة بها من خلال محاكم قبلية أو دينية شعبية)[١].

وما دام الحديث عن موضوع الاغتصاب ومشكلة الملاحدة في تحرير موقف الإسلام منه، فهذا سام هارس يُعلق على الإجرام الذي مارسه الصرب ضد البوسنيات، وأن السبب الباعث على اغتصابهن هو اعتبار المجتمع المسلم له وصمة عار وهو ما حفز الصرب على ممارسته فيقول: (السبب من وراء اغتصاب كل أولئك النساء في صراعات البوسنة هو اعتبار المجتمع المسلم له وصمة عار، وأنك تقوم من خلاله بتدمير المجتمع في عمقه باللجوء إلى محرماته الخاصة)[٢].

واستمراراً في ملف نشر الشائعات عن الإسلام يتحدث سام هارس عن أن تعلم القراءة يعرض المرأة الأفغانية فترة حكم طالبان للقتل[٣]، وأنهم كانوا يمارسون تجهيلاً منظماً لهن إلى درجة أنهم سكبوا الأسيد على وجه من تريد تعلم القراءة[٤].

هذه بعض الشواهد فقط، والشواهد أكثر من أن تحصى للتدليل على موقف العداء الشديد للملاحدة الجدد من الإسلام، وأنهم يمارسون دوراً تشويهياً قبيحاً، وأدنى متابعة للظاهرة الإلحادية تكشف هذه الإشكالية العميقة بشكل شديد الوضوح، يغني عن تتبع تفاصيل المشهد.

أختم هذه الفقرة بقضية تتعلق بمسألة العداء الشديد للإسلام، وتكشف عن أحد أبعاده، وهو أن كثيراً من المؤسسات الراعية للمرتدين عن الإسلام هي مؤسسات إلحادية، ومدعومة من قبل كثير من الملاحدة الجدد، ومن

---

(١) (Here is a society where rape is not a crime. It is a punishment. Women can be sentenced to be raped, by tribal and religious kangaroo courts). From Abbottabad to Worse

(٢) (The reason why all those women were raped in the Bosnian conflict was that it was so stigmatising in the Muslim community to be raped, that you were essentially ruining the community from within by recourse to its own taboos). Science Fatwah? Part 2: Sam Harris, an interview by Stephen Crittenden.

(٣) RESPONSE TO CONTROVERSY.

(٤) من أحد مناظرات سام هارس.

الأمثلة الواضحة الدعم المادي والمعنوي الشديد الذي تحظى به آيان هرسي من قبل جمعيات ومؤسسات إلحادية متعددة بشكل عام، والدعم الكبير الذي تتلقاه من سام هارس على وجه الخصوص.

السمة الخامسة
جاذبية الإلحاد الجديد

أحد الجوانب اللافتة للنظر في الظاهرة الإلحادية الجديدة، أنها أضحت ظاهرة لها جاذبيتها الخاصة وذلك من خلال رموزها والذين يتمتعون بكاريزما خاصة، وأسلوب لافت، وطريقة في الحديث مؤثرة، والذي كان له تأثير واضح في كثير من الأتباع فتحول الإلحاد من كونه حالةً فلسفيةً مقترنة بمشهد أكاديمي ممل ليصبح نمطاً له جاذبيته الخاصة (cool) وذلك في دوائر شعبية واسعة.

لقد أضحى رموز الإلحاد الجديد أيقونات تحظى بالمعجبين والمعجبات، خصوصاً مشاهيره الأربعة (ريتشارد دوكنز، وسام هارس، وكريستوفر هيتشنز، ودانيل دينيت) والذين باتوا يعرفون في كثير من الدوائر الغربية بالفرسان الأربعة (the Four horsemen) وهو مصطلح توراتي يشير إلى ظهور فرسان أربعة كعلامة لنهاية العالم، وقد انتشر هذا اللقب عقب اجتماع انعقد سنة ٢٠٠٧م في شقة كريستوفر هيتشنز بواشنطن في يوم الكريسمس للتباحث حول ملفات متنوعة حول الإلحاد. وبعد وفاة هيتشنز أقيم لقاء ثانٍ وسط جمهور حافل في أستراليا، وحلت آيان هرسي كبديل عن هيتشنز ولقبت بالفارسة الرابعة (the fourth horsewomen).





المقصود أنه قد أضحى لهذه الشخصيات حضور لافت للنظر فعلاً في الفضاء الإعلامي الغربي على كافة مستوياته، وأصبح التعاطي معهم لا كمفكرين فقط أو علماء أو مثقفين وإنما كنجوم، وأيقونات إعلامية تحظى بأعداد غفيرة جداً من المعجبين.

ويمكن أن تلحظ حالة الإعجاب هذه من خلال حديث كثير من الأتباع عنهم، واحتفائهم الشديد بهم، وردة الفعل العنيفة تجاه حالات النقد الموجهة إليهم. وقد سبق ذكر بعضها، وأضيف هنا أن جريدة (الإندبندنت) البريطانية والتي يمكن أن تعد من المجلات شديدة الدعم للعلمانية، وضعت دوكنز في ضمن قائمة الشخصيات الأكثر إعجاباً بنفسها في بريطانيا[١]، فكان رد أحد المدونين: (ريتشادر دوكنز ليس معجباً بنفسه ولو بقدر بسيط، إنه محق فقط، وذكي كذلك)[٢].

ويمكن أن تلحظ هذه المسألة من خلال كثير من الممارسات التي يبديها الأتباع حيال أولئك الرموز، بدءاً من طلبات التوقيع واللقاء والتصوير، والمتابعة الشديدة لمنتجاتهم الفكرية، وانتهاء بتعليق صورهم الخاصة على ملابسهم وجدران غرفهم. أحد هذه القمصان كتب عليها (WWDD) اختصاراً لـ (What Would Dawkins Do)؛ أي: (ما الذي كان سيفعله دوكنز) وهو تعبير يدل على مغالاة شديدة في شخص دوكنز، وعلاقة تشبه علاقة المريد بالشيخ.









---

(١) http://www.independent.co.uk/news/people/news/the-iiosi-smuggest-britons-list-1772300.html?action=gallery&ino=13

(٢) Why god won't go away 35.

وكمثال على حالة الاحتفاء يمكن مشاهدة أحد تجمعات الملاحدة باسم (Reason Rally) مثلاً والذي انعقد في سنة ٢٠١٢م بواشنطن، والتي أستضيف فيها ريتشارد دوكنز، وعندما صعد على المنصة، صعد وسط احتفاء جماهيري كبير وتصفيق وتصفير وصيحات ترحيب، ثم أخذ الجمهور يردد اسمه (ريتشارد. . ريتشارد)، وهو مشهد يتكرر في مناسبات متعددة؛ كلقاء (الفرسان الأربعة) الثاني، واللقاء الأخير بهيتشنز، بل يمكن القول أنه مشهد يتكرر في أكثر المحاضرات الشخصية لرموز الإلحاد الجديد، وغيرهم من مشاهير الظاهرة.

يقول أحد الملاحدة معلقاً على فلم (الفرسان الأربعة) الأول بكلام معبر:

(بقدر اتفاقي مع الملاحدة الجدد فلسفياً، إلا أنني قلق من هذه الحماسة التبشيرية لكثير من أتباعهم. يبدو أن الميول القديمة تموت بصعوبة، إن كانت تموت فعلاً، وأعتقد أن كثيراً من أولئك الذين تركوا الأديان التوحيدية إلى الإلحاد لا زالت عندهم نزعة التعامل مع مفكريهم الأبطال كرموز طائفية. أظن أن هذه وضعية لا مفر منها في المرحلة الأولى من التحولات في المبادئ، لكن ملاحظة غريزة القطيع وهي تعمل تصيبني بالقشعريرة من أعماقي)[١].

(١) (As much as I tend to agree with the neo-atheists philosophically, I worry a bit about the quasi-evangelical fervor of many of their "followers." Old tendencies die hard (if at all), and I think many of those who’ve abandoned monotheistic religions for atheism are still inclined to treat their intellectual heroes like cult figures. I suppose this could be the inevitable first stage of any transformation of values, but the herd instinct in action always sends a shiver down my spine).

السمة السادسة

المغالاة الشديدة في العلوم الطبيعية التجريبية والاتكاء عليها في التنظير للفكرة الإلحادية

من أهم المجالات التي يتكأ عليها الملاحدة، وينطلقون منها في رسم فلسفتهم الوجودية المادية العلوم الطبيعية التجريبية، فرؤيتهم للكون والحياة تقوم على فلسفة ماديةٍ مجردة لا تؤمن إلا بها، وما يمكن إثباته تجريبياً وفق المنهج العلمي. ويؤمنون بأن العلم والمعرفة لا سبيل إلى تحصيلها إلا عبر هذا السبيل، وبالتالي فليس للإنسان إلا أحد اختيارين: إما الإيمان بالعلوم الطبيعية التجريبية وما تفضي إليه من الحقائق أو الوقوع في شَرَك الخرافة والجهل.

والحق أن هذه السمة ليست مختصة بالظاهرة الإلحادية الجديدة دون الظواهر الإلحادية المسبقة، ولكن مركزية العلم الطبيعي في تشكيل الرؤية الإلحادية الجديدة باتت أوضح بكثير، إضافةً إلى حالة المغالاة الشديدة في إمكانيات العلم التجريبي في تحصيل العلم والمعرفة، وتلك الروح العدائية لكل ما كان خارجاً عن هذه الطبيعة العلمية الضيقة، كلها مبررات تجعل من الحديث حول هذه القضية أمراً مبرراً، وتجعل منها سمةً حقيقية للإلحاد الجديد.

وقد أطلق بعض المهتمين على هذا النمط المغالي في إمكانيات العلوم

التجريبية (ساينتزم) (Scientism) وهو مصطلح منحوت من كلمة (ساينس)؛ أي: علم، مضافاً إليها ما يدل على الطبيعة الأيدولوجية لهذا الإيمان الشديد بإمكانيات العلوم التجريبية وحصر مصدرية المعرفة فيها، وقد تُرجمت هذه اللفظة في الفضاء العربي بـ(العلموية).

وظاهرة الغلو هذه ليست جديدة تماماً كما سبق، بل هي ظاهرة قديمة نسبياً، لكن يبدو أن الأيام لا تزيد ظاهرة الغلو هذه إلا غلواً. وليس بخافٍ أن جزءاً من مبررات هذا الغلو يعود للمكتسبات والمنجزات العلمية والتقنية الهائلة التي تحققت بسبب المنهج العلمي والذي أحدث تحولاً ضخماً جداً في حياة البشر على كافة المستويات، بما لا يمكن قياسه. لكن المشكلة هو في هذا التعاطي التحقيري مع الموارد المعرفية الأخرى ومحاولة حصر المجال المعرفي بتفاصيله وتعقيداته وتبايناته في هذا المورد وحده دون ما سواه. وهي إشكالية منهجية تفضي إلى إشكاليات علمية ضخمة لا تخفى، فصحة المنهج التجريبي الذي تتأسس عليها النظرة العلموية إما أن يكون مدركاً بطريقه أو بطريق خارج عنه. فإن كان إدراكنا لصحة هذا المنهج هو بذات المنهج فهو دور باطل، وهو ويحمل في طياته تناقضاً داخلياً، إذ لا يصح أن تجعل الدعوى مورداً للاستدلال لها أو عليها. أما إن كانت صحة هذا المنهج مدركةً بأمر خارج عنه فقد حصل المقصود بإمكان تحصيل المعرفة بهذا الخارج، وهو ما يدخل في مجالنا المعرفي ضرورةً مورد معرفي آخر ليس من طبيعة ذلك المورد.

والحق أن لكل مجال معرفي أدواته ومصادره المعرفية، وبالتالي فمحاولة تعميم المنهج التجريبي ليكون مصدر المعرفة في كافة المجالات العلمية، واعتقاد أنه وحده الصالح لتقديم الإجابات على كافة التساؤلات إشكالية منهجية وعلمية حقيقية، تفضي بصاحبها ولا بد إلى مشكلات علمية متعددة.

وواقع المشهد العلمي والمعرفي بحد ذاته يكشف عن مثل هذه الإشكاليات، فالتاريخ مثلاً له موارده ومصادره المعرفية، وعلوم الرياضيات كذلك، وهكذا في كل المعارف والعلوم، فاعتقاد أن المنهج العلمي التجريبي

هو وحده أداة تحصيل المعرفة، متناقض مع واقع التنوع في المجالات العلمية والذي يستتبع تنوعاً في طرائق العلم والمعرفة.

وثمة كتابات ودراسات ومحاضرات متعددة تتحدث عن هذه إشكاليات العلموية، بلغت حد وصف هذه الرؤية المغالية بأنها ذو طبيعة دوغمائية مغالية، ومن الكتابات الحديثة المفيدة في هذا السياق مما له صله بالظاهرة الإلحادية الجديدة خصوصاً كتاب «وهم العلم»[١] لروبرت شلدرك[٢]، وكتاب «وهم الشيطان»[٣] للملحد اللاأدري المختص في علوم الرياضيات ديفيد برلنسكي.

وحتى ندرك حالة الغلو العلموي عند الملاحدة الجدد تأمل في نقدهم للتنظيرات المنهجية المخالفة لهم في مجال فلسفة العلوم والإبستمولوجيا، فمثلاً من الفرضيات الشهير التي قدمها الملحد التطوري (ستيفن جاي جولد) في علاقة العلم بالدين والتي اشتهرت بـ(NOMA) (Non-Overlapping Magisterial) والتي تعني باختصار أن لكلٍ من الدين والعلم مجاله الذي يعمل فيه دون أن يكون ثمة تداخل أو تقاطع بين المجالين، فالعلم مجاله العالم المادي التجريبي بحقائقه ونظرياته، أما الدين فمجاله المعاني النهائية والقيم الخلقية، فلا تعارض بين الدين والعلم لعدم وجود منطقة تقاطع أصلاً بينهما يمكن أن يفرز حالةً ولو محتملة للتعارض، فالأسئلة التي يجيب عليها العلم الطبيعي مباينة للأسئلة التي يجيب عليها الدين. وفي الحقيقة فإن هذه الفرضية في تحديد صلة المجال العلمي بالديني ليست جديدة تماماً، بل هي محل تداول قديم في الوسط الفلسفي، لكن يبدو أن لشهرة هذه الفرضية بين المعاصرين وانتسابها إلى ستيفن يعود إلى مقامه في الوسط العلمي الحديث،

---

(١) (the science delusion).

(٢) والكتاب مع فائدته وكشفه لبعض مشكلات (العلموية) لكنه لا يخلو من غلو مضاد ومشكلات في الاتجاه الآخر، فليقرأ ولكن بروح نقدية عالية. ولشلدرك محاضرة ألقاها (بتد) أثارت جدلاً واسعاً إلى درجة سحبها من الموقع ثم إعادتها وسط ردود أفعال كبيرة.

(٣) (the devils delusion).

ولما أحدثته هذه الفرضية من جدل عريض في المشهد العلمي، ولأن الرجل قد وضع للفرضية اسماً مصطلحياً صار محلاً لتداول واسع.

وبغض النظر عن مدى صوابية مثل هذه الفرضية من بطلانها، إذ ليس المقصود هنا تفصيل القول في مسألة العلاقة بين العلم والدين، وإنما المقصود بيان ردة فعل الملاحدة الجدد لأي تصور علمي لا يروق لهم ولا ينسجم مع نزعتهم العلموية.

يقول ريتشارد دوكنز في فصل خصصه في نقد فرضية ستيفن جولد، وذلك في كتابه وهم الإلٰه بعد أن ساق طرفاً منها: (إنها تبدو رائعة، ولكن إلى اللحظة التي تعطيها شيئاً يسيراً جداً من التفكير. ما هي هذه الأسئلة الأساسية والتي يكون الدين هو ضيفها المقدر في الوقت الذي يجب على العلم التجريبي أن ينسل باحترام)[1]. بل يقول في رد مثل هذا التصور بكلام لا يخلو من مبالغة ظاهرة: (إنني لا أستطيع أن أصدق أنه من الممكن أن يكون جولد قد قصد كثيراً مما كتبه في (صخرتا الزمن)[2]. كما قلتُ فنحن جميعاً مذنبون بالانحناء للخلف لأجل إرضاء خصم قوي غير مستحق لهذا الإرضاء، والذي يمكنني أن أتخيله هو أن جولد إنما كان يمارس هذا الدور)[3]. والخصم القوي غير المستحق كما لا يخفى هو (الدين)، وتعليق دوكنز هذا يحمل روحاً تحقيرية لمن لا يحمل رؤيته العلموية، إذ لا يتصور من عاقل عنده إلا أن يتبنى تصوره العلمي، فإذا وجد من يرفضها ممن هو معدود في زمرة العقلاء فلا شك أنه غير رافض لها في الحقيقة وفي الباطن، لكنها المجاملة لضغوط الخطابات الدينية ليس إلا.

وبطبيعة الحال، وبسبب هذه النظرة المغالية في العلوم الطبيعية وربطها

---

(١) (This sounds terrific-right up until you give it a moment's thought. What are these ultimate questions in whose presence religion is an honoured guest and science must respectfully slink away). The God Delusion 55.

(٢) وقد ترجم الكتاب من قبل (مبادرة كلمة) بأبو ظبي، وترجم عنوان كتاب جولد على هذا النحو.

(٣) (I simply do not believe that Gould could possibly have meant much of what he wrote in Rocks of Ages. As I say, we have all been guilty of bending over backwards to be nice to an unworthy but powerful opponent, and I can only think that this is what Gould was doing). The God Delusion 57.

بمسألة الإلحاد بات الخطاب الإلحادي مقتنعاً تماماً بأن العلوم الطبيعية تقف في صف المواجهة ضد الفكرة الدينية، بل إنها تقود بطبيعتها للإلحاد، وأن علماء الطبيعة من المتدينين هم في الحقيقة غير أوفياء مطلقاً للمبادئ العلمية، ويمارسون بتدينهم تضليلاً غير مبرر، وسبق ذكر طرفٍ مما لاقاه فرانسيس كولنز مثلاً من الملاحدة الجدد.

وفي الحقيقة فإن الملاحدة حين يؤسسون لنظرتهم العلمية هذه فإنهم يبنونها على استبعاد مغالٍ لفكرة وجود الله تعالى، ولا يتعاملون مطلقاً بالجدية الكافية ولو مع مجرد احتمال أن يكون ثمة خالق فعلاً خلق هذا الكون على هذه الطبيعة، أو أنه سبب وجود الحياة، أو أنه مصدر هذه السنن والقوانين والثوابت، أو غير ذلك. وهو ما تتلمسه بشكل واضح تماماً في حواراتهم ومناظراتهم مع علماء حركة التصميم الذكي، فاللغة الساخرة حاضرة بشكل كثيف في مثل هذه المناسبات، والروح العدائية لمثل هذه الأطروحات ملاحظة بشكل واضح جداً، والتعامل معها إنما يكون باعتبارها داخلة في إطار العلم المزيف (pseudoscience)، ويمكن مشاهدة محاضراتهم في هذا الشأن أو مناظراتهم مع رواد حركة التصميم الذكي، وأدعو لمشاهدة مناظرة (ستيفن سي مايرز) و(بيتر وارد) لتشاهد بنفسك مثل هذه النفسية الغريبة، وهو مجرد مثال من أمثلة متعددة كثيرة.

وهذه الروح المغالية في إنكار وجود الله تعالى واستبعاده تماماً من المشهد العلمي، تسببت فعلاً في صد بعضهم من قبول بعض النظريات العلمية التي تم قبولها على نطاق واسع جداً تحت ذريعة أن لها آثاراً فلسفية تكشف عن وجود الله، أو قبولهم بنظريات علمية بديلة لمجرد استبعاد الله من المعادلة. خذ مثلاً عالم الفلك الشهير (فريد هويل) والذي أطلق مصطلح (الانفجار الكبير) (the Big Bang) في أحد حواراته في إذاعة بي بي سي على سبيل السخرية فاشتهر هذا الاسم في التعبير عنها. فقد كان هويل شديد الحماسة في نقد هذه النظرية، ويعدها من قبيل العلم المزيف، ويجد أن جزءاً من حججها وآثارها شبيهة بتلك الحجج المستخدمة من المتدينين، وقدم

فرضيته البديلة بالمشاركة مع توماس جولد وهيرمن بوندي (نظرية الحالة المستقرة) (Steady state theory) وظل وفياً لنظريته هذه من لحظة ما أطلقها سنة ١٩٤٨م وحتى لحظة وفاته سنة ٢٠٠١م. وما من شك أن التداعيات الفلسفية والدينية لنظرية الانفجار الكبير كبيرة جداً، وقد قدمت للمجال الديني والفلسفي أداة جديدة في التدليل على حدوث العالم إضافةً إلى الطرائق الفلسفية والعقلية المستعملة في التدليل على حدوثه. ويكفي أن تدرك أن الملاحدة كانوا قبل (نظرية الانفجار الكبير) يؤسسون لإلحادهم على فكرة أزلية الكون، فبرتراند رسل الفيلسوف البريطاني الشهير وعالم الرياضيات كان يدعو إلى قبول فكرة أزلية الكون كحقيقة صلبة منتهية، وما من شك أنها الفكرة الأكثر توافقاً مع المزاج الإلحادي، فلما ظهرت هذه النظرية أول الأمر كانت ردود أفعال الملاحدة منها متفهمةً وذلك للموقف العقدي المسبق من آثارها وتداعياتها الدينية. فكيف كانت ردة فعلهم بعد اشتهارها وقبولها في أكثر الدوائر العلمية، هل التزموا بآثارها الفلسفية التي لأجلها كانوا يهربون منها؟ لا، وهل سلموا على الأقل باحتمالية أن يكون فيها دلالة على خالق أوجد هذا الكون، وأخرجه من العدم؟ لا أيضاً، بل انتقلوا إلى فرضيات بديلة أخرى، كفرضية (الأكوان المتعددة) أو (الأكوان المتفرعة) أو (الكون الطفل) أو (الكون المتذبذب)، وهذه جميعاً مجرد فرضيات، وهي فرضيات حولها شكوك كثيرة، وعليها اعتراضات متعددة رصدها بعض علماء الطبيعة أنفسهم، وهي مع ذلك كله فرضيات لا يستطيعون البرهنة عليها علمياً، إذ يعترف كثير من علماء الفيزياء بأن محيط إدراكنا يتعلق بهذا الكون فقط، ولا يمتد إلى أكوان خارجية عنه، فتعلق بعضهم بمثل هذه الفرضيات يكشف في حقيقته عن بعد إيماني بالمغيب، لكنه إيمان متوافق مع المزاج المادي الإلحادي الرافض لمجرد وضع الرب كاحتمال مفسر، مع أنه سبحانه هو التفسير الأقرب بل الواجب.

وهذه ملاحظة غريبة فعلاً، وجديرة بالتوقف معها، فالملاحدة الجدد مع نزعة الغلو العلموي، يُظهرون عصبية زائدة أحياناً لبعض ما يتبنونه من قضايا علمية، تكشف لنا عن خلل منهجي عميق في بنيتهم المعرفية، وتكشف عن

شخصية عندها قدرةٌ عاليةٍ على الإيمان بالغيب، لكنه كما سبق إيمان بمغيب يوافق المزاج المادي والعقيدة الإلحادية المتنكرة لوجود الله. ولعلي أتوقف هنا بشيء من التفصيل مع شاهدٍ واحدٍ يكشف عن هذه الحالة الإيمانية العميقة.

ريتشارد دوكنز من الشخصيات شديدة التعصب للداروينية، والتي كانت ـ كما أخبر عن نفسه ـ سبباً لإلحاده، وأضحت مجاله الاختصاصي، وأصبحت أكثر مؤلفاته وكتبه وإنتاجه هو في سبيل تقريرها والتدليل عليها، وهو بكل حال صاحب التصريح الشهير: (إنه لمن الآمن تماماً أن تقول أن أي شخص تقابله ممن يدعي عدم إيمانه بالتطور، أن هذا الشخص إما أن يكون جاهلاً، أو غبياً، أو مجنوناً، أو شريراً، لكني أفضل عدم اعتبار الوصف الأخير)[1].

فهل هذه الوثوقية العالية بهذه النظرية نتيجة لبحث علمي متجرد فقط، أم أنها تكشف عن طبيعة إيمانية عقدية بهذه النظرية؟

يقول دوكنز في كتابه وهم الإلٰه: (هذا الكتاب يدافع عن رؤية بديلة: أن أي عقل خلاق لديه القدرة على تصميم أي شيء، فإنما يظهر في الوجود كمنتج لعملية طويلة من التطور المتدرج)[2]. فما الذي يريده دوكنز حقيقةً بذكر مثل هذا التعليق؟

يقول في أحد حواراته بعد أن سأله المحاور: (ألم يكن في مخيلته أن ثمة احتمالية ولو ضئيلة أن يكتشف أحد الفيزيائيين مستقبلاً الله في أحد هذه الأبعاد؟)

يجيب دوكنز قائلاً: (حسناً، أنا مقتنع أن الفيزيائيين مستقبلاً سيكتشفون شيئاً مدهشاً كأي إلٰه يمكنك تخيله.

ـ ولماذا لا تسميه الله؟

---

(١) (It is absolutely safe to say that if you meet somebody who claims not to believe in evolution, that person is ignorant, stupid or insane (or wicked, but I'd rather not consider that)). Ignorance is No Crime.

(٢) (This book will advocate an alternative view: any creative intelligence, of sufficient complexity to design anything, comes into existence only as the end product of an extended process of gradual evolution). The God delusion 31.

ـ لا أعتقد أنه من المفيد تسميته بالله.

ـ حسناً، كيف تعتقد أنه سيكون إذن.

ـ أعتقد أنه سيكون شيئاً مدهشاً ومذهلاً وشيئاً يصعب فهمه. وأن كل التصورات اللاهوتية ستكون محدودة وبسيطة بالمقارنة).

تصل إلى هذه النقطة في الحوار فتتشكك فعلاً هل أنت أمام ريتشارد دوكنز الملحد الصلب الشهير؟! لكنه يعود فيقول بعد ذلك:

(لكن هذا العقل العظيم هو في حد ذاته بحاجة إلى تفسير. ولا يكفي أن نسميه الله، سيحتاج إلى نوع من التفسير لوجوده كالتطور. من الممكن أنه تطور على كوكب آخر وصنع نظاماً حاسوبياً للمحاكاة ونحن جميعاً جزء منه. إن هذه مقترحات من قبيل الخيال العلمي لكنني أحاول التغلب على قيود العقل في القرن الواحد والعشرين. إنه سيكون أكثر عظمة وأكبر وأكثر جمالاً وأكثر روعة وسوف يلحق العار بعلم اللاهوت)[١]. وله كلام مشابه جداً لهذا الكلام في آخر الفلم الوثائقي (Expelled).

وهذا الكلام كما تراه بعيدٌ فعلاً عن الروح العلمية التجريبية، ويكشف عن منطقة إيمان بفاعلية الداروينية ليس في المجال المنظور بالنسبة لدوكنز وإنما في الوجود مطلقاً، فليس ثمة طريق أبداً للحصول على عقل مفكر إلا عن طريق تطور بطيء متدرج. فلئن كان دوكنز ينتقد على المتدينين إيمانهم

---

(١) (Interviewer: "But was there not, in his mind, a tiny possibility that one of these future physicists could discover God in one of these dimensions?

Dawkins: "Well, I'm convinced that future physicists will discover something at least as wonderful as any god you could ever imagine.

Interviewer: Why not call it God?

Dawkins: "I don't think it's helpful to call it God.

Interviewer: OK, but what would "it" be like?

Dawkins: "I think it'll be something wonderful and amazing and something difficult to understand. I think that all theological conceptions will be seen as parochial and petty by comparison.

Interviewer: He can even see how "design" by some gigantic intelligence might come into it.

Dawkins: "But that gigantic intelligence itself would need an explanation. It's not enough to call it God, it would need some sort of explanation such as evolution. Maybe it evolved in another universe and created some computer simulation that we are all a part of. These are all science-fiction suggestions but I am trying to overcome the limitations of the 21st-century mind. It's going to be grander and bigger and more beautiful and more wonderful and it's going to put theology to shame." God in other words, Ruth Gledhill, Religion Correspondent, The Times, May 10, 2007.

بالخالق وفكرة الخالقية، فهو الآخر يؤمن بالداروينية إيماناً شديد العمق.

ودعنا من محاولات استنتاج هذا المعنى من كلامه السابق، ولنأخذ بكلام له صريح جداً، سئل دوكنز في موقع (إج) السؤال التالي:

(ما الذي تؤمن بأنه حق مع أنك عاجز عن إثباته؟)

فأجاب: (حسناً، جوابي حول الداروينية، والذي هو مجال اختصاصي. الداروينية هي تفسير الحياة على هذا الكوكب، لكنني أؤمن أن أي ذكاء، وأي خالقية، وأي تصميم في أي مكان من الكون هو منتج مباشر أو غير مباشر للانتخاب الطبيعي الدارويني. يتبع ذلك لاحقاً أن التصميم يأتي متأخراً في الكون بعد مدة من التطور الداروينى، التصميم لا يمكن أن يتقدم على التطور، وبالتالي لا يمكن أن يقف خلف وجود الكون)[١].

فهذا النص كما ترى يكشف عن حجم مغالاة دوكنز في الداروينية، وأن ثمة قدراً من الإيمان الغيبي بقدراتها وفاعليتها، وأن موقفه من وجود الخالق عائدٌ في حقيقته إلى هذا الإيمان العميق بالداروينية، وليس إلى معطيات علمية محققة. ولذا تجده في مناسبات متعددة يصرح بتصريحات تكشف عن هذا الإيمان كقوله مثلاً: إن كان ثمة إلٰه فهو لم يصل لهذه الرتبة إلا وفق التطور الداروينى. ويُسأل في أحد الحوارات الإذاعية: هل لديك مانع أن الحياة بذرت على الأرض من خلال مخلوقات فضائية قادمة من كوكب آخر؟ فيجيب: لا مانع لدي لكن ثق تماماً أن تلك الكائنات الفضائية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا عن طريق التطور والترقي. ويقول في مناسبة أخرى: لو قدر لنا أن نرى ما ستصل إليه البشرية بعد ملايين السنين فسنسجد لها لأننا سنعتقد أنها آلهة.

---

(١) (WHAT DO YOU BELIEVE IS TRUE EVEN THOUGH YOU CANNOT PROVE IT?

Richard Dawkins: Well, my response was about Darwinism, which is my own field. Darwinism is the explanation for life on this planet, but I believe that all intelligence, all creativity, and all design anywhere in the universe is the direct or indirect product of Darwinian natural selection. It follows that design comes late in the universe, after a period of Darwinian evolution. Design cannot precede evolution and therefore cannot underlie the universe).

http://www.edge.org/edgenews/question/2005

الغريب أن دوكنز مع هذه العصبية الشديدة لنظرية داروين والتي تكشفها النقولات السابقة له ذكر في أحد كتبه عبارة تكشف عن هدوء غريب بل ومريب في التعاطي مع نظرية دارون، يقول فيها: (دارون قد يكون منتصراً بنهاية القرن العشرين، لكن يجب علينا الاعتراف باحتمال ظهور بعض الحقائق الجديدة للنور والتي ستدفع من سيخلفنا في القرن الواحد العشرين إلى التخلي عن الداروينية أو التعديل عليها بشكل يجعلها مختلفة كلياً)[١].

فهل قائل هذا الكلام فعلاً هو ذاته صاحب التصريحات السابقة؟ ولماذا تلك التصريحات المغالية إذن؟ لكن يبدو أن هذا الكلام منسوخ بمثل تلك المواقف الأكثر حدةً وجدة، والتي ترى في نظرية التطور حقيقة علمية منتهية، بل مسألةً عقديةً جديرةٌ بالإيمان ولو من غير دليل.

هذا أنموذج واحد فقط لأحد تجليات الحالة الدوغمائية عند الملاحدة، وإيمانهم المادي بالغيب، وثمة أمثلة متعددة أخرى كإيمان كثير من الملاحدة بأزلية الكون، أو فكرة الأكوان المتعددة أو المتوازية أو غير ذلك، والتي لن ندخل في تفاصيلها هنا.

وأرغب في التنبيه أخيراً على قضيتين مهمتين تتعلقان بصلة الإلحاد بالعلوم الطبيعية التجريبية وأثر هذه العلوم في تشكيل رؤيته الكونية:

الأولى: أنه وخلال الفترة القريبة الماضية وقعت جملةٌ من المستجدات العلمية المتعددة والتي وجد فيها الملاحدة ما يقوي موقفهم الإلحادي، وذلك بحسب نظرتهم وتفسيرهم لهذه المستجدات، فمن الأمثلة اكتشاف أحفورة (آردي) وما تمثله بالنسبة للداروينيين من كشف شيء من الحلقات البينية بين الإنسان والقرد[٢]. ومن الأمثلة أيضاً ما طرحه (كينيث ملر) حديثاً بخصوص اندماج الكروموسوم ٢ في الجينوم البشري والذي كان له أثر كبير في تجذير

---

(١) (Darwin may be triumphant at the end of the twentieth century, but we must acknowledge the possibility that new facts may come to light which will force our successors of the twenty-first century to abandon Darwinism or modify it beyond recognition). A Devil's Chaplain 81.

(٢) مجلة ساينس عدد أكتوبر ٢٠٠٩م، وناشينول جيوغرافك عدد يوليو ٢٠١٠م.

الإيمان بالداروينية في نطاقات واسعة في المجتمع العلمي. وليس القصد التسليم بصحة هذه المستجدات أو تصويب مثل هذه التفسيرات، إذ لا زالت في تقديري محل جدل حقيقي في الدوائر العلمية الغربية، سواءً على مستوى تصحيح المكتشف في حد ذاته، أو على مستوى التفسيرات والفرضيات المتعلقة به. ولكن المقصود التأكيد على أننا أمام مجال معرفي شديد التسارع، وأن ما يولده هذا المجال من مقولات تتسرب آثاره بشكل أو آخر إلى المجال العقدي، فيفرض سؤالات ينبغي أن نكون مدركين لها، إذ الوعي بهذه المسألة مهمٌ لترشيد حالة التفاعل الصحيح مع هذا المجال، وأن لا يكون الإنسان شديد التأخر عن إدراك الإشكالات المستجدة ليحسن تقديم الجوابات حولها، وهي مسألة سأعود للحديث عن شيء من أطرافها في الشق الثاني من الكتاب.

الأمر الثاني، أن ثمة قدراً من الطمع والمغالاة في إمكانات العلوم الطبيعية التجريبية في تقديم جواباتها على كافة التساؤلات، وفي مختلف المجالات مما كان خارجاً في زمن متقدم عن قبضة العلوم الطبيعية التجريبية. فالأسئلة الوجودية الكبرى مما كان محلاً للبحث في المجال الديني والفلسفي فقط أضحى اليوم مجالاً للبحث العلمي، والكتابة العلمية، في محاولة لتقديم جواب عن هذه الأسئلة عن طريق المنهج العلمي التجريبي، وهي محاولات فاشلة في غالب تجلياتها للخلل المنهجي في إقحام العلم الطبيعي في هذه المجالات أصلاً مما ليس له فيها قولٌ، ولكنها المغالاة في إمكانات العلوم الطبيعية والتي تحمل صاحبها على تصور أن بمقدورها تقديم الجواب عن جميع التساؤلات، بل تحمل صاحبها لاعتقاد صلاحيتها فقط في تقديم هذه الإجابات، ولئن عجز العلم عن تقديم جوابه اليوم فسيقدمه غداً، ليحل العلم عند هؤلاء محل الإله في تفسير الظواهر، فلئن انتقد الملاحدة المؤمنين بإبراز مشكلة (إله الفجوات)، فكثير من ممارساتهم الإيمانية تتم تحت ذريعة (علم الفجوات).

وهكذا نلحظ أن الأسئلة الوجودية الكبرى المتعلقة بحقيقة هذا العالم: كيف بدأ، ولماذا ابتدأ، وكيف ستكون النهاية؟ وكذا الأسئلة الغائية المتعلقة

بالحياة والوجود: لماذا نحن هنا، وما الغاية من وجودنا، وما معنى الحياة، وإلى أين المصير؟ وكذلك الأسئلة الأخلاقية وكيفية التعرف عليها، وغيرها كلها باتت موضوعةً على طاولة البحث العلمي، في محاولة لتقديم تصور علمي مادي لها.

في أول كتاب (التصميم العظيم) لستيفن هوكنج الفيزيائي الشهير وليونارد ملودنو، جاء ما يلي: (إننا نعيش جميعاً لمدة قصيرة، وفي تلك المدة نستكشف جزءاً صغيراً من هذا الكون. لكن البشر كائنات فضولية. إننا نتسائل ونبحث عن الإجابات. نعيش في هذا العالم الفسيح والذي يكون لطيفاً وقاسياً بالتناوب، ونحدق في السماوات الهائلة من فوقنا. ظل البشر يتساءلون أسئلة كثيرة: كيف يمكن لنا أن نفهم الكون الذي وجدنا نفسنا فيه؟ وكيف يتصرف الكون؟ وما طبيعة الحقيقة؟ ومن أين جاء كل هذا؟ وهل الكون بحاجة إلى خالق؟ أغلبنا لا يصرف الكثير من وقته للاهتمام بمثل هذه التساؤلات. لكننا جميعاً تقريباً نهتم بها في بعض الأوقات. بشكل تقليدي كانت هذه الأسئلة موكولة للفلسفة، لكن الفلسفة ماتت. الفلسفة لم تواكب التطورات الحديثة في العلوم، خصوصاً في مجال الفيزياء. لقد بات علماء الطبيعة هم حملة شعلة الاكتشاف في رحلتنا نحو المعرفة. هدف هذا الكتاب هو إعطاء إجابات في ضوء بعض المكتشفات الحديثة والتطورات النظرية. إنها توصلنا إلى صورة جديدة عن الكون وعن موقعنا فيه تختلف بشكل كبير عن الرؤية التقليدية، بل تختلف عن الصورة التي من المحتمل أننا رسمناها لعقد أو عقدين ماضيين)[١].

---

(١) (We each exist for but a short time, and in that time explore but a small part of the whole universe. But humans are a curious species. We wonder, we seek answers. Living in this vast world that is by turns kind and cruel, and gazing at the immense heavens above, people have always asked a multitude of questions: How can we understand the world in which we find ourselves? How does the universe behave? What is the nature of reality? Where did all this come from? Did the universe need a creator? Most of us do not spend most of our time worrying about these questions, but almost all of us worry about them some of the time).

(Traditionally these are questions for philosophy, but philosophy is dead. Philosophy has not kept up with modern developments in science, particularly physics. Scientists have become the bearers of the torch of discovery in our quest for knowledge. The purpose of this book is to give the answers that are suggested by recent discoveries and theoretical advances. They lead us to a new picture of the universe and our place in it =

وفعلاً فالكتاب يسعى لتقديم إجابات العلوم الطبيعية على سؤال نشأة الكون ووجود الخالق. وبطبيعة الحال فالإجابة التي قدمها هذا الكتاب إجابة متوافقة تماماً مع المزاج المادي الإلحادي وإن كانت شديدة التباين مع المحكمات العقلية، حيث يزعم أنه (وبسبب وجود قانون كقانون الجاذبية، فإن الكون يمكن وسوف يحدث نفسه بنفسه من لا شيء)[1]. وهي عبارة تنكشف مشكلاتها بأدنى تأمل، فالجاذبية في الحقيقة توصيف لظاهرة طبيعة موجودة في الكون لا يتصور أن تكون موجودة قبل وجود الكون أصلاً، وبالتالي فكيف تكون متسببة في وجوده. والملاحظ أن هذه الفكرة بدأت تجد لها قبولاً ورواجاً في المجتمع الإلحادي فهذا (لورنس كراوس) يحاول في كتابه «كون من لا شيء» أن يقنع قراءه بأن علوم الفيزياء الحديثة تؤكد على قدرة الكون في إحداث نفسه من العدم، وبقراءة عجلى في الكتاب ينكشف أن هذا العدم الذي يتحدث عنه كراوس ليس عدماً في الحقيقة، وإنما هو فراغ كمي يمور بالنشاط والطاقة، تظهر فيه الجسيمات الدقيقة وتختفي، فهو ليس عدماً كما نفهمه من كلمة العدم إنما هو في الحقيقة شيء قائم وموجود. وقد كتب (ديفيد هلبرت) الفيلسوف الفيزيائي مراجعةً نقديةً لاذعةً للكتاب في جريدة النيويورك تايمز.

أما في المجال الأخلاقي فللملاحدة محاولات متعددة لعرض الأسئلة الأخلاقية على العلوم الطبيعية، فكتاب سام هارس «المشهد الأخلاقي» إنما وضعه لأجل هذه المسألة وهو ما جاء صريحاً في العنوان الفرعي للكتاب (How Science Can Determine Human Values)؛ يعني: (كيف يستطيع العلم أن يحدد القيم الإنسانية)، والكتب في هذا السياق متعددة ككتاب مايكل شرمر «علم الخير والشر»[2]، أو كتاب روبرت هايند «لماذا الجيد جيد؟»[3]، أو

= that is very different from the traditional one, and different even from the picture we might have painted just a decade or two ago) the Grand Design 13.

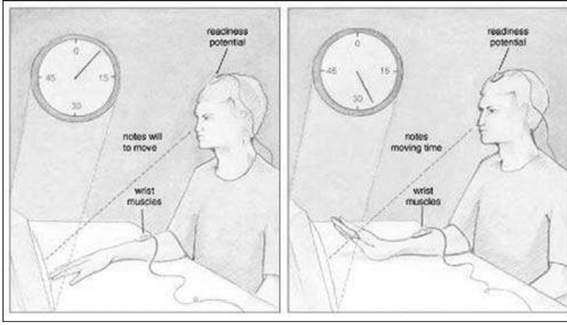
(١) (Because there is a law like gravity, the universe can and will create itself from nothing). The Grand Design 227.

(٢) The science of good and evil.

(٣) Why is good good?

كتاب روبرت بكمان «هل بإمكاننا أن نكون صالحين بدون الله؟»[١]، أو كتاب مارك هاوزر «عقول أخلاقية»[٢]. وسيأتي ذكر شيء يتعلق بطبيعة هذه المحاولات في آخر الكتاب.

بل إن محاولة الجواب عن كثير من الأسئلة الدينية والفلسفية شديدة العمق تمتد لما هو أبعد من هذا، وإليك هذا المثال المعبر عن هذه الفكرة. فمن الأسئلة الدينية والفلسفية المعمقة سؤال الإرادة الإنسانية، هل الإنسان حر في أفعاله أم أنه مجبور عليها؟



قام (بنجامن لِبت) المختص في علم وظائف الأعضاء بتجربةٍ طلب فيها من المشاركين مراقبة ساعة يأخذ فيها العقرب دورة كاملة في ٤٣ جزءاً من الثانية، وأن يقوموا على نحو عشوائي بثني أكفهم من الرسغ، ثم يقوموا من خلال الساعة بتحديد اللحظة التي صاروا واعين فيها باتخاذ قرار ثني الكف، وقام بوضع أجهزة تخطيط النشاط الدماغي والعضلي على المشاركين. وتوصل إلى نتيجة مفادها أن ثمة نشاط دماغي يتعلق باتخاذ قرار ثني الكف يسبق وعي متخذ القرار باتخاذ هذا القرار وذلك بزمن يسير جداً، بما يوحي بأن قرار ثني الكف قد تم اتخاذه في الدماغ قبل أن يكون صاحبه واعياً بأن القرار قد اتخذ، ومن الواضح ما لهذه النتيجة من تداعيات خطيرة فيما يتعلق بحرية الإرادة الإنسانية، والتي يبدو فيها الإنسان مجبوراً في صورة المختار. وبطبيعة الحال فقد تفجر جدلٌ واسعٌ جداً فيما يتعلق بالتجربة ذاتها والنتائج المستخلصة منها، ولست هنا بصدد تسجيل

---

(١) Can we ve good without God?

(٢) Moral Minds.

الاعتراضات العلمية الكثير جداً المقدمة على هذه التجربة، ومدى موثوقية النتائج التي تقدمها، وإمكانية تعميم هذه النتائج على كافة الأنشطة البشرية، وغير ذلك مما هو محل نقد حقيقي، وممن قدم نقداً لها دانيل دينيت أحد رموز الإلحاد الجديد، وألفرد ميلي، ووليم لين كريغ، بل إن لِبِت نفسه صاحب التجربة حاول أن يقدم تفسيراً للتجربة يسعى من خلاله إلى المحافظة على (مفهوم الإرادة الحرة) وكذا فعل غيره. وعلى الإنترنت مواد كثيرة جداً لمختصين بهذا الخصوص سواء كانت نصية يمكن الوقوف عليها من خلال جوجل، أو مواد مرئية تجدها على اليوتيوب. وإنما المقصود هنا الإشارة إلى أن مثل هذا السؤال والذي كان محصوراً في الأطر الدينية والفلسفية بات اليوم محل جدلٍ في الدوائر العلمية بما يؤكد أهمية متابعة ما يمكن أن تفرزة المعارف الطبيعية من سؤالات فلسفية وعقدية. وأن من موارد الشبهة المحتملة لمباحث القضاء والقدر مثلاً سيكون إضافة إلى الشبهات الفلسفية والكلامية شبهات علمية طبيعية تستدعي البحث والمناقشة.

بل إن من الفروع المعرفية علم (الفلسفة التطبيقية) وهو علم يسعى إلى عرض السؤالات الفلسفية على العلوم الطبيعية طلباً للجواب. وهي ظاهرة بدأت تتمدد بشكل ملحوظ في الفضاء الغربي، وباتت تفرز إشكاليات متعددة خصوصاً مع هذا الغلو في العلوم الطبيعية وحصر المعرفة الإنسانية البشرية في هذا المجال.

الاقتراب بالعدسة محلياً

«الإلحاد وشبابنا»

الاقتراب بالعدسة محلياً
«الإلحاد وشبابنا»

يمكن أن يلحظ المراقب للحالة الدينية والعقدية محلياً أن ثمة حالة من حالات التمرد ضد القيم والمبادئ الدينية في بعض الدوائر والشرائح، وهذه الحالة في تقيمي آخذة في التوسع ـ في هذه المرحلة ـ خصوصاً بين القواعد الشبابية، وذلك لعوامل متعددة، أهمها هذا الانفتاح المعرفي الهائل، والذي يحقق دوراً تثقيفياً حقيقياً إلى حد ما، كما يخلق حالةً من وهم الثقافة أيضاً، فكثير من الشرائح الشبابية بات يتلقى معرفةً أفقيةً سطحيةً في ملفات متعددة، ويُحصِّل عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي جرعاتٍ معلوماتيةٍ مخففةٍ ومبعثرةٍ، تخلق مع الوقت حالة من الانتفاخ المعرفي الخاوي، وأعتذر للقارئ عن صراحتي ولكن هذا شيء تلمسته من الواقع.

هذه الحالة والتي تحقق بسببها قدرٌ من الوعي الثقافي الحقيقي والوهمي لدى هذه الطبقة أوجد شعوراً مع الوقت بأن هامش الفرق بينهم وبين طبقة الدعاة وطلبة العلم والمشايخ والمفكرين والمثقفين ما عادت كما كانت، وبسبب ذلك أصبح الخطاب الشرعي المحلي (ما يملا العين) وذلك في حس مجموعات متزايدة من الشباب محلياً، وأضحت الصورة النمطية للخطاب المشيخي في وعي الكثيرين صورة سلبية قاتمة أثمرت للأسف مع الوقت حالةً من عدم الرضى عن الخطاب القائم أو سخطاً عليه، وليس القصد هنا إقرار حالة التنقص من الخطاب الشرعي المحلي، أو إقرار حالة التمرد عليه، وإنما

أريد توصيف ما أظن أنه يمثل الواقع، وتقديم أحد التفسيرات لظاهرة التي أنتجت عدداً من الإشكالات في مشهدنا المحلي، وتسببت في تطلب كثير من الشباب لخطابات دينية بديلة، أو اتخاذ موقف من الخطاب الديني جملةً وتفصيلاً.

وقد زاد من حدة الإشكالية الماضية عوامل متعددة أخرى كغلبة القيم المادية العلمانية وهذا المزاج الليبرالي المهيمن في عالمنا اليوم، والذي يؤدي في حالات ضعف الممانعة إلى إعادة تشكيل العقول والتصورات في ضوئها، ويتسبب ليس في منافرة الخطاب الشرعي في شقه البشري فحسب بل قد يحمل صاحبه على منافرة بعض القيم والمبادئ الشرعية الثابتة، وذلك بحسب حجم هيمنة مثل تلك التصورات على عقلية الشخص.

وأحسب أن إدرك هذه المسألة في غاية الأهمية فجزءٌ من أسباب انتشار الظاهرة الإلحادية عالمياً يعود في حقيقته إلى السياق الثقافي العام الذي نعيش فيه والذي تهيمن عليه للأسف الشديد قيم الحضارة الغربية، بماديتها وعلمانيتها.

ينضاف إلى هذا العامل أيضاً واقع التخلف الحضاري، والحرمان من الحقوق المطلوبة، والحريات المشروعة، والتي تزيد من حالة الاحتقان لدى كثير من القواعد، وتدفعهم للتفتيش عن خيارات بديلة تسهم في تحقيق النهضة ورفع الظلم. فإذا انضاف إلى هذا شعور بأن الخطاب الديني يسهم سلباً في رفع الظلم، أو يشرعن للاستبداد وسلب الحقوق تعاظمت الأزمة بشكل كبير، ولئن وجد في الواقع خطابات دينية تمارس هذا الدور فعلاً، إما عن غفلةٍ أو جهلٍ أو مع سبق الإصرار والترصد، فليس الخطاب الديني بأجمعه كذلك، ومن الظلم أن تستخدم مثل تلك اللغة التعميمية، التي تتسبب في ردات فعل غير محسوبة من قضية التدين ذاته وذلك في بعض الحالات المتطرفة.

وفي الجملة فإن هذا المناخ بأبعاده المختلفة هو الذي أوجد لدينا عدداً من المشكلات فيما يتعلق بظاهرة التدين، إما تقصيراً في بعض جوانبه، أو انحرافاً عن بعض مفاهيمه، أو تركاً له بالكلية وارتداداً عنه في أسوأ الأحوال، والذي غالباً ما يكون بتبني خطابات لادينية أو ملحدة.

وبسبب تعقيدات الحالة المحلية، وتعقيدات الحالة الإلحادية، فإن الوقوف بدقة على حجم هذه الحالة ومدى انتشارها مجتمعياً مسألة في غاية التعقيد، إذ مسألة التعرف على النسب والأرقام لكثير من ظواهرنا الاجتماعية يعد مسألة شائكة، فكيف بظاهرة معقدة تتسم في غالب تجلياتها محلياً بالتستر الشديد والخفاء.

ولا أرغب أن أقع في فخ المبالغة في توصيف ظاهرةٍ أو التهوين منها خصوصاً مع غيبة المعلومات الدقيقة المتصلة بها، كما لا أرغب في تجاوز الحديث عن هذه المسألة المهمة تحت ذريعة عدم توافر كافة المعلومات، وآثرت أن أتكلم فيها بِقَدَر، على أن يدرك القارئ أنني إنما أتحدث بقراءة انطباعية للواقع بحكم المتابعة والاهتمام والاحتكاك، فأرجو أن يُتعامَل مع هذه القراءة الانطباعية بهذا الاعتبار، وأود التنبيه هنا إلى عددٍ من المسائل التي أظنها في غاية الأهمية فيما يتصل بقضية الإلحاد في حالتنا المحلية:

التنبيه الأول: من الأسئلة الأولية التي كثيراً ما تطرح عند تناول هذا الملف سؤال الظاهرة: هل أضحى الإلحاد ظاهرةً محلياً؟ ويعجبني في هذا الصدد تعبيرٌ استعمله الصديق البراء العوهلي في أثناء تعليقه على هذا السؤال وذلك في مقالة له بعنوان: «ظاهرة انتشار الإلحاد في صفوف شباب المسلمين.. محاولة لفهم ومقاربة الظاهرة»، يقول: (من الصعب أن نحكم حكماً دقيقاً؛ لعدم وجود إحصائية يمكن من خلالها أن نعرف النسبة وربما يكون عمل مثل هذه الإحصائية صعباً؛ لأن غالبية مَن يلحد أو يترك الدين يكتم هذا ولا يعلنه، خصوصاً في مجتمعنا المتدين الذي يصعب أن يعلن فيه الإنسان مثل هذا الخيار، ولكن كثيراً من المؤشرات تؤكد أن الإلحاد واللادينية واللاأدرية والشك موجودة في بلادنا بشكل أكبر مما يتوقعه غالبية الناس، وخصوصاً بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين).
وأجد نفسي متفقاً إلى حد كبير مع هذا التوصيف، وإن كان هذا الاتفاق ناشئاً كما سبق عن انطباع شخصي بسبب الاحتكاك مع كثير من النماذج محلياً، ومتابعة ما يكتب على المواقع الإنترنتية العربية، وشبكات التواصل

الاجتماعي، وكم كنت أتمنى لو كان الكلام مبنياً على دراسة علمية جادة تفضي بنا إلى جواب أكثر دقة بهذا الخصوص ولكن ما باليد حيلة.

ولا أعني هنا أن الأمر بلغ حد الظاهرة إلى درجة ان يقال أن من بين كل مائة أو ألف أو حتى عشرة آلاف ملحد واحد، ولكنني أعتقد أن ثمة انطباع عند كثير من الناس حيال هذه القضية لكن الواقع أكبر من هذا الانطباع.

ومما أود التنبيه عليه فيما يتعلق بسؤال الظاهرة، أنه ينبغي في عملية توصيف الظواهر مراعاة طبيعتي الكم والكيف، إذ كثيراً ما يقتصر الناظر على الطبيعة الكمية للظاهرة دون طبيعتها الكيفية فيصوب أو يخطأ وصف الظاهرة بالظاهرة بناء على هذه النظرة القاصرة، وفي تقديري أنه ينبغي مراعاة الطبيعة الكيفية أيضاً في هذه العملية التوصيفية للظواهر، إذ للعامل الكيفي تأثيراً كبيراً في نظرتنا إلى الظاهرة وخطورتها، ويؤثر في طبيعة الرقم المعطى لوصف الظاهرة بالظاهرة، فمثلاً الرقم المعطى للزنا حتى يُعد ظاهرة في مجتمع ما تستدعي الانتباه والملاحظة والعلاج سيكون أكبر بلا شك من الرقم الذي يستدعي الملاحظة لو كان الأمر متعلقاً بزنا المحارم وذلك للفارق بينهما في البعد الكيفي. فليس شرطاً أن تبلغ نسبة زنا المحارم نسبة الزنا في المجتمع ليعد ظاهرة، بل قد يكون الرقم أقل ومع ذلك يشكل ظاهرة تستدعي الانتباه.

فإذا كان الحديث عن مسألة الإلحاد وهو أكبر الانحرافات العقدية الممكنة فليس شرطاً أن تبلغ قيمته الكمية مجتمعياً رقماً شديد الارتفاع من جنس انحراف عقدي آخر أقل شأناً منه.

وبكل حال فينبغي السعي في تحقيق حالة الحصانة العقدية، بدراسة المسائل المثارة من قبل الملاحدة، وسد مختلف احتياجاتنا البحثية في هذا المجال، فإن كان ثمة شيء من القصور والثغرات في مكتبتنا الشرعية مثلاً فالسعي في سد تلك الثغرات متعين قبل أن يتفاقم الأمر، ونصل إلى الحد الذي يصح معه توصيف الأمر بأنه ظاهرة، ليبتدأ التفاعل معها ولكن مع شيء من التأخر.

ولست أدعو هنا كافة المهتمين بالخطاب الدعوي أو الشرعي أو حتى العقدي لصرف جهودهم كلها في إدارة هذا الملف وحده، إذ حجم الاحتياجات الدينية في الواقع كثيرة جداً، لكني أدعو إلى أن يكون هذا الملف من الملفات المعتنى بها عند طائفة من المختصين، حتى يقوموا بفرض الكفاية.

ومع مشروعية السؤال المتعلق بحجم الإلحاد عالمياً وعربياً ومحلياً والسعي في تطلب جواب أكثر دقة لسؤال الظاهرة حتى تكون ردود أفعالنا محسوبه بدقةٍ أكبر، لكن لا ينبغي أن يُتخذ من جهلنا بالجواب الدقيق ذريعة إلى قراءةٍ انطباعيةٍ مضادةٍ تبالغ في التهوين من المشكلة وتشرعن للهروب من المعالجة تحت ذريعة أنها ليست بظاهرة خصوصاً وأن كثيراً من القضايا المتعلقة بالحالة الإلحادية تستدعي بحثاً وتأملاً ودراسة، والواقع يشهد بأن ثمة تقصير في هذا الباب، وسيأتي إن شاء الله في أول المحور الثاني من هذا البحث، توصيفٌ أكثر دقة لهذا الواقع.

التنبيه الثاني: أعتقد أنه كان للمعوق اللغوي دورٌ كبيرٌ في منع كثير من الخطابات الإلحادية الجديدة من التسرب لمشهدنا المحلي، إذ اللغة المستعملة بالتبشير بالمادة الإلحادية لغة أجنبية بطبيعة الحال، وهو ما يشكل حاجزاً ومانعاً من الاطلاع عليها، والتعرف على تفاصيلها. ولكن هذا المعوق كاد أن يتآكل تماماً في ظل حملةٍ محمومةٍ لترجمة كثير من المواد الإلحادية للغة العربية.

أذكر أن أحد الأصدقاء اتصل بي مرةً وطلب اللقاء للحديث حول قضية مهمة، رتبت معه الأمر واجتمعنا فعلاً في اليوم التالي، وبعد حديث يسير قام بفتح الموضوع، لقد كان يسأل عن أحفورة (آردي) وعن تداعياته العقدية، في ظل دعاوى أنها تمثل إحدى الحلقات البينية بين الإنسان وبين القرد، وكنت قد قرأت في وقت قريب بعض المواد المتعلقة بهذا المكتشف، خصوصاً التقرير المطول المنشور في مجلة (ناشينول جيوغرافك) في عددها الصادر في شهر يوليو سنة ٢٠١٠م. خلاصة الأمر أن فريقاً بحثياً اكتشفوا في أثيوبيا أجزاء

من أحفورةٍ لحيوان يدل تركيب حوضه على أنه يمشي على قدمين، وجمجته صغيرة بحيث لا تستوعب الدماغ البشري وأطلقوا عليه اسم (Ardipithecus ramidus) واختصاراً سموه (Ardi) آردي، وزعموا أنه يمثل إحدى الحلقات البينية بين الإنسان وبين القرد. وكنت قد اطلعت على شيء من الجدل الدائر حول تفاصيل المكتشف، فالمكتشف إنما هو لأجزاء من بقايا عظام هذا الحيوان ودخل قدر من الخيال في تكميل صورته. وأنه بتقدير أن الحيوان وجد فعلاً بالهيئة التي تكلم عليها مكتشفوه فليس بلازم ضرورةً أن يكون هذا المكتشف حلقة بينية فعلاً، إذ يمكن لمنكري نظرية دارون أن يقولوا: نعم وجد نوع من أنواع القردة كانت تمشي على قدمين ثم انقرضت فكان ماذا؟ المشكلة أن من يرى في مثل هذا المكتشف انتصاراً للنظرية فإنما يتكئ في دعواه في الحقيقة على إيمان مسبق بصحة النظرية، إذ هو ينظر لهذا المكتشف من خلال نظارة داروين فيرى فيه ما يؤيد رؤيته، فلو تجرد الناظر من هذه النظارة ونظر إلى الأمر كما هو لما كان فيه ما يدل ضرورةً على أننا أمام حلقة بينية بين الإنسان والقرد، وإنما قرد من فصيلة معينة وانقرض كما انقرضت كثير من القرود والحيوانات، وإنما يمكن أن يكون في مثل هذا المكتشف دليلٌ حقيقيٌ على النظرية لو أمكن إثبات أن هذا القرد أتى من نسل قرود دنيا ومن نسله أتى الإنسان. أما إسقاطه كحلقة بينية فموقف ناشئ عن تصور مسبق لا عن واقع مشاهد. عموماً أخذنا نتجاذب أطراف الحديث حول الأمر، ونتناقش حول الموضوع، ولكن الذي كان يشغلني أثناء الحوار وكان يمثل بالنسبة لي لغزاً كبيراً، كيف تعرف صاحبي على موضوع آردي هذا؟ خصوصاً وأنه مكتشف شديد الجدة من جهة ولا أعرف أن ثمة ما كُتب عنه باللغة العربية. انتهينا من حوارنا وسألته: كيف اطلعت على تفاصيل هذا المكتشف، فأخبرني بأنه اطلع على الأمر من خلال فلم وثائقي تم بثه على قناة ناشينول جيوغرافك، زاد استغرابي فالفلم لم ينشر بالعربية، وسألته عن ذلك، فأخبرني بأنه طالعه بترجمة نصية كاملة، بل وأخبرني بوجود مواد كثيرة جداً من جنسها مترجمة ومنشورة على شبكة الإنترنت. عدت إلى البيت

وأخذت أقلب النت لأفاجأ فعلاً بأن كثيراً من المواد الإلحادية المركزية مترجمة للغة العربية.

وفي حادثة شخصية أخرى تكشف عن ذوبان المعوق اللغوي في مشهدنا المحلي، كنت أتجول في أروقة معرض الكتاب بالرياض، وأثناء هذا التجوال مررت بدار الساقي، وفوجئت بترجمتهم لكتاب «الجينة الأنانية» لداعية الإلحاد الأبرز ريتشارد دوكنز، وهو كتاب كلاسيكي في تقرير الداروينية الحديثة، وقدم دوكنز من خلالها فرضيته الشهيرة المتعلقة بـ(الميمز) وهو افتراض وجود ناقل للأفكار والتصرفات في إطار ثقافي معين. حملتُ الكتاب وخطر في بالي لحظتها أن من وجه بوصلة دار الساقي لترجمة هذا الكتاب لدوكنز، ما الذي سيمنعه في مستقبل الأيام من ترجمة كتابه الأكثر إثارة «وهم الإلٰه». ثم تفاجأت بعدها بمدة يسيرة بأن الكتاب مترجم فعلاً للعربية. وأن عدداً من الكتب الإلحادية كذلك مترجمة للعربية. وازدادت المفاجأة حين علمت أن بعضاً من هذه المواد المترجمة تقوم عليها هيئات ومؤسسات حكومية عربية، فالهيئة المصرية العامة للكتاب ترجمت عدداً من الكتابات الإلحادية منها كتاب «صانع الساعات الأعمى» لريتشارد دوكنز، ومؤسسة (كلمة) بأبو ظبي ترجموا مشروعاً يتناول التبشير بشخص وفكر ريتشارد دوكنز.

المقصود أننا ومع انفتاح قنوات الاتصال، وذوبان الجدر الثقافية الفاصلة، وانتهاء زمن حارس البوابة، لم يعد للمعوق اللغوي ذاك التأثير الكبير في القدرة على الوصول إلى مثل هذه المواد الإلحادية، أو في قدرتها للنفاذ والتسرب إلى مشهدنا الثقافي، بل بات ذلك يسيراً ـ وباللغة العربية ـ عبر مواقع ومنتديات وحسابات إلحادية عربية متنوعة.

التنبيه الثالث: إحدى المشكلات التي يعانيها الكثير من شبابنا في تأسيس رؤاهم العقدية أن عندهم (ثقة عمياء مطلقة بصحة ما هم عليه)، ولهذه الحالة تأثير مزدوج: فالثقة تحمل الواحد منهم على الانفتاح على أي فكرة عقدية مخالفة، مستشعراً ـ بسبب مخزون الثقة ـ أنه قادر على مناظرة مخالفيه والتعرض لشبهاتهم وأفكارهم ونقدها، وأنه ليس ثمة ما يمكن أن يزلزل كيانه

الإيماني والعقدي. المشكلة أن حالة الثقة هذه ليست ناشئة عن معطى علمي ومعرفي حقيقي، وإنما هي حالة نفسية عاطفية قابلة للانهيار فعلاً مع أول تماس مع الشبهات والإشكالات، وقد مرت بي شخصياً عينات كثيرة من هذا النوع.

التنبيه الرابع: من المؤسف فعلاً أن كثيراً من تجليات الحالة الإلحادية محلياً ليست ناشئة عن نظر عقلي معمق، ولا قراءة وبحث جاد، بل هناك قدر من التعجل والسطحية في تقبل هذه الرؤى والأفكار دون أن تُعطى مثل هذه القضايا حقها من النظر الجاد. والعجيب اقتران هذه الظاهرة بظاهرة أخرى وهي العصبية لهذه الأفكار والحماسة الشديدة في الدفاع عنها، في بعض الدوائر الإلحادية، وقد تؤول هذه الحماسة في أحوال إلى قدر من العدوانية في التعاطي مع الخطاب الديني والمتدينين، وثمة نماذج كثيرة جداً لإساءات بالغة في حق الرب والدين والمتدينين، ولغة شديدة البذاءة والإسفاف، مما أعجز فعلاً عن نقله هنا أو حكايته. ولست أقصد رمي الجميع بمثل هذا فلي ولغيري لقاءات بشخصيات متأثرة فعلاً بالخطاب الإلحادي مع أدب وهدوء وصدق في تطلب الحقيقة، ولكن أذكر شيئاً أراه ظاهراً للأسف عند كثير من الشباب المتأثر بهذه الظاهرة، وهذا التأثر ليس بغريب إذ هو سمة للموجة الإلحادية الجديدة، وأظن أن لحالة التكتم والهروب إلى المعرفات المستعارة ما يشجع على استخدام لغةٍ لا يتجاسر المرء على استعمالها بشكل مكشوف وبالاسم الصريح لا خشية من العواقب فقط، وردات الفعل المجتمعية، بل لما تحمله تلك اللغة من سقوط أخلاقي موغل في الانحلال يصعب على الشخص السوي أن يتلفظ بها باسمه الصريح.

توصيات ومراجعات
لتطوير الخطاب العقدي

توصيات ومراجعات
لتطوير أداء الخطاب العقدي

أعتقد أن الاهتمام بالظاهرة الإلحادية الجديدة، والمساهمة الفاعلة في معالجة مشكلاتها ينبغي أن يحتل موقعه المناسب في دوائر اهتماماتنا العقدية، وأظن أن من الواجبات الشرعية العظيمة الإسهام الجاد في هذا السجال العالمي الدائر مع الملاحدة.

ويمكن أن نؤسس لوجوب المساهمة الفاعلة للأمة المسلمة في معركة الإلحاد من خلال استحضار المعاني التالية:

١ ـ أن أمة الإسلام هي أمة الاستجابة للنبي ﷺ، المكلفة شرعاً بدعوة غيرها من الأمم إلى دين الله تبارك وتعالى، وبالتالي فمن الواجب التعاطي مع هذه القطاعات البشرية الملحدة باعتبارها جزءاً من أمة الدعوة، التي تحتاج إلى خطاب عقدي ودعوي يناسبها.

٢ ـ أن ثمة شرائح إسلامية واسعة تعيش في المجتمعات الغربية وتحتك بشكل مباشر ومكثف مع قطاعات ملحدة، وما من شك أن تقديم خطاب عقدي ودعوي يثبت المسلمين في تلك المجتمعات على دينهم هو من أولى الأولويات، وأهم الواجبات.

٣ ـ أن مثل هذه الأفكار المتمددة في المجتمعات الغربية سترد علينا للأسف الشديد، وسيتم استيرادها إن عاجلاً أو آجلاً، فاستشراف المستقبل

العقدي، وإعداد العدة له واجب شرعي عظيم، وخير لنا أن ترد علينا مثل هذه الأفكار ولدينا شيء من الحصانة اللازمة، من أن ترد علينا ونحن مكشوفين أمامها، فنضطر حينها إلى التحرك كردة فعل على واقع موجود، وقد كانت الفرصة مواتية لتخليق الحصانة المطلوبة بالعمل الاستباقي. والواقع أن بوادر الإلحاد بدأت تدق أبوابنا فعلاً، وهو ما يؤكد ضرورة التعجل بالاهتمام بهذا الملف على نحو جاد.

هذه بعض الأسباب الشرعية المبدئية التي تجعل من الاهتمام بهذا الملف أحد الواجبات الشرعية المتعينة في هذا الزمان، وأنه من الفروض الكفائية التي يتعين على الأمة القيام به.

ويمكن أن يضاف إلى تلك الأسباب أيضاً سبب مصلحي مهم يتعلق بطبيعة إدارة المعركة مع الملاحدة عالمياً، فكثير من الإسهامات المتعلقة بهذا الملف على مستوى الكتابة والمناظرة وغيرها تدار بشكل كبير من خلال جهود نصرانية، ومع الاعتراف بأن في كثير مما يطرحونه حقاً صالحاً لمناكفة الفكرة الإلحادية، إلا أن ثمة حمولة عقدية شديدة السلبية عند النصارى تفتح على التدين ثغرات كبار في معركته مع الملاحدة، وبالتالي فترك معالجة هذا الملف لأصحاب الملل الباطلة سيسبب حرجاً للموقف الديني ككل، خصوصاً وأن الملاحدة يتكئون في تعاطيهم مع الظاهرة الدينية على اللغة التعميمية.

ففي كثير من المناظرات يقوم الملحد باستدعاء طبيعة التصور النصراني للإلٰه، بأقانيمه الثلاث (الأب، والابن، والروح القدس)، إضافةً إلى خطيئة آدم وتوارثها بين الأبناء، وإنزال الله لابنه الوحيد إلى الأرض، ليموت على الصليب تكفيراً عن خطايا البشر إلى آخر هذه التصورات العقدية الفاسدة، وما من شك أن مثل هذه التصورات تُضعف موقف المناظر المتدين في مقابل الملحد، وتظهر الموقف الديني في صورة هزيلة للمتلقي. وثمة عدد من المناظرات الهزيلة جداً والتي يمكن أن يقال بموضوعية وعدل وإنصاف أن الطرف المتدين قد خسر جولته مع الملاحدة، فهذا ملحد يسأل مناظره في نهاية المناظرة عن السبب المركزي الباعث لك على الإيمان بالله، فيأتيه

الجواب: لأن الله يكلمني كل صباح! إن مثل هذا الجواب يختصر طبيعة الإشكالية التي نتحدث عنها، فكيف إذا انضاف إلى ذلك الموقف العدائي عند بعض النصارى من الإسلام وأهله والذي لا يجدون غضاضة معه إلى مهاجمة الإسلام، والتعرض له بالسب والتشويه. فحين يتحدث الملاحدة عن خطر الدين على البشرية مثلاً وعن الجرائم التي مورست باسمه، فستجد كثيراً من النصارى يتنصل من هذه الإشكالية بإلقاء التهمة على الإسلام وأن الأديان ليست جميعاً كهذا الدين في وحشيته، وأنه من الظلم وضع النصرانية والإسلام في سلة دينية واحدة وهكذا. وكمثال واحد فقط والأمثلة بالعشرات، يقول رافي زاكارياس لسام هارس: إذا كنت فعلاً تعتقد أن جميع الأديان سواء فأتحداك أن تلقي محاضرة في السعودية، ستكون محاضرة الوداع.

نظرة في واقع المكتبة الشرعية حيال قضية الإلحاد:

كتب الصديق الشيخ سلطان العميري مقالة بعنوان «المادة النقدية للفكرة الإلحادية»[1]، وهي محاولة استقرائية لأهم ما أنتجته المكتبة العربية من كتابات نقدية للإلحاد، وهي قائمة تثير في نفسي قدراً من الإحباط، وذلك لقصرها نسبياً، ولأن كثيراً من الكتابات الموجودة فيها قديمة، وبالتالي فكثير من الشبهات والإشكالات والسؤالات التي يثيرها الملاحدة الجدد لا تجد أي معالجة حقيقية فيها. وأيضاً فإن كثير من الكتب في تلك القائمة لا تخلو من إشكالات علمية كقبول نديم الجسر مثلاً صاحب الكتاب الشهير قصة الإيمان لنظرية التطور، واتكائه أيضاً على فكرة عدم التعارض بين الدين والفلسفة كقول ابن رشد في كتابه فصل المقال لما بين الشريعة والحكمة من الاتصال.

هذا فيما يتعلق بظاهرة الإلحاد بشكل عام، أما إذا دخلت في شيء من التفاصيل المتعلقة بهذه الظاهرة، كاتكاء الملاحدة على معطيات العلوم الطبيعية في تبرير الإلحاد فالحال أسوأ، فنظرية دارون مع شهرتها وشدة سطوتها عالمياً

---

(١) تجدها في الملحق (٢) في آخر الكتاب.

إلا أن الكتابة العربية حيالها شديدة الضعف، بل قد لا أكون مبالغاً إن قلتُ أنني لا أعلم اليوم كتاباً عربياً واحداً مميزاً في مناقشة هذه النظرية، فعامة المكتوب شديد القدم، وهو يعبر عن سجال تاريخي حول النظرية أكثر من أن يكون تفاعلاً حقيقياً معها، خصوصاً مع هذه المستجدات الكثيرة التي يتكئ عليها مناصروا هذه النظرية في تقرير النظرية وتأصيلها.

أما إذ انتقلت للمجالات العلمية الأخرى فالأمر أسوأ وأسوأ فدعاوى بعض الملاحدة مثلاً بأن العالم مستغن عن الخالق في حدوثه ومحاولة البرهنة على ذلك بعلوم الفيزياء الحديثة ليس له أدنى وجود أو مناقشة في الكتابة العربية.

وهذا يؤكد على أن دور المدافعة عن الدين ليس محصوراً هنا في علماء الشريعة وحدهم، بل الواجب أن تُفعّل كل الطاقات العلمية في مختلف المجالات المعرفية وذلك لمناقشة ما يطرحه أولئك من أفكار في تلك المجالات. وهذا ما يمكن تلمسه في كثيرٍ من المتدينين في الدوائر الغربية، فطبيعة السجال الدائر بين الملاحدة والمتدينين ليس حكراً على القساوسة أو الرهبان أو الأساقفة وإنما يمتد ليشمل مختصين في مجالات عملية متنوعة في الفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات وغيرها. وهذا يعود في قدر منه إلى طبيعة السجال ذاته، فأداة المنهج العلمي التجريبي شديدة الحضور في كثير من هذه السجالات.

وحتى لا نجحف ببعض الجهود والإسهامات في دوائرنا الإسلامية، وحتى تتكامل الصورة نسبياً فثمة شخصيات، ومؤسسات، مهتمة حقيقةً بهذا الملف، ولها إنتاجها حيال كثير من قضاياه، ولست هنا بصدد التقييم التفصيلي لتلك الجهود، بل يكفيني مجرد الاهتمام الحقيقي بهذا الملف وتقديم إسهامات فعلية في معالجته، بغض النظر عن طبيعة تلك الإسهامات:

ـ **الشيخ جعفر شيخ إدريس**، فله كتابات نافعة جداً في هذا الإطار، ومن أهمها كتابه «الفيزياء ووجود الخالق» وهي كتابة نافعةٌ جداً في التدليل على وجود الباري ﷻ بالأدلة العقلية والعلمية، إضافةً إلى عدد من المقالات

المنشورة بمجلة البيان مما يتصل بظاهرة الإلحاد، والتي نُشر عدد منها في مجاميع مقالات الشيخ «الإسلام لعصرنا».

ـ **الشيخ محمد العوضي**، فالذي يتابع كثيراً من برامج الشيخ الإعلامية يعلم مدى كثافة حضور قضية الإلحاد في خطابه، سواءً في برامجه الخاصة، أو حوارته، ويكفي أن يعلم أن الشيخ قد ظهر في برنامج ساعة حوار على قناة المجد ثلاث مرات، كلها تدور حول قضية الإلحاد. والشيخ عنده قدرة مميزة في تبسيط وتقريب كثير من المفاهيم الفلسفية المعقدة بلغة شعبية سهلة، إضافة إلى أنه وجه إعلامي محبوب في الوطن العربي.

ـ **الدكتور عمرو شريف**، وهو من الشخصيات المهتمة بملف الإلحاد، وله عدد من الكتب والرسائل والمحاضرات في هذا المجال. والذي يتابع خطاب الدكتور المرئي والمكتوب سيدرك أن قضية الإلحاد تشكل قضية مركزية في خطابه. وقد ظهر الدكتور ممثلاً للطرف الإسلامي في أول مناظرة فضائية عن الإلحاد في الوطن العربي، وذلك في ثلاث حلقات على قناة مصر ٢٥. وكتابات الدكتور من الكتابات النافعة والمفيدة، وإن كنت أسجل ملاحظة على رؤية الدكتور حيال مسألة التطور الموجه ومدى موافقتها للتصور الإسلامي، إضافةً إلى شيء من المبالغة في تقرير بعض قضايا خوارق العادات.

ـ **الدكتور عدنان إبراهيم**، وهي شخصية جدلية شهيرة، فللدكتور عدنان نتاج مرئي كبير نسبياً في استعراض ملف الإلحاد، والرد على كثير من الشبهات والإشكالات، خصوصاً في سلسلته «مطرقة الإيمان وزجاج الإلحاد» وفي الجملة فهذا النتاج مفيد للمهتم بقضية الإلحاد، ويقدم تصوراً مجملاً لتأريخ الإلحاد وأهم ملامحه وقضاياه مع مناقشة لبعض شبهه وإشكالاته. وثمة قدر من التحفظات العلمية المتفاوتة في بعض ما تناوله الدكتور في هذا الملف، وتحفظات علمية وشرعية ضخام حيال ملفات علمية وعقدية أخرى كالطعن في بعض الصحابة، وإنكار بعض العقائد الإسلامية السنية، وتحريف بعض الأحكام الثابتة المستقرة، وموقفه المنحرف حيال بعض القضايا المنهجية

المتعلقة بمصادر التلقي ومنهج الاستدلال وغيرها، مما لا يخفى على المتابع لنتاج الدكتور، وللجدل والسجال الدائر حوله.

ـ **منتدى التوحيد**، وهو واحد من أهم المنتديات العربية في مناقشة مختلف الجوانب المتعلقة بالظاهرة الإلحادية، وأحسب أن أي مهتم بالظاهرة الإلحادية ينبغي أن يكون ضيفاً دائماً لهذا المنتدى، إذ يمثل الموقع مخزناً علمياً كبيراً حول موضوع الإلحاد، ويقوم عليه كتاب مختصون بهذه الظاهرة، وقد نفع الله تعالى به كثيراً.

ـ بعض المراكز البحثية الناشئة والمختصة في هذا المجال كالمركز الوليد **(مركز براهين)** والمختص في دراسة الإلحاد من منظور علمي فلسفي شرعي، وهو مركز حديث جداً، واطلعت على العدد الأول من المجلة الدورية الصادرة عنه بعنوان «براهين»، ومن الأسماء القائمة عليها: الصديق الشيخ عبد الله بن سعيد الشهري مشرفاً عاماً، وأبو حب الله مديراً للتحرير، أما اللجنة العلمية فتشمل: أحمد جاويش، وأحمد يحيى، ود. هيثم طلعت، ومصطفى نصر قديح، وفريق الإعداد: أبو بدر الراوي، وعبد الله الصيدلي، ود. هشام عزمي، ومحمد عمري. وأكثر هذه الأسماء إن لم تكن جميعاً هم من الأعضاء الفاعلين في منتدى التوحيد، أسأل الله أن يبارك في جهودهم. ومن المراكز البحثية أيضاً والمهتمة بهذا الملف وإن لم تكن مختصةً به فقط **(مركز نماء للدراسات والأبحاث)** والذي يقوم عليه الصديق الشيخ ياسر المطرفي، وقد قام المركز بنشر عدد لا بأس به من المقالات المتعلقة بالظاهرة الإلحادية وذلك على الموقع الخاص بالمركز، إضافة إلى بعض الكتب والإصدارات التي أؤمل أن ترى النور قريباً بإذن الله، وأن تكون مفتتحاً لنتاج أوسع مستقبلاً إن شاء الله.

هذه إلماحة سريعة في استعراض واقع التناول الإسلامي المعاصر لظاهرة الإلحاد، والذي ينبغي أن يكون واضحاً تماماً لأي مهتم في المجال العقدي أن ثمة حاجة حقيقية وكبيرة إلى جهود إضافية في معالجة هذا الموضوع، وتغذية المكتبة الشرعية بمختلف الاحتياجات البحثية حياله.

ولعلي أنتقل هنا للإشارة إلى بعض القضايا المهمة المتعلقة بتطوير أداء الخطاب الشرعي في تناول هذه الظاهرة، إضافة إلى التذكير بشيء من المجالات البحثية التي يجب التنبه لها والعناية بها للارتقاء بالخطاب العقدي المعاصر ليكون قادراً على مجابهة إشكالية الإلحاد، وتحقيق الحصانة اللازمة لأبناء المسلمين من كثير من شبهه وإشكالياته، وهي من قبيل الرؤى الاجتهادية القابلة للمراجعة والتطوير، والمهم أن تكون مثل هذه الرؤى مفتتحاً لنقاشات ناصحة جادة حول هذه القضايا طلباً لتطوير أدائنا الدعوي، وأدواتنا العلمية والمعرفية.

ضرورة تحري الصدق والعدل والدقة والموضوعية في تناول الظاهرة الإلحادية

من المبادئ الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الخطاب الشرعي العدل والصدق والموضوعية في تناوله لمختلف الظواهر العقدية، وتنبع أهمية الالتزام بهذا الطابع الأخلاقي من وجوه متعددة:

ـ **الأول**: أنه يمثل قيمةً شرعيةً أخلاقيةً واجبةً في حد ذاتها، فواجب على المسلم أن يكون شديد الصدق، متحرياً للعدل حتى في حال محاكمة أفكار مخالفيه، ويكفي في مثل هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

ـ **الثاني**: أن الصدق والعدل في وصف الظواهر هو أولى خطوات تحقيق الفهم السليم لها، والذي سيترتب عليه بعد ذلك التفاعل الصحيح معها والمعالجة الدقيقة لها، والإخلال بهاتين القيمتين يفتحان الباب على مشكلات عميقة في طبيعة المعالجة والتفاعل تكبر وتصغر بحسب طبيعة الإخلال الواقع في هاتين القيمتين.

ـ **الثالث**: أن لعدم الالتزام بالصدق والعدل في توصيف الظواهر العقدية والعلمية آثاره الخطيرة على المستوى القريب والبعيد، إذ هو يفتح المجال لتسلط المخالف على أهل الحق واستطالته عليهم، كما أنه قد يتسبب في ردود

أفعالٍ سلبيةٍ عند بعض المتدينين عند انكشاف جوانب الخلل في الرؤية المقدمة من قبل الخطاب الشرعي.

والمتابع لمثل هذا الملف العقدي ـ ظاهرة الإلحاد ـ يجد أن ثمة إشكالات حقيقية في تحري الدقة في معالجة كثير من القضايا المتصلة به، والاتكاء أحياناً على التقليد دون تمحيص لكثير من المعلومات المتصلة بهذا الملف، أو التعجل بقبول ما يبدو أنه يعضد التصور الشرعي دون تحقيق مدى صوابيته في نفسه وصلاحيته للاستدلال.

وأكتفي هنا بذكر أنموذج واحد، وهو أنموذج شديد الوضوح والتعبير عن هذه الإشكالية، فكثير من مظاهر التناول لنظرية دارون في فضائنا العلمي لا يكون على نحو مقبول من الجدية العلمية والصرامة البحثية، بل تأتي المعالجة متضمنة لقدر من السطحية وعدم التصور الصحيح لكثير من التفاصيل المتعلقة بها. بل ثمة خلل أعمق تسرب للمشهد الشرعي المحلي والعربي وانتشر بشكل غريب، وهو ادعاء أن نظرية دارون نظرية أبطلها علماء الطبيعة المعاصرون، ولفظتها المجتمعات الغربية، وتركت الجامعات والمؤسسات الأكاديمية تدريسها وتعليمها، وأن استمساك من بقي مستمسكاً بها فإنما هو لموقف عقدي إلحادي ليس إلا.

وهذا الكلام وللأسف الشديد شديد الحضور في كثير من المحاضرات والدروس والكتابات في تناول هذه النظرية، بل جرى مثل هذا الكلام من أحد المختصين الشرعيين في حوار أجري حديثاً مع أحد الملاحدة، في أول ظهور إعلامي مع مصري ملحد، فحين سئل هذا الملحد عن بواعث إلحاده تكلم عن الداروينية وعن أثرها على عقيدته حين اطلع عليها، فأبدى ذلك المختص استغرابه من هذا الباعث كون الداروينية مما أبطله العلم الحديث، ورفضه المجتمع العلمي... إلخ.

والحق أن هذه النظرية شديدة الحضور والسطوة في المجتمعات الغربية، بل هي النظرية المعتمدة والمقبولة في جل الدوائر العلمية الأكاديمية الغربية، وقائمة المؤمنين بها من المختصين الأكاديميين طويلة جداً جداً بالمقارنة بغير

المؤمنين. بل هي النظرية المهيمنة على نمط الفكر الغربي حتى سمى عبد الوهاب المسيري السياق الثقافي الغربي (بالحداثة الداروينية) وهو تعبير دقيق جداً عن المشهد الفلسفي والفكري للمجتمعات الغربية، وعن توغل الداروينية وتأثيرها في مختلف الفروع العلمية الطبيعية والإنسانية.

وليس من قصدي هنا الإقرار بصحة هذه النظرية، أو التسليم بتفاصيلها، بل الذي أعتقده أن ثمة إشكاليات علمية حقيقية متعلقة بها، إضافةً إلى إشكالياتها الدينية العقدية، ولكني أردت التنبيه إلى ضرورة التزام الدقة في توصيف الواقع، وعدم القفز عليه أو تجاوزه تحت أي ذريعة من الذرائع، بل الواجب وصف الأمور كما هي ليحسن الإنسان بعد ذلك التفاعل معها، ومعرفة طبيعة الخطاب الذي يحتاج إلى توليده.

ومن الطرائف المتعلقة بالداروينية وعدم التزام الدقة حيالها، أن قناة الجزيرة حين بثوا تقريراً تناولوا فيه موضوع (آردي) والذي يمثل بحسب دعوى الداروينين كما سبق أحد الحلقات المفقودة بين الإنسان والقرد، قلبوا نتيجة هذا المكتشف رأساً على عقب وزعموا أن المكتشفين أثبتوا من خلاله بطلان نظرية دارون، وهو خطأ محض، وحكاية للأمر بشكل متناقض مع الحقيقة.

وليس القصد تتبع الأخطاء المتسربة لبعض الخطابات الشرعية نتيجة الإخلال بالدقة والموضوعية، بل المقصود التنبيه والتأكيد على ضرورة تحري العدل والدقة في تناول الظواهر العقدية، وتحقيق القول في كل قول يُنسب إليها، وتحرير الجوابات العلمية المحكمة في الرد على شبهاتها وإشكالياتها، وعدم التعجل في تحصيل النتائج، أو استسهال النقل دون تثبت، أو الاقتصار على التقليد دون تحرير، فالقوة العلمية مطلب شرعي، وهو مقام لا يتحصل من خلال هذه السبل.

عدم تسطيح الظاهرة الإلحادية

من القضايا المهمة أيضاً في تناول الظاهرة الإلحادية عدم تسطيحها، فهي ظاهرة معقدة مركبة، وبالتالي تستدعي نظراً مركباً، فليس صحيحاً مثلاً أن جميع الملاحدة إنما ألحدوا محبة للشهوات وطلباً للتخفف من سطوة الضمير، بل أسباب الإلحاد متنوعة وفي كثير من الأحيان لا تكون عائدة إلى عامل واحد.

أذكر مرةً أنني ناقشت مجموعةً من الشباب المتأثرين بالخطاب الإلحادي، وجلستُ بعدها مع مجموعة من الزملاء ودار حديث عن ظاهرة الإلحاد، فأبدى أحدهم وجهة نظرٍ مفادها بأن أولئك إنما هم محبو شهرة، يريدون الوصول إليها عبر ركوب مثل هذه الموضات. وفي الحقيقة فإن مثل هذا الاتهام يصعب فعلاً أن يكون مؤثراً حقيقياً موضوعياً هنا خصوصاً في هذا الإطار التعميمي، إذ تلك المجموعة بل وعامة الشباب المتأثر بالخطاب الإلحادي محلياً يمارسون في دوائرهم الاجتماعية ما يسمونه بـ(التقية الاجتماعية)، فهو يظهر التدين في محيطه العائلي والاجتماعي، ويخفي قناعاته العقدية المخالفة، فلا محل لمسألة الشهرة هنا بتاتاً.

وليس القصد بطبيعة الحال تبرئة الكل بالضرورة، وإنما المطالبة بالعدل والدقة وعدم التسطيح لظواهر يغلب عليها طابع التركيب، وقد لمست شخصياً من كثير ممن ناقشتهم صدقاً في تطلب الحقيقة، وقبولاً للتراجع والمراجعة متى ما اقتنع، بل كان بعضهم يتصل باكياً يحكي معاناته النفسية مع الإلحاد،

وحالة القلق التي تولدت جرائه، وأنه يتمنى فعلاً أن يعود كما كان، حين كان يشعر بالطمأنينة والسكون في سجوده، ولكنه غير قادر على العودة لسيطرة إشكالات وشبهات وشبهات متعددة على تفكيره لا يستطيع القفز عليها أو تجاوزها إلا بأجوبة مقنعة. فاستعمال اللغة التعميمية في تناول هذه الظاهرة، وتلك القوالب الجاهزة من جنس: هؤلاء مريدي شهوة، هؤلاء محبي شهرة، هؤلاء مرضى نفسانيون، وهكذا غير لائق بتاتاً، ولا يساعد على معالجة المشكلة.

وحتى تدرك إشكالية التسطيح لظاهرة الإلحاد محلياً، وأنها مشكلة حقيقية سواء على مستوى تشخيص الظاهرة أو تحليلها أو التفتيش عن بواعثها وعلاجها، فقد سُئلت مراراً ممن له قريب ابتلي بالإلحاد هل لديك محاضرة، أو كتيب، أو مطوية يمكن أن تكون سبباً في هدايته؟! والحق أننا أمام ظاهرة الأصل فيها أن تستدعي علاجاً أكثر عمقاً من مجرد كتيب أو مطوية، أو مقطع مرئي في خمس دقائق.

فمن المهم أن تكون نظرتنا لبواعث الإلحاد وأسبابه نابعةً عن نظر جاد في الواقع، ودراسة دقيقة له، لتكون نتائجنا أقرب للصحة. ولذا فمن المجالات البحثية المهمة هنا والتي تخدم في التعرف على بواعث الإلحاد وأسبابه الاطلاع على تجارب بعض الملحدين والنظر في أسباب إلحادهم، فهي تكشف عن السؤالات الجوهرية التي تستدعي مناقشة سواءً كانت سؤلات فلسفية أو علمية أو نفسية عاطفية، فكتاب (أنتوني فلو) «هنالك إلٰه» والذي أعلن فيه تراجعه عن الفكرة الإلحادية، ذكر فيه طرفاً من تجربته الإلحادية، وكيف شَكّل سؤال الخير والشر والعدل الإلٰهي باعثاً لإلحاده في طفولته. وقبله كتاب (برتراند رسل) «لماذا لست نصرانياً؟» والذي شرح فيه أسباب إلحاده ومن أهمها السؤال الفلسفي الشهير: من خلق الله؟ وقد اطلعت على كتاب بعنوان «٥٠ صوتاً لعدم الإيمان: لماذا نحن ملاحدة»[١] وهي حكاية لتجربة

---

(١) 50 Voices of Disbelief: Why We Are Atheists.

خمسين ملحداً معاصراً تتضمن في طياتها عدداً من السؤالات المهمة في هذا الملف. وأذكر أن أحد الهاشتاقات الفاعلة في تويتر كانت تدور حول فكرة طرح الإشكالات من قبل الملاحدة حيال الخطاب الديني، ولئن اتسمت بعض تلك التغريدات بالسذاجة والسطحية وإساءة الأدب، إلا أن هناك عدداً من الأسئلة جديرة بالرصد والمتابعة والدراسة وتقديم الجواب.

ومن السطحية في تناول الظاهرة أيضاً، سطحية التناول العلمي لها، إما بسطحية الإدراك لمقولاتها، أو بضعف الاستجابة والرد على تلك المقولات، فمن الأمثلة المعبرة عن سطيحة التناول لبعض مقولات الملاحدة ما يمارسه البعض من نقد سطحي ساذج لنظرية التطور، كقول بعضهم: فلماذا لم تتطور القرود مثلنا؟ أو القول: فلما لا نشاهد التطور أمامنا. أو الاعتراض: فلما لا نرى إنساناً مولوداً من القردة؟ وهكذا فهذا النمط من الاعتراضات يعبر عن إشكالية حقيقية في فهم ما يقوله التطوريون، بما يؤدي ضرورة إلى هذا اللون من الاعتراضات السطحية.

ومن الأمثلة المتعلقة بنظرية التطور أيضاً، والتي تكشف عن ضعف الوعي بطبيعة المقولات الإلحادية أحياناً وما يترتب عليها من آثار ولوازم، ما يقع أحياناً من تناولٍ لسؤال الصلة بين الداروينية والإلحاد؟ بمعنى هل من لازم الداروينية إنكار وجود الخالق تعالى؟ أم أنها لا تتعارض ضرورةً مع مبدأ الإيمان؟ فالتناول المتعجل أحياناً في تقديم الجواب، بالنفي أو الإثبات، دون نظر علمي معمق في المقولة والواقع وبحث جاد، سيوقع المتكلم في إشكالات معرفية حقيقية. إذ مثل هذه السؤالات يحتاج إلى قدر من التأمل أولاً ثم إلى شيء من التحليل والتفصيل ثانياً ليكون الجواب أكثر دقةً وانسجاماً مع الواقع. فما من شك أن النظرية تعارض ما جاءت به الأديان السماوية جميعاً من تقرير أبوة آدم عليه السلام للبشر، وأنه الله جل وعلا خلقه خلقاً مباشراً، فالقول بالتطور البشري خصوصاً قولٌ شديد الإشكال في التصور الشرعي. ولكن هل في النظرية ما يبرر للموقف الإلحادي؛ أعني: مبدأ إنكار الخالق جل وعلا؟ وهل ثمة تلازم فعلاً بين الأمرين. الظاهر أنه لا تلازم

ضروري بينهما من جهة الواقع فهذا دارون نفسه حين وضع كتابه «أصل الأنواع» كان مؤمناً بوجود الخالق جل وعلا، ولم تتسبب هذه النظرية في تنكره لإيمانه، وإنما جاء هذا الأمر لاحقاً بعد وفاة أحد بناته، والواقع يشهد أن كثيراً من المؤمنين لا يرون في النظرية معارضاً حقيقياً لإيمانهم بالله تعالى.

ولكن هل هذا كافٍ في التدليل على عدم وجود تلازم حقيقي بين النظرية والإلحاد، الذي يبدو لي أن الأمر كذلك وأنه لا تلازم ضروري بينهما لا من جهة الواقع كما سبق ولا حتى على مستوى النظرية ذاتها، فليس هناك ما يمنع عقلاً من الإقرار بوجود الخالق، والإقرار بصحة النظرية، ويمكن أن تكون النظرية جزءاً من سُنَّة الله تعالى في الخلق، وأن الأنواع قد تطورت فعلاً وفق هذه السُّنَّة، فإذا كانت مسألة آدم عليه الصلاة والسلام مسألة محسومة بالنص، فإن بقية الأحياء في المملكتين الحيوانية والنباتية باقية على أصل الجواز العقلي، ولا يظهر لي أن هناك مانع ظاهر من جهة الشرع على كون مثل هذا التطور ممنوعاً، مع التنبه إلى أن مجرد الإمكان لا يلزم منه أن يكون الأمر واقعاً متحققاً، بل لا بد من البرهنة والتدليل على صحة النظرية وكونها فاعلة في أرض الواقع، وهو ما لا أراه قائماً بل أرى أن النظرية تتضمن خروقات كثيرة ومشكلات تجعلها في مأزق حقيقي. وأعتذر عن الدخول في دائرة الكلام في مثل هذه التفصيلات والاعتراضات كضرورة التفريق عند مناقشة النظرية بين التطورات الطفيفة في النوع الواحد[١]، والتطورات الكبرى بين الأنواع[٢]، أو مشكلة عدد الحلقات البينية التي تفترضها النظرية، أو مشكلة ظهور الأنواع المعقدة فجأة في بعض العصور الجيولوجية المتقدمة (كالانفجار الكامبري)، أو مشكلة المدد الزمنية الطويلة لوقوع هذا التطور وكفاية ما لدينا من الزمن لوقوعه، أو التعويل على الطفرات الجينية الواقعة بالصدفة ومدى ملائمتها حين حدوثها لمساعدة الكائن الحي على البقاء، فلدينا هنا صدفتان،

---

(١) Microevolution.

(٢) Macroevolution.

صدفة الظهور وصدفة الملائمة، أو مشكلة الداروينية في تفسير كثير من الظواهر شديدة التعقيد كظهور الإدراك والوعي. . . إلخ، إذ ليس المقصود هنا الكلام عن مختلف الاعتراضات على الداروينية، ومناقشة مشكلاتها، وإنما التعليق فقط على مسألة التلازم بين الإلحاد والداروينية، بل المقصود في الحقيقة ضرب مثلٍ يكشف عن حالة التعجل التي تقع أحياناً في معالجة بعض المقولات الإلحادية وتداعياتها، وما تجره العجلة من سطحيةٍ في المعالجة.

واستكمالاً لجواب سؤال التلازم بين الإلحاد والداروينية أقول: لا بد من التنبه إلى أن الداروينية وإن لم تستلزم الإلحاد بذاتها فإنها تقرب الإنسان من الإلحاد خطوة بل يمكن لها أن تضعه فعلاً على حافة الإلحاد، ولعلي أسوق هنا قصة طريفة تكشف عن هذه المسألة.

كنت مرةً في حوارٍ مع مجموعة من الشباب المتأثرين بالخطاب الإلحادي، وكنا قد توصلنا من خلال نقاش وجدل مسبق إلى إثبات وجود خالق لهذا الكون، وأن هذا الخالق متصف بالقدرة، فأحببت أن يكون النقاش حول اتصاف الخالق بالعلم أيضاً. وابتدأت الكلام على هذا النحو: إن كان وجود الصنعة دالاً على قدرة الصانع، فإن إتقان الصنعة دال على علم الصانع. فاعترض أحدهم قائلاً بأنه لا تلازم بين الإتقان والعلم، إذ قد تصدر عن الصانع صنعة متقنة بالصدفة دون أن يكون عالماً بهذه الصنعة. فذكرت جواباً يتضمن المثل التالي: كانت إحدى بناتي وهي بعمر سنتين أو ثلاث، تمسك بالقلم وتخربش في ورقة أمامها، وأثناء خربشتها توقفت قليلاً لترفع الورقة إلى والدتها قائلةً: ماما دولفين. نظرتُ في الورقة وفعلاً كانت الصورة شبيهة إلى حد ما بصورة الدولفين. فسألت صاحبي: فهل مثل هذه الرسمة تدل على معرفة ابنتي بفنون الرسم. فكان جوابه: لا. فقلت مقراً له: نعم، وذلك لاحتمال أنها رسمت هذه الصورة بالصدفة، فلو أردت التأكد من أن تعرف الرسم فعلاً فسأطلب منها أن ترسمها مرة ومرتين وثلاث فإن فعلت فهو دليل على معرفتها بالرسم، وإلا كانت هذه الرسمة مما وقع منها بالصدفة. واسترسلت قائلاً: فالصنعة المتقنة المكررة دالة على علم الصانع. وأضفت

أيضاً: ولو أنني دخلت على ابنتي هذه فوجدتها ترسم صورة منزل بجوار نهر مع مجموعة من الأشجار وصورة للشمس في السماء وسحباً وطيوراً. . . إلخ لكان في مثل هذه الصورة المركبة دليلاً كافياً في حد ذاته على معرفتها بالرسم دون طلب لتكرار الرسم ضرورةً، إذ الصنعة المتقنة المركبة تستلزم ضرورة علم الصانع. وهذا وسابقه مما نراه في الكون فعلاً فنحن أمام ظواهر متقنة مكررة، ومركبة كذلك. وبعد شيء من الجدل حيال هذه النقطة. قال أحدهم ـ وهنا تجيء الداروينية لتعمل ـ: فعلاً التعقيد الذي نشاهده اليوم في الكون والأحياء لا يمكن أن يخرج هكذا للوجود دفعة واحدة بالصدفة، ولكن ماذا لو أن الأمر كان في بداياته بسيطاً ثم إن هذا البسيط مع مرور الزمن تطور إلى هذه المظاهر المركبة المعقدة، لكان ظهور مظاهر التعقيد ممكناً عبر التطور إذ وقوع مثل هذا البسيط بالصدفة أقرب للمعقول من وقوع تلك المظاهر المعقدة بالصدفة. تكلمنا عن حقيقة هذا البسيط المفترض هنا، وعن وجوده، وأن مظاهر البساطة المدعاة لإحداث الحياة مثلاً إنما هي بساطة نسبية؛ أي: بالمقارنة بالأحياء الأكثر تعقيداً، وليست بساطة مطلقة نستسهل من خلال ذلك إمكان مجيئها بالصدفة حتى بالتسليم بنظرية دارون بتطبيقها في المجال الفيزيائي أو البيولوجي[1].

ومقصودي من حكاية هذه القصة الإشارة إلى ما فعلته نظرية دارون حول سؤال وجود الأحياء، حيث قدمت للطبائعيين المنكرين لوجود الخالق بديلاً مادياً لنظرية الخلق، وهو ما يجعل منها نظرية يمكن أن تسهم في تعزيز الحالة الإلحادية ودفع الإنسان باتجاهه، أو كما يعبر دوكنز أنها توجد لنا ملحداً مطمئناً لإلحاده. إضافةً إلى أنها عززت الشعور بفضل العلوم الطبيعية وقدرتها على الجواب عن أكثر سؤالتنا تعقيداً كسؤال تعدد الأنواع والأجناس ومظاهر الأحياء المعقدة. كما عززت أيضاً ذلك الشعور السلبي اتجاه فكرة تفسير الظواهر الطبيعية بوجود الخالق، واستغلت النظرية لمزيد من التأكيد على فكرة

(١) وسيأتي في أثناء البحث في نقطة تالية ما يكشف عن مظاهر هذا التعقيد وعن حجمه.

إلٰه الفجوات، وخطأ التعجل بإقحام الله في تفسير الظواهر الطبيعية. ولئن استطردت قليلاً في ذكر شيء من التفاصيل حيال هذه المسألة فإنني أؤكد كما أكدتُ مراراً أنني أرى في النظرية ثغرات علميةٍ حقيقيةٍ، وأنها تتضمن قدراً من التعارض مع التصور الإسلامي في مسألة خلق آدم، وأن ما أحكيه هنا إنما هو توصيف لواقع المتبنين لهذه النظرية وما أثمرته في نفوسهم. والمقصود من سياق هذا المثال جميعاً التأكيد على أهمية المعالجة المعمقة لمختلف الملفات المتعلق بقضية الإلحاد، وعدم الركون إلى مجرد الانطباعات الشخصية السريعة، دون تأدية الواجبات البحثية المتأنية.

وهو ما يجرنا للحديث عن المسألة الثانية وهو سطحية المعالجة والنقد للأفكار الإلحادية، فالساحة فيها جملة من الكتب والمحاضرات والدروس، والتي تدافع عن الرؤية الشرعية في مثل هذا الملف، لكن عدداً منها كتابات شديدة الهزال والضعف، تسهم في تسلط المخالفين على أهل الحق، وتفقد بعض أهل الحق يقينهم بالحق، فضرر مثل هذه الدراسات أعظم من نفعها، وقد أحسن ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ إذ قال: (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين)[١]. وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢١/ ١٦٥.

تجديد الخطاب العقدي
للاستجابة لمثل هذه النازلة العقدية

أظن أنه بات من المهم التعامل مع كثير من المستجدات في مجال العلوم الطبيعية وما ينشأ عنها من سؤالات دينية وفلسفية باعتبارها (نوازل عقدية)، تفرض سؤالاتها والتي تستدعي الجواب. وسبق الكلام عن ظاهرة إقحام العلوم التجريبية في فضاء السؤالات الفلسفية وما ولدته هذه الظاهرة من إجابات علمية متنوعة حيال أسئلة كثيرةٍ كسؤال الوجود، والغاية، والإرادة الإنسانية، والقيم الأخلاقية وغيرها، وهذه الإجابات تستدعي بطبيعة الحال فحصاً ومناقشةً ومدارسةً ونقداً على مستوى الخطاب الديني الشرعي وعلى مستوى العلوم التجريبية أيضاً، وهذا ما يؤكد ما سبق التأكيد عليه من ضرورة تضافر جهود الشرعيين والمختصين في مختلف الفروع العلمية في مناقشة كثير من هذه المعطيات، والجواب عما تتضمنه من إشكاليات.

والحق أن ظاهرة إفراز العلوم الطبيعية لبعض الأسئلة التي تستدعي جواباً شرعياً ليس أمراً حديثاً تماماً في المشهد العقدي، بل هي ظاهرة موجودة في الكتابة العقدية والبحث العقدي، فمثلاً سؤال كروية الأرض وما تفرضه من سؤالات حيال علو الله تعالى على خلقه، أو نزوله جل وعلا في ثلث الليل الآخر، من الأسئلة الشهيرة في هذا السياق، ومثله سؤال التعرف على جنس المخلوق ووجه الجمع بينه وبين اختصاصه جل وعلا بعلم ما في الأرحام، وهكذا، إلى غير ذلك من السؤالات. وبالتالي فالمقصود مجرد التأكيد على

ضرورة الاستمرار في معالجة هذا اللون من المسائل العقدية، خصوصاً مع تمدد تناول العلوم الطبيعية لها.

وهذا يؤكد أيضاً على أهمية العناية بمسألة تجديد الخطاب العقدي، ليكون مناسباً في لغته وترتيبه وأنماطه الاستدلالية لطبيعة المرحلة التي نعيشها، وحتى يجد الباحث والدارس في مختلف فروعها جواباً عما يفرضه واقع اليوم من سؤالات. ولو تأملنا مثلاً في طبيعة الدرس العقدي اليوم، لوجدنا أن ألصق المباحث العقدية بقضية الإلحاد مبحث «توحيد الربوبية»، وهو مبحث يُعنى أصالةً بالجواب على سؤال: هل رب هذا العالم واحد أم متعدد؟ في حين أن السؤال الذي يفرضه الإلحاد متعلق بوجود الرب أصلاً، وأظن أن حجم مناقشة هذا السؤال في الدرس العقدي اليوم دون المستوى المطلوب، بل ثمة شعور يحرك بعض الشرعيين بعدم أهمية مناقشة هذا السؤال أصلاً لفطرية جوابه، وعدم احتفاء الوحي به، في مقابل احتفائه بمسألة الألوهية، ووجوب توحيد الله تعالى في العبادة. والحق أن سؤال وجود الله تعالى سؤال ناقشه الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾. وأنه سؤال ينبغي الاهتمام به بحسب تمدد إشكالاته في الواقع، فلئن كان العلم بوجوده جل وعلا مسألة فطرية فعلاً، إلا أن الكثيرين في هذا الزمان تغيرت فطرهم، وما عادوا يجدون مثل هذا المعنى من نفوسهم، أو يجدونه ويعتقدون أنه مجرد وهم وأنه أحد مخلفات التطور الدارويني. وهذا يستدعي نقاشاً زائداً حولها، وعدم الاكتفاء بجعل مثل هذه الفطرة موضعاً استدلالياً ذاتياً فقط، فضلاً عن أن يكون مبرراً لإهمال تثبيت وتقرير وتأصيل هذا الباب، وعدم التفصيل في إقامة حججه وبراهينه.

وأحسب أن طالب العلم اليوم خصوصاً المختص بالمجال العقدي يلزمه التعرف على مختلف الأوجه الدلالية على وجود الله تبارك وتعالى، وطرائق البرهنة عليه، والرد على الاعتراضات، على نحو محكم ومرتب، لا أن تكون هذه المعرفة معرفة مجملة مختصرة لا تفي بالمطلوب. وقل الأمر نفسه في

مباحث عقدية أخرى متصلة بالموضوع، كربانية القرآن الكريم، وصحة دين الإسلام، ودلائل نبوة النبي ﷺ، وحقيقة المعجزات ودلالتها وغير ذلك كلها من المباحث العقدية المهمة، وهذا ما يؤكد على أهمية مراجعة الكتابة العقدية، والدرس العقدي، والقيام بواجبات التجديد فيهما والتي تقتضيها المرحلة.

ومن مجالات التجديد هنا تجديد صيغ وقوالب بعض الأدلة العقدية في هذا الباب، وممارسة شيءٍ من العصرنة اللفظية لها، والاستفادة مما استجد من المعارف والعلوم، وذلك لتناسب تلك الدلائل المزاج العلمي المهيمن على الكثيرين، والذين ما عادت الأدلة العقلية المختصرة تولد ذات القناعة التي كانت تولدها في الماضي من جنس (المخلوق دال على وجود الخالق)، أو (البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير فأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج أفلا تدل على اللطيف الخبير)، فهذه الأدلة مع صحتها في نفسها ونفعها لطوائف من الناس، إلا أنها قد لا تنفع آخرين لاعتبارات متعددة، فإن كان بالإمكان إقامة الأدلة الصحيحة مما ينتفع به طائفة أوسع من الناس، فهو مطلب شرعي ينبغي السعي في تحصيله.

وعند التأمل في تلك الأوجه الاستدلالية فسنجد أن ثمة حاجة وإمكانية إلى تفكيك مثل هذه الأدلة، وإخراجها عن قوالبها المركزة والمختصرة، وذلك بالنظر في بنيتها الداخلية، والتعرف على أركان ومرتكزات الدليل، ثم البرهنة على وجه إفضاء الدليل إلى المطلوب. فبدل الاقتصار على الأدلة التراثية التقليدية في هذا الباب كدليل التكوين، أو العناية، فمن الممكن للباحث العقدي أن يستعين ببعض التمثيلات المقربة لوجه الدلالة، أو ببعض المعطيات العلمية التي تعمق من وجه الدلالة العقدية.

فعلى سبيل المثال، وفي سياق البرهنة على استحالة ظهور الحياة إلى الوجود صدفة من غير خالق حكيم عليم، يمكن الاستعانة بالأمثلة المعبرة والمقربة لمدلول مفهوم الاستحالة هنا، كقول بعضهم في توضيح حجم الاستحالة من تولد حالة التركيب والتعقيد في هذا العالم من خلال الصدفة

المحضة بأن الأمر أشبه بإعصار ضرب ساحة خرداوات فكونت لنا طائرة بوينج ٧٤٧ قابلة للطيران[١]، أو كسهم أطلقته من طرف الكون ليصيب هدفاً بمقدار مليمتر واحد في طرف الكون الآخر[٢]. وهذه الطريقة في سياق الأمثال لها أصل شرعي لا يخفى في تقريب المعاني النظرية المجردة لتكون متعقلةً على نحو أفضل.

وتأمل حجم تأثير المثل التالي في تقريب مفهوم استحالة وجود الحياة أو الكون بالصدفة، وكيف أنه يسهم في رد إمكانية أن يكون في عامل الصدفة تفسيراً حقيقياً جاداً لوجود هذا العالم: في آخر مناظرات الملحد الشهير (أنتوني فلو) والتي أعلن في أولها مفاجأته الكبرى بإيمانه بوجود الخالق، قام بتأكيد وإقرار ما أورده جيرالد شرويدر في الاعتراض على ما يسمى (نظرية القردة) وهي نظرية تدافع عن الفكرة القائلة بنشوء الحياة بالصدفة عن طريق استعارة رمزية لإمكانية إنتاج (السوناتا) لشكسبير من خلال مجموعة من القردة تقوم بالضرب العشوائي على لوحة مفاتيح وذلك في زمن لا محدود. يحكي شرويدر التجربة التي قام بها (المجلس القومي البريطاني للفنون) وذلك بوضع جهاز كمبيوتر في قفص مع ستة قرود، وبعد مضي شهر أنتجت القردة ٥٠ صفحة مكتوبة نتيجةً للضرب العشوائي على لوحة المفاتيح، بعد فحص هذه الصفحات وجد أن القردة لم تستطع أن تنتج ولا كلمة واحدة من كلمات اللغة الإنجليزية، مع العلم أن أقصر الكلمات في هذه اللغة يتألف من حرف واحد مثل A أو I. وحتى تحتسب A ككلمة فإنه يتوجب أن يضرب القرد زر المسافة، ثم حرف A ثم مسافة مرة أخرى، وحتى نتعرف على احتمالية أن يحصل مثل هذا عشوائياً نقوم بعملية الحساب التالية، لو افترضنا أن لوحة التحكم تتألف من ٣٠ زراً فاحتمالية إنتاج مثل هذه الكلمة المؤلفة من حرف واحد هو حاصل قسمة ١ على ٣٠ ضرب ٣٠ ضرب ٣٠، ($\frac{١}{٣٠*٣٠*٣٠}$)؛ أي:

---

(١) الطريف أن صاحب هذا التمثيل هو الفيزيائي الملحد فريد هويل، وضربه مثلاً لاحتمالية ظهور أبسط شكل من أشكال الخلايا عشوائياً.

(٢) وهو مثل ضربه المختص في مجال الفيزياء الفلكية مايكل ترنر.

أن احتمالية حصول مثل هذه الكلمة بالصدفة هو احتمال واحد من ٢٧٠٠٠ احتمال. قام بعدها شرويدر بإجراء حساب لمدى إمكانية الحصول على أحد قصائد السوناتا لشكسبير والتي مطلعها (Shall I compare thee to a summer's day?) بذات الطريقة العشوائية، فإذا علمنا أن القصيدة مؤلفة من ٤٨٨ حرفاً واستعملنا الأحرف فقط في لوحة المفاتيح دون الرموز والتي تمثل ٢٦ حرفاً، فما هو مدى احتمالية حصول مثل هذه القصيدة بالصدفة المحضة عن طريق مثل هذا الضرب العشوائي على لوحة المفاتيح؟ الاحتمال سيكون هو احتمال واحد من ٢٦ مضروباً في نفسه ٤٨٨ مرة؛ أي: ($\frac{١}{٢٦^{٤٨٨}}$)، أو بمعنى آخر احتمال وحيد من ١٠ أس ٦٩٠ احتمال خاطئ ($\frac{١}{١٠^{٦٩٠}}$)، وحتى تتعرف على ضخامة هذا الرقم (١٠ وأمامها ٦٩٠ صفراً) ينبغي أن تدرك أن جسيمات هذا الكون جميعاً (البروتونات والنيترونات والإلكترونات) = ($١٠^{٨٠}$)؛ أي: ١٠ وأمامها ٨٠ صفراً، فالرقم الذي نتحدث عنه أضخم من جميع ما تتخيله من جزئيات هذا الكون. انس موضوع القردة ولنتخيل أنه تم تحويل الكون بأجمعه إلى معالجات حاسوبية كل معالج يزن (٠,٠٠٠٠٠١) جراماً، وتركنا كل معالج ليصدر عشوائياً محاولات إصدار السوناتا بحيث يقوم في الثانية الواحدة بمليون محاولة، فإن حاصل المحاولات التي ستقوم بها هذه المعالجات من بداية هذا الكون وحتى اللحظة التي نحن فيها سيكون فقط ($١٠^{٩٠}$) فما أبعد هذا الرقم مع عدد الاحتمالات الخاطئة لإنتاج السوناتا والتي تمثل ($١٠^{٦٩٠}$)، فإمكانية إنتاج السوناتا عن طريق الصدفة المحضة أمر مستحيل فعلاً، وهو الأمر الذي أقر به أنتوني فلو بعد سماعه لكلام شرويدر، وأقر بأن (نظرية القردة) مجرد هراء وكلام فارغ تماماً، وأنه إذا كان من المستحيل إنتاج سوناتا واحدة عن طريق الصدفة المحضة فنشوء الحياة عن طريق الصدفة سيكون أكثر استحالةً بلا شك[١].

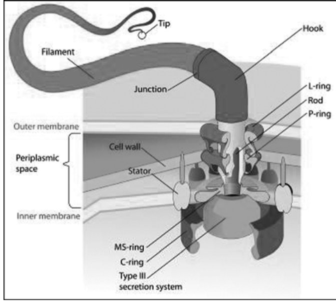
هذا مثال فقط لنمط من التدليل العقدي على استحالة نشوء الحياة

---

(١) انظر كتاب «هنالك إلٰه» لأنتوني فلو ص٧٥.

بالصدفة بالاستعانة بالعلوم الرياضية وما نعرفه من خلال العلوم الطبيعية، وهو مثال ذا تأثير بليغ يقرب مفهوم استحالة الصدفة كمفسر لنشأة الحياة، وهو مثال فقط من أمثلة متعددة أخرى يمكن استثمارها في المجال العقدي.

فإذا تجاوزنا مسألة التمثيلات المقربة، وانتقلنا إلى المفاهيم العلمية ومدى إمكانية توظيف بعضها في المجال العقدي، فسنجد أن ثمة بعض المفاهيم والتي يمكن استثمارها فعلاً في هذا السياق، خذ مثلاً المفهوم الذي طرحه المختص في مجال الكيمياء الحيوية (مايكل بيهي) وذلك في كتابه «صندوق دارون الأسود» تحت عنوان: «التعقيد غير القابل للتبسيط» (irreducible complexity)، والذي يقوم على فكرة أن الظواهر المركبة المعقدة التي تستدعي وجود أجزاء تعمل معاً بشكل متناغم بحيث إذا اختل منها جزء اختل النظام بأكمله تدل على أنها وجدت هكذا دفعةً واحدةً، وهو ما يستدعي وجود مصمم صممها على هذا النحو، لا أنها تطورت من أشكال بسيطة لتصل إلى الأكثر تعقيداً، إذ هذه الظواهر غير قابلة للتبسيط والاختزال، وقد ذكر عدداً من الأمثلة الطبيعية لمثل هذه الظواهر، ومن أشهرها بالنسبة له بكتيريا الفلجلم، والتي لها ذيل يدور كمحرك يُمكِّنها من السباحة في السوائل بمرونة بالغة، وهذا المحرك مؤلف من أجزاء متعددة بحيث لو افتقد جزء منها فلن يعمل المحرك.



وقريب من هذا المفهوم مفهوم (التعقيد المخصص) (specified complexity) والذي أشهره عالم الرياضيات والفيلسوف (وليم دمسكي) كمسلك استدلالي لقضية التصميم ووجود مصمم، فحيثما وجد في الطبيعة (تعقيد مخصص) فإنه من المستحيل أن يكون قد جاء بالصدفة، وبالتالي فثمة من خصصه على هذا النحو المركب المعقد، ويوضح الأمر بمثال يكشف عن مفهوم (التعقيد المخصص) بقوله: (حرف أ من حروف الهجاء مخصص لكن بدون تعقيد، وجملة طويلة من الحروف العشوائية معقدة

من غير تخصيص، وقصيدة سوناتا لشكسبير هو معقد ومخصص في آن واحد)[١].

ومن المفاهيم التي يمكن استثمارها أيضاً في المجال العقدي مفهوم (الضبط الدقيق لهذا الكون) (fine tuning of the universe)، ويعتمد على الفكرة التالية: عند التأمل في الكون فسنجد أن ثمة سنن وقوانين وثوابت معايرة ومضبوطة بشكل دقيق جداً من أجل أن توجد الحياة بل ليوجد الكون ذاته، وأن اختلال أي ثابت من هذه الثوابت عما هو عليه فإنه مؤذن بخراب عظيم، فوجود هذه الثوابت يستدعي سؤال كيف وجدت هذه الثوابت؟ هل هناك من ضبطها على هذا النحو الدقيق؟ أم أنها من قبيل الحتميات الضرورية؟ أم وجدت هكذا بالصدفة المحضة؟ فأما كون الأمر حتمياً فليس ثمة ما يوجب ذلك، وهو موقف يصرح به عامة المختصين في علوم الفيزياء، كستيفن هوكنج وبول ديفيز وجورج إلس وغيرهم، والقول بحتمية مثل هذا الثوابت يفضي إلى القول باستحالة وجود أي كون لا تنشأ فيه حياة، وليس ثمة أي دليل أو حتى شبهة دليل على مثل هذه الاستحالة. فهل بالإمكان أنها وجدت بالصدفة؟ نترك للملحد الفيزيائي وينبرج الجواب حيث يقول: الحياة كما نراها لم تكن لتوجد لولا وجود جملة من الثوابت الفيزيائية على النحو التي هي عليه وأنها لو تغيرت على نحو يسير جداً جداً لكان وجود الحياة مستحيلاً، أحد هذه المعاملات والتي تبدو فعلاً بحاجة إلى معايرة شديدة الدقة، هي طاقة الانفجار الكبير، إذ أن اختلالها بمقدار جزء واحد من $١٠^{١٢٠}$ جزءاً سيؤدي إلى عدم إمكان وجود الحياة مطلقاً، فلو أن هذه الطاقة لم تكن مثلاً بالمقدار التالي:

١٠٠

٠٠٠

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

---

(١) (A single letter of the alphabet is specified without being complex. A long sentence of random letters is complex without being specified. A Shakespearean sonnet is both complex and specified). Intelligent Design 47.

بل كانت على النحو التالي:

١٠٠

٠٠

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١

لما وجدت الحياة.

ولروجر بنروز الفيزيائي وعالم الرياضيات البريطاني الشهير مثال قريب وأعجب في الكشف عن دقة المعايرة وضبط الظروف الأولية لنشأة الكون لتوجد فيه الحياة، والتي تدل على استحالة نشوء الكون صدفة، فقد قام بحساب انخفاض الإنتروبيا ووجود الطاقة القابلة للاستعمال في لحظة نشوء الكون الأولى في مقابل عدم تحقق هذا الظرف الدقيق جداً والمهم جداً لنشأة الكون ووجود الحياة، فوجد بأن وجود هذا الاحتمال هو واحد من ١٠ أس ١٠ أس ١٢٣ أو ($\frac{١}{١٠^{١٠^{١٢٣}}}$)، وهو رقم ضخم جداً جداً يعجز العقل البشري عن إدراكه وتصوره، ولمجرد تقريب ضخامة عدد الأصفار الموجودة في مقابل الواحد في رقم مثل $١٠^{(١٠)^{(١٢٣)}}$، لو أنك اعتبرت كل ذرة في هذا الكون صفراً لما كانت تلك الذرات كافية لتشكل عدد الأصفار المطلوبة هنا بل ستنقص عن ذلك على نحو كبير جداً، ويكفي أن تعلم أن عدد تلك الأصفار هو مليون بليون بليون بليون بليون بليون بليون بليون بليون بليون بليون بليون بليون صفراً.

يقول بول ديفيز المختص في مجال الفيزياء النظرية: (الشيء المدهش فعلاً أن الحياة على الأرض ليست وحدها التي تبدو متزنة جداً وكأنها على حافة سكين، بل الكون بأجمعه كذلك، ولو أن الثوابت الطبيعية في هذا الكون تغيرت ولو على نحو يسير جداً لغرق العالم في فوضى عارمة)[١].

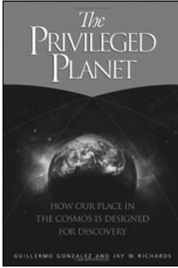
والعجيب فعلاً أنه وبسبب انتظام الكون بهذه السنن والقوانين والثوابت

---

(١) يمكن مراجعة كتاب (علم الله) (The Science of God) لجيرالد شرويدر، وهو كتاب مفيد جدّاً في هذه المسألة.

التي جعلها الله فيه أصبح هذا الكون قابلاً للتعلم والفهم، وهذه قضية ليست بهينة، ولا كانت مسألة حتميةً واجبةً، ومن التعبيرات الطريفة لإينشتاين بهذا الخصوص قوله: (الشيء الأكثر غموضاً بالنسبة لهذا العالم كونه مفهوماً)[1].

بل إنه لمن العجيب وجودنا في ظرف زماني ومكاني من هذا الكون، وبمعطيات شديدة الخصوصية والدقة والانضباط، مما فتح المجال واسعاً جداً لاستكشاف الكون على نحو لم يكن متاحاً لولا توافر هذه المعطيات، وهذه فكرة تناولها (غوليرمو غانزالز) و(جاي ريتشارد) في كتاب «الكوكب ذو الامتيازات: كيف أن موقعنا في الكون مصمم للاكتشاف». وهو كتاب ممتع ومفيد.



وعلى وجه العموم ففي كثير من المواد التي طرحتها حركة (التصميم الذكي) (Intelligent design) ما ينفع جداً في مجال التقرير والتدليل العقدي لمثل هذه المسائل، ككتب (ستفن سي مايرز)، و(مايكل بيهي)، و(وليم ديمسكي) وغيرهم[2].

وأنت إذا تأملت في هذا النمط الاستدلالي فستجد أنه في الحقيقة ليس بدعاً أو أمراً محدثاً مخترعاً تماماً، أو أنه خارج بالكلية عن طبيعة الشريعة بل عامة المعاني والأمثلة التي سيقت هنا داخلة في إطار عبودية التفكر الذي حثت عليه الشريعة، بالنظر في المخلوقات والأنفس وأرجاء هذا الكون، والاستدلال من خلالها على عظمة الخالق جل وعلا.

---

(١) (The most incomprehensible thing about the world is that it is comprehensible).

(٢) تجد عدداً كبيراً من هذه الكتب، وكتب نقدية أخرى للظاهرة الإلحادية الجديدة في الملحق (٣) في آخر الكتاب.

درء تعارض العلم التجريبي والنقل

من المجالات التي تحتاج إلى قدر من التأصيل العقدي والمنهجي، تحرير الصلة والعلاقة بين المعارف الشرعية والمعارف العلمية الطبيعية، وذلك أن ثمة قدر من التقاطع أحياناً بين هذين المجالين بما يستدعي ضبط العلاقة بينهما. والواقع يشهد أننا أمام طرفين في هذه القضية ووسط، طرف يحصل له قدر من المغالاة في الاستمساك بما يتوهم أنه ظواهر النصوص فيطرح معارف علمية قطعية، لما يتوهم أنه ظاهر الشرع. وطرفٌ يطرح بعض القواطع الشرعية لصالح المعارف الطبيعية.

فمثلاً يقول أحدهم: كل من يؤمن بالجاذبية الأرضية فإنه ينكر ربوبية الله تعالى على العالم، أو يدعي سكون الأرض وعدم حركتها، أو أنها مسطحة... إلخ.

وفي المقابل فثمة من يرد ظاهر خبر الوحي في خلق الله لآدم خلقاً مباشراً، ويقوم بتأوله ليوافق نظرية التطور زاعماً أن التطور لا يتعارض مع الوحي، وأن آدم تطور من القردة العليا والتي تطورت من القردة الدنيا، بل قد يحاول التدليل على هذه النظرية من خلال الوحي، كالاستدلال بقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ مثلاً. ومن الأمور اللافتة للنظر في هذا السياق أن كثيراً ممن يناكف التيار الإلحادي في الوطن العربي يتبنى مثل هذه الأطروحة التلفيقية بين نظريتي الخلق والتطور الدارويني أو ما يسمى بالتطور الموجه أو التطور الإلٰهي، فيقر أن المخلوقات تطورت عن

أصل واحد، وأن القردة تمثل سلفاً للبشرية، لكنها لم تتطور عشوائياً وفق التصور الداروين، وإنما وفق رعاية إلٰهية وتوجيه إلٰهي. وممن طرح مثل هذا التصور في سياق مناقشته للملاحدة نديم الجسر صاحب قصة الإيمان، ووالده حسين الجسر، وعبد الصبور شاهين في كتابه أبي آدم، وعمرو شريف في كتابه كيف بدأ الخلق، ومحمد سالم الطائي في عدد من مقالاته، وعدنان إبراهيم وغيرهم، وهي نزعة تؤكد على أهمية تحرير العلاقة بين الوحي وبين العلوم الطبيعية.

إننا باختصار بحاجة إلى مشروع من جنس المشروع الذي طرحه الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل حين عالج على نحو عميق ومبهر سؤال العقل والنقل، وقدم تصوراً شرعياً لطبيعة العلاقة بينهما. وأنت إذا تأملت في هذه الأطروحة التيمية فإنك واجد فيها ما يمكن استثماره في تأصيل هذه القضية التي نحن بصددها، وتحرير العلاقة بين العلوم الطبيعية والعلوم النقلية.

خذ مثلاً الأصل الذي طرحه ابن تيمية في ضبط علاقة الظني بالقطعي، وأن المقدم القطعي مطلقاً دون اعتبار لجنس الدليل، فالدليل العقلي مثلاً متى ما كان قطعياً فهو مقدم على الدليل النقلي إن كان ظنياً، ومتى تعارضت الظنيات قدم أقواها بحسب القرائن، فمثل هذا مفيد جداً في مثل سياقنا. فحين يتحدث الله ﷻ في قصة ذي القرنين مثلاً عن الشمس واصفاً مغيبها بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، فليس لأحد أن يقول ظاهر النص يدل على أن الشمس تغرب في نهاية النهار فتغوص في داخل عين حمئة، وإنما الآية تتكلم عن ظاهرة بالنسبة لعين الرائي، والباعث على مثل هذا ما نعلمه يقيناً بالحس والتجربة من أن الشمس أكبر من الأرض بمراحل يستحيل معها أن تغيب في أحد عيونها، وأن غياب الشمس مفهوم نسبي، إذ هي تغيب عن أناس لتشرق على آخرين، ولو كانت الشمس تغرب كذلك لأحرقت الأرض ومن عليها، بل لابتلعت الأرض. وهذا الفهم لهذه الآية ليس بدعاً، بل هو الفهم الذي كان ولا يزال يدركه كل قارئ فاهم

لكتاب الله تبارك وتعالى، يقول الحافظ ابن كثير: (أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه)[1]، وهو معنى يذكره عامة المفسرين لهذه الآية.

وكمثال آخر على ما قد يقع من الخلل ولكن في الاتجاه الآخر، قصة خلق آدم عليه الصلاة والسلام، فمن يطالع هذه القصة بتفاصيلها في القرآن الكريم، ثم يُطالع أيضاً ما ذكره النبي ﷺ مما يتعلق بخلق آدم وحواء، فسيعلم يقيناً قطعية الوحي في تقرير أولية آدم عليه السلام، وأنه خُلق خلقاً مباشراً، خلقه الله جل وعلا بيديه وأسجد له ملائكته، تفضلاً وإكراماً. بل إن القرآن يستثمر هذه الحقيقة ليقرر حقائق عقدية أخرى، إذ لما استكشل بعضهم خلق عيسى بلا أب، قال الله فيه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾، فلا يصح والحالة هذه معارضة مثل هذه الدلالة القطعية للوحي بمعطيات العلوم الطبيعية الظنية، مهما بلغت سطوتها في الواقع، إذ هو الوجه الآخر للإخلال بضبط العلاقة بين النقل والعلوم الطبيعية التجريبية. ومع ذلك فمن المهم أيضاً تحرير حدود منطقة التعارض بدقة، فمنطقة المعارضة الشرعية لنظرية التطور محصورة في هذه المنطقة (خلق آدم عليه الصلاة والسلام) على سبيل القطع، أما ما يتعلق مثلاً ببقية المملكة الحيوانية أو النباتية، فليس ثمة معارضة حقيقية، بل هي من قبيل المسكوت عنه في الوحي، أو من قبيل التقريرات الظنية. وكذلك مسألة وجود مخلوقات شبيهة بالإنسان قبل الإنسان في الهيئة الظاهرة، فليس في مثل هذا تقرير ظاهر في الشريعة لا من جهة النفي أو الإثبات، فالأصل أن تكون مثل هذه الملفات موكولة إلى دارس الظواهر الطبيعية. وليس المقصود تقرير موقف إيجابي من نظرية التطور في هذه المجالات، فلا تزال هناك إشكالات حقيقية حيالها، وإنما المقصود التنبيه إلى منطقة عمل النقل ومنطقة عمل العلم الطبيعي في هذه المسألة، وتحرير محل البحث والتعارض.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩١.

وعلى كلٍّ فالمراد هنا التنبيه إلى أن إعمال قاعدة تقديم القطعي على الظني مفيد جداً في تحديد أحد جوانب العلاقة بين النقل والعلوم الطبيعية التجريبية، وبيان أن الأصل هنا كالأصل في ذاك التقرير التيمي، من أنه لا تعارض بين النقل الصحيح والعلوم الطبيعية الصحيحة، وأنه عند تحقق المعارضة فالخلل إما في صحة النقل، أو صحة العلم الطبيعي. وبكل حالٍ فالأمر يستدعي كتابةً تأصيلية محكمة تضبط توهمات المعارضة بينهما، وتحدد أيضاً مجال كل منهما، ودرجته من القطع والظن.

ومما يؤكد ضرورة تأصيل قضية العلم وعلاقته بالنقل كثرة الكلام عن مسألة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة، ووجود إشكاليات حقيقية موضوعية في كثير من الممارسات الداخلة في هذا الإطار. وحتى ندرك عمق الإشكال وسوء الأثر لمثل تلك الممارسات السلبية، نشرت مجلة «دسكفر» في سنة ٢٠٠٨م مقالاً مهماً بعنوان «العلم الطبيعي والإسلام في تعارض» (Science and Islam in Conflict) والمقال يتكئ في الجملة على كثير من الممارسات المشكلة عند الإعجازيين والتي ولدت هذا الوهم من أن الإسلام والعلم في تعارض.

ويمكن الاطلاع لمعرفة كثير من التأصيلات العلمية المهمة في مثل هذا الملف على ورقة الدكتور سعود العريفي والمعنونة بـ(منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية.. دراسة نقدية)، وكتاب الدكتور مساعد الطيار المهم في تحرير مسألة إعجاز القرآن: (الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي). فإن في كلا الكتابين إشارات مهمة جداً فيما يتعلق بهذه المسألة.

ومما يؤكد أيضاً على أهمية العناية بقضية الصلة بين العلوم الطبيعية والعلوم النقلية أنه يتم أحياناً توظيف بعض المعارف الطبيعية المزيفة والمتوهمة لتعضيد الموقف الديني، فبدل أن تكون معضداً تكون على الضد، وتفتح ثغرة لتسلط المخالف، وتشكك الموافق، فمثلاً في كتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان حاول الاستدلال ببعض ما كُتب في مسألة تحضير الأرواح،

كمحاولة لتقرير وجود الماورائيات وعالم الميتافيزيقيا بالأدوات العلمية واستثمار ذلك لنصرة الموقف الديني، وليس بخافٍ حجم الإشكال في هذا النمط الاستدلالي، ومسألة بحجم وضخامة وثبوت وجود الله تبارك وتعالى لهي في غنى عن مثل هذه الاستدلالات شديدة الظنية بل شديدة البطلان، وذات الإشكال مع ذات المثال موجود أيضاً في كتاب «الإسلام في عصر العلم» لمحمد فريد وجدي.

ومما لمسته عند بعض المهتمين بظاهرة الإلحاد والرد عليها أحياناً، نوعاً من التعلق بمسألة قوى الإنسان الخفية، وعلم ما وراء النفس، والباراسيكولوجي، وجعل مثل هذه المجالات موارد في تقرير بعض المواقف الدينية وهذا موقف إشكالي، خصوصاً وأن كثيراً من هذه الأمور المدعاة ليس ثابتاً بمعطيات علمية صحيحة، بل هي من قبيل العلم المزيف (pseudoscience) وإن حاول أولئك في فورة حماستهم للقضية الدينية أن يصوروها على خلاف هذه الصورة.

ومما يحسن الإشارة إليه أيضاً في سياق بيان صلة العلوم الطبيعية بالمعارف الدينية، أن ثمة فرقاً كبيراً بين المعطى العلمي وما ينبنى عليه من معطيات فلسفية وعقدية، وكثيراً ما يتم الخلط بين المقامين، فتصور بعض التحليلات الفلسفية والتي يتكئ فيها صاحبها على معطى علمي، على أنه جزء من المعطى العلمي ذاته، والحق أنه مقام آخر، يستدعي أدوات بحثية أخرى لفحصه وتحليله ومداولة النقاش حوله ونقده، فكثير من الفرضيات الإلحادية والتي تصور على أنها معطيات علمية ليست كذلك عند المحاققة، بل هي نتائج وآثار للعمل العقلي في بعض المعطيات العلمية، ومثله الخطاب الديني فنظرية الانفجار الكبير معطى علمي لكن له آثاره وتداعياته الفلسفية والدينية، فالتفريق بين المقامين مسألة مهمة.

وملاحظة هذا الأمر يؤكد على أهمية التعاون بين علماء الشرع وعلماء الطبيعة، وهي مسألة مهمة نبه إلى أهميتها وبين فوائدها العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذلك في محاضرة ألقاها سنة ١٣٥٦هـ بعنوان «صفة

الارتباط بين العلماء في القديم» قال فيها: (وعلماء الدين أحوج الناس إلى التواصل والتعاون خصوصاً في العصر الذي تفشى فيه وباء الإلحاد، وقلّت الرغبة في العلوم الدينية، بل كادت تعم النفرة عنها، واستغنى كل أحد برأيه.

فعلماء الدين مفتقرون إلى التعاون لإيجاد طرق تقرب المسافة بينهم وبين المتعلمين العلوم الحديثة، وتجلى فيها المسائل الدينية في معارض تتفق وطريق التفكير العصري، فيستطاع بذلك إيقاف الوباء عن زيادة الانتشار ومعالجة المرضى، بل والدعاية المثمرة ـ إن شاء الله ـ.

فأما الدواء المعروف الآن، وهو التكفير والتضليل، فإنه لا يزيد الداء إلا إعضالاً، ومَثَله مَثَل رجل ظهر ببعض أصابعه برص فقطعه! فظهر البرص بأخرى فقطعها!! فقيل له: حنانيك قبل أن تقطع جميع أعضائك!

وهذا موضوع واسع، أكتفي بالإلماع إليه)[1].

أختم هذه الفقرة بالتأكيد على أهمية وجود طالب العلم الوسيط والذي يحسن قدراً من المعرفة الشرعية والمعرفة الطبيعية، فمثل هذا أقدر على تصور البابين، ونقل هذا التصور لطرفي المعادلة، المختصين بالمجال الشرعي، والمختصين بالمجال العلمي، ووجود مثل هذا النمط من طلبة العلم سيحل كثيراً من أوجه الخلل المشاهدة في بعض المعالجات التي يقدمها بعض الشرعيين حيال مثل هذه الملفات والتي تسبب فيها عدم استيعاب بعض المعطيات العلمية، أو العجز عن استيعابها، كما أنها ستحل جزء من مشكلات المختصين في مجال العلوم الطبيعية حين يتحدثون عن قضايا تتماس مع التصورات الشرعية على نحو ينم عن جهلهم.

---

(١) صفة الارتباط بين العلماء في القديم ص١٦.

ضرورة تقديم رؤى نقدية هجومية
وعدم الاكتفاء بالمدافعة

مما ينبغي مراعاته في سجال الإلحاد أن لا يكون موقف المنتصر للموقف الديني انهزامياً مكتفياً بالمدافعة فقط، بل ينبغي أن يكون منطلق المؤمن في جدله من تصور عقدي صلب يستحضر في نفسه معنى قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فالقضية التي يدافع عنها ليست قضية هامشية أو ظنية بل هي أم اليقينيات الدينية، وأحد المعاني الفطرية، وقد أحسن الشاعر إذ قال:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
وله في كل شيء آية ... تدل على أنه واحد

ومن لطيف المقولات المناسبة هنا ما قاله الفيلسوف الفرنسي في التعبير عن هذه الحالة الوثوقية العالية بوجود الرب تبارك وتعالى، يقول: حين يكون الإلحاد ممكناً فسأكون أول الملحدين. ومن عناوين الكتب اللطيفة والتي تتضمن قدراً من هذا المعنى كتاب «ليس لدي إيمان كافٍ لأكون ملحداً» (I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist) لنورمان جيسلر وفرانك تورك.

فلا بد أن يتسم الخطاب الشرعي بالوثوقية العالية في دعوته، وأن يكون له أيضاً خطابه الهجومي والذي يكشف من خلاله الإشكالات والثغرات الهائلة الموجودة في بنية التصور الإلحادي وخطابه، وأن لا يكتفي دوماً بالبقاء في

مربع المدافعة عن تصوراته الدينية بحيث يتم طرح التساؤلات من قبل الضفة الملحدة ويكون دوره مجرد تقديم الجوابات، بل يجب أن يمارس الخطاب الديني دوره أيضاً في طرح السؤالات والإشكالات والكشف عن مناطق الخلل في الخطاب الإلحادي، وهو خطاب مليء فعلاً بالكثير من المشكلات.

فالتيار الإلحادي تيار هدمي، يسعى أفراده إلى هدم التصورات الدينية دون أن يقدموا فلسفتهم الخاصة للوجود، ومتى ما سعوا في ذلك فمن السهل ملاحظة حالة التعجل والسطحية والحيدة عن مواطن الإشكال، وهو ما يكشف عن مشكلات كثيرة تعصف بهذا الخطاب.

وحتى لا يكون الكلام مرسلاً، ويبقي معلقاً دون شواهد، إليك شيئاً من النماذج والأمثلة التي تكشف عن عمق الإشكال في الفلسفة الإلحادية، وكيف أن الملاحدة في فورة الحماسة لنقض المفاهيم الدينية لا يقدمون جهداً كافياً للتفكير في كثير من الأسئلة الصعبة، فضلاً عن تقديم إجابات معمقة حيالها.

الإلحاد والسؤال الأخلاقي:

من المشكلات العميقة في بنية الفكرة الإلحادية ما يتعلق بمسألة القيم الأخلاقية، وهي مشكلة أعمق من مجرد الاختلاف حول هذه القيم حسناً وقبحاً، أو الاختلاف في وسائل التعرف على الحسن منها وفرزه عن القبيح، بل هي مشكلة تمتد لتصل إلى مستوى السؤال عن وجود تلك القيم الأخلاقية المطلقة المتعالية على وجود الإنسان أصلاً، والذي يجعل من الصدق والعدل مثلاً قيماً أخلاقيةً حسنةً مطلقاً بغض النظر عن وجود الإنسان، كما يجعل من الظلم والاعتداء قيماً أخلاقية سيئة ليس بالنسبة إلى مجتمع إنساني أو سياق زمني خاص بل هي كذلك بإطلاق، وهذا ما تتبناه الرؤية الدينية، ويمكن أن تؤسس له فلسفياً بسبب إيمانها بالرب تعالى الكامل، كما أنها جزء من الفطرة الإنسانية التي يجدها الإنسان من نفسه ضرورة والتي تحمله على التمييز بين هذه القيم وإدراك حسن العدل وقبح الظلم دون تعليم أو تنظير فلسفي، بل يستشعر أنها متعالية ومنفصلة في وجودها عن وجوده، وليست مجرد أوصاف

يطلقها البشر على جملة من الأفعال دون أن يكون لهذه الأفعال قيمة ذاتية جوهرية.

وإذا كان الملحد يعتقد أن وجود الكون ووجود الإنسان إنما هو نتيجة للصدفة العمياء، فما هو المبرر العلمي أو العقلي لاعتقاد وجود مثل هذه القيم الأخلاقية المطلقة، وكيف يمكن تفسير هذا الشعور الفطري الضروري عند الناس بتعالي هذه القيم على وجودهم، فيدركون الحسن منها ويدركون القبيح.

ووعي بعض الخطابات الإلحادية التاريخية بهذه الإشكالية هو الذي ولد فيما سبق تلك الخطابات العدمية والعبثية والفوضوية، حيث تصوروا المشكلة وعرفوا حقيقتها وما يلزم عنها فأخذوا بتلك اللوازم إلى نهاية الطريق، فقدموا فلسفاتهم المنحرفة هذه بسبب الوعي بأنها النتيجة الطبيعية المعقولة في ظل النظرة المادية الإلحادية للوجود.

المشكلة أن ملاحدة اليوم يقدمون أنفسهم باعتبارهم (إنسانيون هيومانيون)، ويبدون قدراً من الصلابة الأخلاقية في خطاباتهم حيال ما يعتقدونه صواباً وخطأً، دون أن يوضحوا القاعدة التي تتأسس عليها هذه الصلابة الأخلاقية، وإذا أرادوا التوضيح أحياناً فإما أن يقعوا في إشكالية التبرير النفعي البراغماتي للأخلاق والذي يفقد القيم الأخلاقية قيمتها، أو يقعوا في تقرير نسبيتها بما يفقدها قيمتها المطلقة، ويفقدهم مبرر هذه الصلابة الأخلاقية التي يظهرونها والحماسة الكبيرة في دعوتهم لقيمهم الأخلاقية بما يشعر المتلقي أنهم يدافعون عن رؤى كونية مطلقة، واستقراء طريقتهم في نقد الممارسات الأخلاقية التي لا يميلون إليها تكشف عن هذه القضية بوضوح شديد.

كما أنها تبرز التناقض ما بين الرؤية الكونية الإلحادية وبين الممارسة الأخلاقية، وللتوضيح لو تصورنا أربعة أشخاص اثنان منهما من المتدينين المؤمنين بالله والدار الآخرة الذين يعتقدون أن الإنسان محاسب على أفعاله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، واثنان ملحدان لا يؤمنان بالثواب والعقاب الأخروي، بل لا يؤمنان أصلاً بالحياة الأخروية ولا وجود الله، وقدرنا أن أحد المتدينين طيبٌ يلتزم بالأخلاق الخيّرة والآخر شرير غير ملتزم بها بل هو

سيء خلقياً، ومثلهما الملحدان أحدهما ملتزم أخلاقياً والآخر على الضد، وطرحنا السؤال: مَن مِن هؤلاء الأربعة أكثر اتساقاً مع رؤيته الكونية للوجود؟ لانكشف الجواب: وهو أن الممارسة الأخلاقية الصادرة من المتدين أكثر اتساقاً مع رؤيته الكونية التي تؤمن فعلاً بوجود القيم الأخلاقية المطلقة، وأن ممارسته اللاأخلاقية غير متسقة مع هذه الرؤية الدينية، بخلاف الملحد الذي يبدو أن ممارسته الأخلاقية الحسنة غير متسقة في الحقيقة مع رؤيته الكونية العدمية التي لا تتضمن الحكم على القيم الخلقية بوصف الإطلاق.

وللدكتور عبد الوهاب المسيري تعليق طريف على هذه الحالة تكشف عن شيء من خفايا النفس هنا حيث يقول: (الفلسفة الهيومانية في الغرب، بتأكيدها القيم الأخلاقية المطلقة ومقدرة الإنسان على تجاوز واقعه الطبيعي/ المادي وذاته الطبيعية/المادية، تعبير عن الإلٰه الخفي وعن البحث غير الواعي من قبل الإنسان المادي عن المقدس، فمثل هذه القيم، ومثل هذه المقدرة، ليس لهما أساس مادي)[1].

ومن القضايا اللافتة للنظر فعلاً حالة الهروب التي يبديها الملاحدة كثيراً عند مناقشة السؤال الأنطولوجي للأخلاق وهو السؤال الفلسفي المتعلق بوجود القيم الأخلاقية من عدمها، فتراهم يحاولون صرف الموضوع إلى السؤال الإبستمولوجي وهو سؤال يتعلق بكيفية التعرف على القيم الأخلاقية، وهي ممارسة غريبة وجدتها حاضرةً للأسف في جميع المناظرات والتي يتم فيها الإشارة إلى السؤال الأخلاقي، وشاهد مثلاً مناظرة وليم لين كريغ مع هيتشنز، وثلاثية وليم لين كريغ مع لورنس كراوس، وغيرها من المناظرات الكثيرة لتتعرف على حالة الهروب التي أتحدث عنها. فحين نتحدث عن الفلسفة الأخلاقية فثمة مستويان مهمان للحديث:

ـ **المستوى الأول**: هل للقيم الأخلاقية المطلقة وجود أم لا؟

ـ **المستوى الثاني**: كيف نتعرف على تلك القيم الأخلاقية إن كان لها وجود؟

---

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/ ١٨٩.

وبسبب شعور الملاحدة الجدد بمأزق السؤال الأول في ظل تصورهم الإلحادي تراهم يعمدون إلى تجاوزه والقفز عليه لمناقشة السؤال الثاني وفروعه كيف يمكن أن نتعرف على حسن الأخلاق من قبيحها؟ وهل ثمة سبيل للتعرف عليها خارج عن إطار الدين أم لا؟ وهل بإمكان العلوم الطبيعية مساعدتنا في حل هذا الإشكال؟ ويظل السؤال الأول كما هو معلقاً ينتظر الجواب، ولا جواب. وهو ما يمثل مأزقاً حقيقياً ضخماً للفلسفة الإلحادية.

وقد كتب الملاحدة عدداً من الكتب في محاولة معالجة هذا المأزق الخطير، لكنها جميعاً تحيد عن موطن الإشكال، وتظهر عجزاً حقيقياً في الإجابة على الأسئلة العميقة حيال هذا الملف، خذ مثلاً محاولة سام هارس في كتابه «المشهد الأخلاقي.. كيف يمكن للعلم التجريبي أن يحدد القيم الإنسانية»، والذي قدم رؤية مختصرها كالتالي: القيم الأخلاقية هي التي ترتقي بعافية الإنسان، وبما أن العلم قادر على إخبارنا بما يحقق العافية، فهو قادر على تحديد القيم الأخلاقية الحسنة والقبيحة. ولست بصدد مناقشة مدى صوابية هذه الأداة من عدمه وإن كانت الأمثلة التفصيلية الآتية ستكشف عن شيء من إشكاليات مثل هذه الأداة وقصورها عن تحقيق المطلوب، لكن أردت بيان حيدة البحث عن جواب السؤال الأنطولوجي للأخلاق.

وقل الأمر نفسه في محاولات كتابية أخرى في هذا المجال ككتاب مايكل شرمر «علم الخير والشر»[١]، أو كتاب روبرت هايند «لماذا الجيد جيد؟»[٢]، أو كتاب روبرت بكمان «هل بإمكاننا أن نكون صالحين بدون الله؟»[٣]، أو كتاب مارك هاوزر «عقول أخلاقية»[٤]. وهي جميعاً تتبنى تصوراً داروينياً في تفسير الظاهرة الأخلاقية، وهي وإن لم تصرح بشكل مكشوف تكاد أن تقول أنه لا وجود لشيء اسمه قيم أخلاقية مطلقة، وهذا ما

---

(١) The science of good and evil.

(٢) Why is good good?

(٣) Can we ve good without God?

(٤) Moral Minds.

ينبغي أن يكون فعلاً إذ الانطلاق من التصور الدارويني في معالجة السؤال الأخلاقي لازمه الضروري القول بأنه ليس للأخلاق وجود قيمي حقيقي مطلق، وإنما هي كالإنسان قابلة للتطور والانحدار بحسب مسارات تطور الكائنات، والشعور الإنساني بها وليد الصدفة فقط دون أن يكون لها قيمةٌ ذاتيةٌ حقيقية.

فإذا تنزلنا بعد ذلك إلى بحث قضية تحرير المعايير التي في ضوئها يمكن تمييز القيم الخلقية الحسنة والقبيحة، وتحديد أدوات التوصل إلى معرفتها، فسنجد بين الملاحدة اختلافاً كبيراً، فبينما يحاول هارس أن يجعل من العلم الطبيعي مصدراً للتعرف على القيم الأخلاقية، يقول دوكنز: (العلم الطبيعي ليس لديه طرق للحكم على ما هو أخلاقي. إن هذه مسألة متروكة للأفراد والمجتمع)[١]. بل يذهب إلى ما هو أبعد من هذا مصرحاً بالتالي: (ليست جميع الأحكام المطلقة مستمدة من الدين. ولكن من الصعب جداً الدفاع عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين)[٢].

ودعنا نستمر مع دوكنز قليلاً حول هذه المسألة إذ هو بخلاف غيره من رواد هذه الظاهرة يبدي قدراً من الوضوح والجرأة في التعبير عن الإشكالات التي تعصف بالخطاب الإلحادي حيال هذا الملف، فهو يعترف في أحد حواراته بصعوبات هذه القضية بشكل صادم، فيقول: (ما الذي يمنعنا من القول بأن هتلر كان على صواب؟ أعني هذا سؤال صعب فعلاً)[٣].

وفي حوار آخر يقول: (لا أستطيع في النهاية أن أجادل فكرياً ضد شخص فعل فعلاً أعتقد أنه شنيع. أظن أنني في النهاية سأقول له: (حسناً، في هذا المجتمع لن تستطيع الفرار بهذا الصنيع) وسأتصل بالشرطة. أدرك أن مثل هذا الجواب ضعيف، وقد قلتُ بأني لا أشعر بأني مجهز بأدوات إنتاج

---

(١) (Science has no methods for deciding what is ethical. That is a matter for individuals and for society). A Devil's Chaplain 34

(٢) (Not all absolutism is derived from religion. Nevertheless, it is pretty hard to defend absolutist morals on grounds other than religious ones). The God Delusion 232.

(٣) (What's to prevent us from saying Hitler wasn't right? I mean, that is a genuinely difficult question). ?http://byfaithonline.com/Richard-dawkins-the-oatheist-evangelist

حجج للجانب الأخلاقي على النحو الذي أستطيعه في مجال علوم الكون أو البيولوجيا، لكنني لا زلت أعتقد بأنها قضية منفصلة عن الإيمان بالحقائق الكونية)[١].

بل ذهب في حوار آخر إلى مسألة أبعد من هذا، فقد سئل السؤال التالي: (في النهاية، اعتقادك أن الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي تماماً كواقع أننا تطورنا بخمسة أصابع بدل ستة)، فقال مجيباً بشكل واضح تماماً: (نعم تستطيع قول ذلك)[٢].

ويقول في أحد حواراته موضحاً هذه المسألة بشكل أكثر تفصيلاً: (تطورت لنا عقول بالصدفة لديها القوة الكافية للنظر في المستقبل وتقييم العواقب البعيدة. ولذا أستطيع ملاحظة أن صرف حياتي كلها لإشباع نزوات أنانية يمكن أن يجعلني أقل سعادة على المدى البعيد بخلاف فعل شيء آخر كمساعدة الأخرين مثلاً. إذا قبضت عليّ وأنا أعطي المال لأكسفام[٣] وقلت لي: (لماذا تفعل هذا) ولم أستطع الجواب، فلا يعني هذا بالنسبة لي أنني خنت بأي وجه من الوجوه تصوري عن الكون وأنه بلا إلٰه)[٤].

وبالعموم فدوكنز هو صاحب العبارة الشهيرة: (الكون كما نشاهده يتمتع بالخصائص التي نتوقعها تماماً إن كان في حقيقته بل تصميم، بلا غاية، بلا

---

(١) (I couldn't, ultimately, argue intellectually against somebody who did something I found obnoxious. I think I could finally only say, "Well, in this society you can't get away with it" and call the police. I realise this is very weak, and I've said I don't feel equipped to produce moral arguments in the way I feel equipped to produce arguments of a cosmological and biological kind. But I still think it's a separate issue from beliefs in cosmic truths).
the simple Answer-with Nick Pollard.

(٢) Justin Brierley: "Ultimately, your belief that rape is wrong is as arbitrary as the fact that we've evolved five fingers rather than six.
Richard Dawkins: "You could say that, yeah." (From an interview with Justin Brierley of 'Unbelievable).

(٣) وهي منظمة عالمية غير ربحية، مهتمة بإيجاد الحلول لمشكلة الفقر وما يتصل بها.

(٤) (Well, one way to understand it is that, by accident, we have evolved a brain which is powerful enough to be able to look into the future and evaluate distant consequences. So, I can see that to spend my whole life satisfying selfish whims might make me less happy in the long run than if I spend it doing something else like helping other people).
(If you catch me giving money to Oxfam and you say, "Why are you doing that?" and I can't answer you, it doesn't seem to me that I have in any way betrayed my belief in a godless cosmos). the simple Answer-with Nick Pollard

شر ولا خير، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية)[1].

المشكلة أن دوكنز مع كل هذه التصريحات التي تدل على هشاشة النظرية الأخلاقية التي يتبناها وانعدام الأصول التي تتأسس عليها مسألة وجود هذه القيم. فإنه يستسهل رمي الآخرين بالانحراف الخلقي، ووصف ما لا يرتضيه من الأفعال بأنها لا أخلاقية، بل يصف الدين بأنه شر، وأن الإسلام هو أعظم قوى الشر في عالمنا اليوم، مع أنه من المفترض في ضوء تصوره المذكور عن الكون أن لا يكون هناك شر ولا خير أصلاً.

هذا جانب مختصر من الإشكاليات النظرية المتعلقة بالفلسفة الأخلاقية في التصور الإلحادي. أما إذا دخلنا في تفاصيل التصور الأخلاقي عند الملاحدة على مستوى التطبيق والممارسة فستظهر إشكاليات أخرى حقيقية.



ففي مناظرة لورنس كراوس مع حمزة تزورتزس والتي عقدت في بريطانيا تحت عنوان «الإسلام أو الإلحاد، أيهما أكثر منطقية؟» سئل لورنس عن سبب كون زنا المحارم خطأ، وضجت القاعة حين سمعت جواب كراوس قائلاً: (لا يظهر لي أنه خطأ)، موضحاً بعد ذلك بأن كون هذا الفعل من التابوهات مبررٌ في مسيرة التطور البشري لما يولده التزاوج بين الأقارب من أمراض وراثية على الأولاد، فتطورنا مستهجنين لهذه الممارسة، أما الفعل في حد ذاته، فيصعب عليه أن يجد له مبرراً أخلاقياً يمنعه، مؤكداً أنه لا يرى مشكلةً من ممارسة الجنس بين الأخ وأخته إذا كان كل واحد منهما يحب الآخر، وكان ذلك لمرة واحدة مثلاً، ومع ضمانات أن لا يكون هناك حمل.

---

(١) The universe we observe has precisely the properties we should expect if there is, at bottom, no design, no purpose, no evil and no good, nothing but blind, pitiless indifference.
River Out of Eden 131-132.

وأبلغ من هذا ما صرح به الملحد بيتر سينغر بأنه لا يرى مشكلة في ممارسة الجنس مع الحيوانات بشرط عدم انتهاك حق الحيوان، وذلك في أحد الحوارات الجماعية والتي لم تخلوا بطبيعة الحال من قدر عال من الاستهجان والاستنكار[١]. وقريب من هذا ما جرى في أحد مناظرات كريستوفر هيتشنز مع وليم لين كريغ تحت عنوان «هل الله موجود؟» حيث سئل هيتشنز عن هذه القضية فلم يُجب بصراحته المعهودة، وإنما قدم جواباً مائعاً، وأبدى قدراً من التهرب مرتين عن الجواب على هذا السؤال بصراحة[٢].

وفي منتدى التوحيد موضوع للكاتب (محمد الباحث) بعنوان «فضائح إلحادية وأخلاق داروينية إجرامية (متجدد)»[٣] ذكر فيه الكاتب عدداً كبيراً التقريرات اللاأخلاقية والممارسات المنحرفة عند بعض الملاحدة.

وكما سبق فالذي يزيد من إشكالية هذه التقريرات النظرية تلك الحماسة الكبيرة في التعبير عن رؤاهم الأخلاقية ونقد الرؤى الأخلاقية المخالفة لهم بما يوحي للمتلقي أنهم يؤمنون بقيم أخلاقية كونية مطلقة، يجب على الجميع الالتزام بها، لكنهم عاجزون تماماً عن إيجاد مبرر عقلاني أو علمي لوجود تلك القيم الأخلاقية المطلقة في نفس الأمر.

ولعلي أختم هذه الفقرة بمثال يعبر عن الحماسة الأخلاقية الكبيرة عند الملاحدة في إدارة بعض القضايا. يقرر ريتشارد دوكنز أن التربية الدينية للأطفال يعد نوعاً من أنواع الانتهاك لحقوقهم، وأن مجرد إخبارهم بأن الله خلق العالم، هو استغلال لبراءة الطفولة بطريقة بشعة، ويعد أن تركهم بلا تلقين ديني هو أحد وصاياه العشر التي يوصي بها في كتابه «وهم الإله»[٤]،

---

(١) http://www.youtube.com/watch?v=w-cwNg1amRk

(٢) http://www.youtube.com/watch?v=FofDChlSILU

(٣) http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?
فضائح إلحادية وإخلاق داروينية إجرامية (متجدد).

(٤) (Do not indoctrinate your children. Teach them how to think for themselves, how to evaluate evidence, and how to disagree with you) the God delusion 264.

حيث يقول: (القول بأنه ينبغي أن يكون الناس أحراراً فيما يعتقدون شيء، ولكن هل ينبغي أن يكونوا أحراراً في فرض معتقداتهم على أطفالهم؟ هل ثمة شيء ينبغي أن يقال عن تدخل المجتمع في مثل هذا؟ ماذا عن تربية الأطفال للإيمان بالأكاذيب الواضحة)[١].

وقد أخذت هذه القضية جزءاً لا بأس به من كتابه هذا، بل عقد لها فصلاً مستقلاً، ومما جاء فيه: (سئلت مرة في وقت الأسئلة بعد محاضرة لي بدبلن عن رأيي في قضايا الاعتداء الجنسي والتي انتشر خبرها على نحو واسع من قبل قساوسة كاثوليك بإيرلندا. فكان جوابي، لا شك أن هذا أمر فظيع، لكن يمكن المجادلة أن الضرر أقل من الضرر النفسي طويل المدى والذي يتسبب فيه تربية الطفل على الكاثوليكية ابتداءً. كان تعليقاً مرتجلاً قلته في خضم تلك اللحظة، وتفاجأت أنها حظيت بتصفيق حار من جمهور إيرلندي). ثم ذكر قصة رسالة جاءته من إحدى النساء تم الاعتداء عليها جنسياً في طفولتها وأن الضرر النفسي الذي لحقها أقل بكثير من الضرر النفسي الذي ولده اعتقادها أن أحد صديقاتها سيكون مصيرها إلى النار لأنها من البروتستانت[٢]. وهذه النظرة حاضرة كذلك عند بقية الملاحدة الجدد سام

---

(١) (It's one thing to say people should be free to believe whatever they like, but should they be free to impose their beliefs on their children? Is there something to be said for society stepping in? What about bringing up children to believe manifest falsehoods?) The Church of the Non-Believers, by Gary Wolf.

(٢) (Once, in the question time after a lecture in Dublin, I was asked what I thought about the widely publicized cases of sexual abuse by Catholic priests in Ireland. I replied that, horrible as sexual abuse no doubt was, the damage was arguably less than the long-term psychological damage inflicted by bringing the child up Catholic in the first place. It was an off-the-cuff remark made in the heat of the moment, and I was surprised that it earned a round of enthusiastic applause from that Irish audience (composed, admittedly, of Dublin intellectuals and presumably not representative of the country at large). But I was reminded of the incident later when I received a letter from an American woman in her forties who had been brought up Roman Catholic. At the age of seven, she told me, two nt things had happened to her. She was sexually abused by her parish priest in his car. And, around the same time, a little schoolfriend of hers, who had tragically died, went to hell because she was a Protestant. Or so my corres ndent had been led to believe by the then official doctrine of her parents' church. Her view as a mature adult was that, of these two examples of Roman Catholic child abuse, the one physical and the other mental, the second was by far the worst. She wrote:
Being fondled by the priest simply left the impression (from the mind of a 7 year old) as 'yucky' while the 318 THE G O D D E L U S I O N memory of my friend going to hell was one of cold, immeasurable fear. I never lost sleep because of the priest-but I spent many a night being terrified that the people I loved would go to Hell. It gave me nightmares). the God delusion 317.

هارس وكريستوفر هيتشنز ودانيل دينيت ولورنس كراوس وغيرهم.

والذي يثير الاستغراب فعلاً لماذا يسكت دوكنز عما يجب أن يُفعل اتجاه هذه القضية من قِبل المجتمع والدولة، ولماذا لا يدعو صراحةً إلى اتخاذ إجراءات شديدة الحسم هنا كالسجن أو فرض الغرامات أو الملاحقة لكل من يربي أولاده على الإيمان بالله، خصوصاً وأنه يتحدث بلغة صريحة عن انتهاك لحق الطفولة، وعن ضرر يلحقه الوالدان والمجتمع بالأطفال أبلغ من ضرر الاعتداء الجنسي عليهم.

إن بث مثل هذه الأفكار ونشرها بهذه الحماسة هو الذي يفسر بالنسبة لي ما قامت به بعض الدول الإلحادية الفاشية حين كانت اليد العليا لهم، وكانوا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً حيال شرور الدين، وهو ما يجعلني أتخوف فعلاً من انتقال مثل هذه الأفكار لطائفة لا ترى الاكتفاء فقط بالصوت المرتفع والكلام العالي بل ترى ضرورة الحراك والفعل لضرب التيارت الدينية، ولنرى مليشيات فعلية تتحرك على الأرض لتطهيرها بالقوة من الدين، ومن أعظم الشرور في هذا العالم ـ الإسلام حسب زعمهم ـ![١].

الإلحاد وسؤال الإرادة الحرة:



من الملاحظات التي يمكن رصدها في كثير من الكتابات الإلحادية الحديثة أنها تتبنى رؤيةً جبريةً مغاليةً في تفسير وقوع الأفعال الإنسانية، ففكرة الإرادة الحرة وهم، والإنسان في حقيقته مجبور على أفعاله وإن أحس أنه مختار لها، أو كما عبر بعض الجبرية في الكتابة التراثية: الإنسان مجبور في صورة مختار.

يقول سام هارس في كتيبه المخصص لهذا الموضوع «الإرادة الحرة»:

---

(١) انظر آخر كتاب «الجواب عن الملاحدة الجدد» 143 (Answering the New Atheism)! في الفصل المعنون (الملك ريتشارد).

(اختياراتي مهمة، وهناك طرق لاتخاذ قرارات أكثر حكمة، لكني لا أستطيع أن أختار ما أريد اختياره. وإذا ظهر أنني قادر على ذلك كالعودة مثلاً للوراء لاتخاذ أحد قرارين فإنني لا أختار ما أختار أن أختاره، إنه تسلسل يفضي بنا دوماً للظلام)[١]، ويكفي لمعرفة موقفه الصريح جداً من هذه القضية ـ وهو موقف يلقى ترحاباً في أوساط إلحادية متعددة، بل ومن يبدي قدراً من التوقف في المسألة يراها المنسجمة مع الرؤية المادية للكون ـ قوله في أول كتابه «الإرادة الحرة»: (الإرادة الحرة وهم)[٢]، بل يقول: (في الحقيقة الإرادة الحرة أكثر من مجرد وهم (أو أقل)[٣]. إذ هي لا تبدو متماسكةً نظرياً).

وقد عالج (مايكل شرمر) أيضاً مسألة الإرادة الحرة في كتابه (علم الخير والشر) في فصل خاص، قال في آخره بعد أن تحدث عن حجم تعقيد المؤثرات والعوامل التي تدفع الإنسان باتجاه اتخاذ قرار ما: (حجم تعقيدات العوامل والمحددات التي تتسبب في إحداث اختياراتنا، تقودنا إلى الشعور وكأننا نمارس أفعالنا بحرية ككائنات متسببة في أفعالها دون أن تكون مسببة[٤]، مع أننا في الحقيقة محددي الأفعال سببياً. وبما أنه ليس بالإمكان تحديد قائمة كاملة بالأسباب التي تحدد الفعل الإنساني، فإن الشعور بالحرية ينشأ بسبب جهلنا بالأسباب. إلى هذا الحد فإنه بإمكاننا أن نعمل وكأن لدينا حرية فعلاً)[٥]. وهو كلام صريح بأن الحرية مجرد وهم، وأنه حين تصدر أفعالنا نشعر وكأن لدينا حرية فعلاً وإن لم نكن أحراراً فعلاً.

---

(١) (My choices matter-and there are paths towards making wiser ones-but I cannot choose what I choose. And if it ever appears that I do-for instance, after going back between two options-I do not choose to choose what I choose. There is a regress here that always ends in darkness) Free will 39,

(٢) (free will is an illusion). Free will 5.

(٣) يقصد أن الأمر أسوأ من كونه مجرد وهم بل هو أقل شأناً من أن يسمى وهماً إذ أنه لا يبدو متعقلاً حتى أو متماسكاً من الناحية النظرية.

(٤) أي: الكائنات.

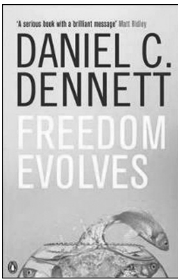
(٥) (The enormity of this complexity leads us to feel as if we are acting freely as uncaused causers, even though we are actually causally determined. Since no set of causes we select as the determiners of human action can be complete, the feeling of freedom arises of the ignorance of cause. To that extent we may act as if we are free). The Science of Good and Evil 137.

وفي الجزء الأخير من المناظرة الثلاثية بين (لورنس كراوس) و(وليم لين كريغ) تم طرح سؤال الإرادة الحرة فكان تهرب لورنس من تقديم جواب واضح واضحاً تماماً، وإن تسربت منه وبصعوبة بعض الأفكار المشابهة لما طرحه مايكل شرمر في الاقتباس الماضي، بما يوحي أنه متفق في الحقيقة مع هذه الرؤية الجبرية، مع شعور بقدر من الحرج من التصريح بها.

أما كريستوفر هيتشنز فله جواب طريف على السؤال ولكنه معبر عن رؤيته، إذ يقول في جواب سؤال: هل لديك إرادة حرة؟ (ليس لدي اختيار آخر).

وقد عبر دوكنز عن تردده في مسألة الإرادة الحرة في مناظرته مع كبير أساقفة كانتربري روان وليم، ولكنه كان أكثر جرأة في حواره المسرحي مع لورنس كراوس والذي أبدى فيه أن نظرته المادية للكون تحمله على الميل بأنه ليس ثمة شيء اسمه إرادة حرة، لكنه أكد على أنه لم يُعمل ذهنه كثيراً في هذه القضية.

وبالعموم فدوكنز له عبارة شهيرة موحية في كتابه «نهر خارج من عدن» يقول فيها: (الشفرة الوراثية لا تكترث ولا تدري، إنها كذلك فقط، ونحن نرقص وفق أنغامها)[1]، فالمحرك للإنسان هي الجينة الأنانية التي تتطلب البقاء، ونحن ليس في وسعنا إلا الرقص وفق إيقاعها وأنغامها.



أما دانيل دينيت فله كتاب «تطور الحرية» قدم فيه رؤيته حيال هذه القضية، وهي رؤية مخالفة لرؤية هارس المتطرفة في إلغاء مفهوم حرية الإرادة بالكلية، وهي رؤية تم التعارف عليها في المجال الفلسفي بـ(التوافقية) (compatibilism) وهي خيار وسيط بين الإرادة الحرة والجبرية المحضة، تعتقد أن بالإمكان الجمع بينهما دون تعارض، وهي رؤية تؤول في تقييمي إلى نوع من الجبرية الناعمة، أكثر من كونها تقول بإثبات إرادة حرة حقيقية. وبالمناسبة فقد قدم سام هارس نظرة نقدية لها في كتابه «الإرادة

---

(١) (DNA neither cares nor knows. DNA just is. And we dance to its music). River Out of Eden 133.

الحرة» وعبر بصراحةٍ عن مخالفته الشديدة لدانيل دينيت وفكرة التوافقية.

وما من شك أن النظرة المادية المحضة للوجود والحياة يمكن أن تفرز مثل هذا التصور حيال الإرادة الإنسانية، فالكون بكل ما فيه محكوم بقوانين مادية صارمة، والإنسان بعواطفه ومشاعره وكيانه كله لا يستطيع الخروج عن قبضتها، بل اختياراته وإرادته ليست إلا تفاعل كيميائي محكوم في الدماغ، فلئن توهم أنه صاحب الاختيار، فالاختيار مضبوط سلفاً في ضوء ذلك التفاعل.

وآثار وتداعيات مثل هذا التصور الجبري للإرادة الإنسانية كثيرة وخطيرة لما ترفعه من إشكالات أخلاقية، وأسئلة حول المسؤولية الفردية. فإذا كان المجرم مجبوراً على ما فعل فما هو المبرر الأخلاقي لمعاقبته، وإذا كان المحسن مجبوراً على إحسانه فما هو المبرر لمكافأته وشكره والثناء عليه. وما هو المبرر للامتعاض من وجود الشرور البشرية والكل عبارة عن روبوتات مبرمجة لتؤدي أعمالاً محددة، لا تستطيع الانفكاك عنها.

بل ما هو مبرر الملحد في ضوء هذا التصور الجبري للدعوة والتبشير لإلحاده، فالمؤمن مجبور على إيمانه والملحد مجبور على إلحاده، فلما هذه الحماسة للدعوة للإلحاد وليس ثمة إرادة حقيقية يستطيع الإنسان أن يختار من خلالها.

والغريب فعلاً هذا الحرص الشديد على إلغاء وهم الإله من الوجود، والتبشير بالمضامين الإلحادية هنا، والفتور الدعوي وخفوت الحماسة لإزالة الوهم الآخر ـ وهم حرية الإرادة البشرية ـ من حياة الناس وعقولهم.

الإلحاد وسؤال المعرفة العقلية الضرورية:

من القضايا اللافتة للنظر عند بعض الملاحدة الجدد رفضهم الصريح للمبادئ العقلية الأولية، وهو موقف يكرره (لورنس كراوس) مثلاً في كثير من حواراته ومناظراته، حيث يؤكد على بدائية التفكير البشري الإنساني، وأن الداروينية قد طورت لنا عقولاً للتفاعل مع مخاطر السافانا، لكنها عقول لا

يلزم أن تكون قادرة على التعرف على طبيعة هذا الكون، وحقائق الوجود، وبالتالي فالواجب التعرف على العالم من خلال العالم فقط، عبر الملاحظة والتجربة، دون تعويل مطلقاً على مبادئ عقلية، وأن علينا قبول ما نتوصل إليه عن طريق الملاحظة وفق المنهج العلمي مهما بداً غريباً بل ومتناقضاً مع معارفنا العقلية الضرورية، يقول هذا في سياق التبرير لفكرة كتابه «كون من لا شيء» والتي تقوم على أن الكون وإن كان ناشئاً من العدم فبإمكانه أن يحدث نفسه بنفسه وفق قوانين الفيزياء، وهذا الكلام مع ذاك التأصيل في غاية الإشكال، وهو يجر إلى مشكلات معرفية في غاية الخطورة، إذ اطراح المبادئ العقلية الأولية مفضٍ في الحقيقة إلى اطراح الثقة في أدوات الرصد والملاحظة، بل وإسقاط الثقة في المنهج العلمي ذاته والذي يُراد أن يكون هو الطريق الأوحد للمعرفة وفق النظرة العلموية المغالية، إذ المنهج العلمي مؤسس على مقولات لا يمكن البرهنة عليها من خلال المنهج العلمي ذاته وإلا لزم الدور، فالقول بأن المعرفة لا يمكن تأسيسها إلا على المعارف الطبيعية قول متناقض، لا ينبغي أن يكون مقبولاً عند العقلاء، ولكن ماذا تصنع إن كان مثل هذا الاعتراض موجهاً إلى من يتنكر للمبادئ العقلية الأولية وهو كما ترى اعتراض منطلق منها، وكيف يمكن أن يكون مقنعاً لمن لا يجد إشكالاً كبيراً في قبول أن العالم أحدث نفسه بنفسه، ومتى ما تقبل المرء مثل هذا فما المانع فعلاً من أن يقول ثبت صحة المنهج العلمي بالمنهج العلمي نفسه، وما من شك أن طرد مثل هذا التصور مفضٍ إلى لون من السفسطة والتي وقع ضحيتها فعلاً بعض الملاحدة.

كنت مرة في نقاش مع مجموعة من الشباب المتأثرين بالمقولات الإلحادية، وأفضى بنا النقاش إلى بعض المناطق الجدلية الغريبة، فرأيت من الضروري إعادة ترتيب النقاش ليكون الكلام منطلقاً من أرضية مشتركة. أخذت أتكلم عن مصادر المعرفة البشرية وأنها تعود إجمالاً إلى أصول ثلاثة: ١. الحس. ٢. العقل. ٣. الخبر. وكانت مفاجأتي عظيمة حين عرفتُ من خلال النقاش أن المعول في المعرفة عندهم على القضايا الحسية دون القضايا العقلية

النظرية والضرورية. أحببت التأكد من طبيعة المشكلة، وأخذت أورد لهم جملة من التساؤلات لأستوثق من قناعتهم بهذه المسألة وطردهم لمثل هذا الأصل، فكان مما قلت: من المبادئ العقلية الأولية أن الجزء أصغر من الكل، فإذا كان لدينا برتقالة مثلاً وقسمناها إلى أربعة أرباع، فربع البرتقالة أصغر أم تساوي أم أكبر من مجموع البرتقالة؟ صُدمت حين قالوا: لا نستطيع أن نعرف حتى نشاهد هذه البرتقالة. قُلت لهم: لدي في المنزل كتاباً بعنوان «مجموع فتاوى ابن تيمية» يتألف من ٣٧ مجلداً، المجلد الأول من مجموع الفتاوى أصغر أم مساوي أم أكبر من مجموع الكتاب كله وبالمجلد الأول؟ فقالوا: لا ندري حتى نزورك في البيت ونراه. كانت أمامنا دلة قهوة، فقلت لأحدهم: ارفع الدلة، فرفعها، فقلت: فهل تستطيع أن ترفع الفنجان وهو الأخف بناءً على علمك بأنك قادر على رفع الأثقل، وأكدت له بأنني لا أتحدث عن طروء أمر خارجي، بل لحظة رفعك للأثقل هل تعلم من نفسك أنك في ذات الظرف قادر على رفع الأخف؟ مد يده لرفع الفنجان، فقلت: لا أريد منك أن تجرب، فقال: لا أستطيع أن أدرك الجواب حتى أجرب. ختمت أسئلتي يومها بقولي لأحدهم: هل أنت موجود أم معدوم؟ فقال: بل موجود، فقلت: فهل يمكن أن يثبت العلم في مستقبل الأيام أنك معدوم؟ فقال: ممكن. وختم يومها النقاش. وللإنصاف كان ثمة في تلك المجموعة من لم يرتض هذا التنكر للمبادئ العقلية الأولية، ورأى في هذا التنطير قطعاً لطريق الحوار، ولكن أصحابه كانوا على خلاف رأيه.

والحق أن بعضاً مما طرحوه لم يكن ناشئاً عن تعنت أو طلباً للمكابرة بل عن مقولات علمية ـ خصوصاً في مجال فيزياء الكم ـ أوهمتهم أنه لا سبيل إلى الجمع بين المقولات العقلية والمقولات العملية. ومن قرأ في مجال فيزياء الكم يعرف فعلاً حجم الغموض الذي يكتنف هذا العلم والصعوبة الشديدة التي يعانيها العقل البشري في استيعاب كثير من مقولاته، يقول جون ويلر مثلاً: (إذا لم تكن محتاراً من ميكانيكا الكم فإنك لم تفهمها)، ويقول روجر بينروس: (ميكانيكا الكم لا معنى لها إطلاقاً)، ويقول ريتشارد فينمان: (يمكن الادعاء بأمان أن لا أحد يفهم فيزياء الكم).

وقد اكتشفت بعد تلك التجربة الحوارية أن هذه إشكالية حقيقية موجودة عند كثير من الملاحدة، وأن ثمة قدراً من العجز عن التوفيق بين البابين أفضى إلى نتائج في غاية الخطورة، يقول ستيفن هوكنج في كتابه «التصميم العظيم»: والذي ألفة بالمشاركة مع (ليونارد ملودنو): (بالتأكيد؛ ككثير من المفاهيم العلمية الحديثة، والتي تبدو مخالفةً للمنطق السليم. ولكن المنطق السليم مبني على تجاربنا اليومية، وليس على طبيعة الكون والذي يكشف عن نفسه من خلال عجائب التكنولوجيا كتلك التي تسمح لنا بالنظر عميقاً في الذرة، أو للبدايات المبكرة لهذا الكون)[١].

المشكلة في هذا الكلام هذا الإجمال في فكرة (المنطق السليم) فهل المقصود التنكر للمبادئ العقلية الأولية، أم مجرد مخالفة (المستحيلات العادية)؟ فالإنسان قد يحكم خطأً على أمر بأنه مستحيل بمقتضى العادة ثم ينكشف له أنه ليس مستحيلاً في نفس الأمر، ولكن ثمة حزمة من المبادئ الضرورية الفطرية التي تبدو متعالية على وجود الإنسان ذاته، ومثل هذه الضروريات غير مستفادة من مجرد التجربة الإنسانية، ولذا فمن الخطأ التنكر (للمستحيلات العقلية) وهي في الحقيقة كل ما يؤول إلى الجمع بين النقيضين؛ كوجود دائرة مربعة، أو جسم متحرك ساكن، أو شيء لا معدوم ولا موجود... إلخ. فليست مثل هذه الصور من قبيل المستحيلات بحكم العادة، وأن إدراكنا لكونها كذلك لمجرد خبرتنا وتجربتنا، بل هي مستحيلات عقلية لا يتصور وجودها مطلقاً في الخارج. ومما يوضح الإشكال الذي في عبارة هوكنج الماضية ما جاء في ذات الكتاب في ص٩٣، تقول الفقرة: (قد تبدو الفيزياء الكمية وكأنها تقوض فكرة أن الطبيعة محكومة بقوانين، ولكن هذا ليس هو الحال)[٢]. فإذا كانت تبدو كذلك فلما لا يكون الأمر كذلك فعلاً؟

---

(١) (Indeed, like many notions in today's science, it appears to violate common sense. But common sense is based upon everyday experience, not upon the universe as it is revealed through the marvels of technologies such as those that allow us to gaze deep into the atom or back to the early universe). The Grand Design 15.

(٢) (Quantum physics might seem to undermine the idea that nature is governed by laws, but that is not the case). The Grand Design 93.

والسبب أن ما قد يبدو موهماً للتناقض يُرجع فيه إلى مبادئ ومقولات أخرى لمحاولة إزالة إشكال التناقض، ومن تلك المبادئ المبادئ العقلية الضرورية.

والحق أن ما يتعلق بفيزياء الكم وتداعياته العلمية والعقدية مجال دراسي مهم، وهو يستدعي تضافراً لجهود المختصين بهذا المجال لتوضيح حقيقة تلك المقولات الفيزيائية وجهود الشرعيين للجواب عما قد تفرزه تلك المقولات من تصورات.

والشيء بالشيء يذكر ففي مناظرة الدكتور عمرو شريف لبسام البغدادي على شاشة قناة مصر٢٥ والتي أدارها المهندس فاضل سليمان، جاءت اللقطة التالية، والتي تعبر عن ذات المأزق الاستدلالي، قال المهندس فاضل مخاطباً بسام وقد رفع كأساً في يده: (الكأس الذي أمامك أليس وجوده دليلاً على وجود صانع صنع هذه الكأس؟)، فكان جواب بسام كالتالي: (هذا الكأس نعرف أنه موجود ونعرف المصنع الذي صنعه، هذا الكون الذي نحن فيه هل رأيت الذي صنعه، هل رأيت أكوان أخرى تقارنها به؟)، وكأن إدراكنا بأن الكأس مصنوع متوقف على معرفة المصنع الذي صنعه، فلو أننا بحثنا في الواقع عن المصنع الذي صنع تلك الكأس، وعجزنا عن الوصول إليه، فهل يمكن أن يقال أنه من المحتمل أن لا يكون الكأس مصنوعاً، وأنه لا صانع له؟ وقد أحسن المهندس فاضل حين لاحظ هذه الإشكالية التي تضمنها جواب بسام فقال مستدركاً عليه: (لا بس إنت كذا لم تفهم سؤالي، أنا أقول لك يا أخ بسام إذا لم تعرف المصنع الذي صنعه، أليس هذا الكأس في وجوده دليل على أن له صانع؟) فقال بسام بكل وضوح وصراحة: (لا طبعاً)![1] وهو ما يكشف عن حجم التباين الشديد بين نمط الاستدلال في مبحث الإلهيات بين الملاحدة والمتدينين.

والحقيقة أن مشكلة الملاحدة مع المبادئ العقلية الأولية ترجع في جزء رئيسي منها إلى نظرتهم المادية الداروينية لوجودنا، إذ من الأسئلة التي تفرضها

---

(١) الحلقة الثالثة من المناظرة والمنشورة على اليوتيوب، والكلام المذكور يبتدئ من الدقيقة ١١ تقريباً.

الداروينية بخصوص ملكاتنا العقلية: هل طورت لنا الطبيعة عقولاً قادرة على الوصول إلى الحقائق أم أنها طورت العقل ليحقق لنا العيش والبقاء، بغض النظر عن طبيعة الأشياء في نفسها؟ وهل من الممكن أن توهمنا عقولنا بأمر ما وتجعله كالضروري بالنسبة لنا ليتحقق لنا العيش والبقاء وإن كان الأمر وهماً وباطلاً في الحقيقة؟ هذه إحدى الإشكاليات العميقة التي تمثلها الداروينية، والتي تتولد عنها مشكلات عريضة في الخطاب الإلحادي حيال ملفات متعددة كفطرية الإيمان بالله، وتطلب التدين، والحس الأخلاقي، والشعور بالإرادة الحرة وغيرها، إذ تُفَسَّر هذه جميعاً بتفسيرات داروينية تقوم على البحث عن الفائدة المعيشية التي تتحقق بسبب وجود مثل هذه الأمور في النفس، أو التفتيش بما يمكن أن يكون متسبباً في وجودها إن لم تكن هذه الأمور مقصودة أصالةً ولا هي المؤثرة في استبقاء الحياة بل هي من قبيل المنتج الثانوي والعرضي لأمر آخر هو الذي استبقاه الانتخاب الطبيعي لتحقيق العيش والبقاء للجنس البشري. والعقل ليس بدعاً من هذا فالطبيعة بحسب التصور الدارويني طورت عقولاً تحقق لنا البقاء، أما كون هذه العقول قادرة على التعرف على الحقائق فهو منتج ثانوي إن كان موجوداً وإلا فبالإمكان تقدير أن تضللنا عقولنا لأجل تحقيق البقاء. هذه الإشكالية العميقة كانت حاضرةً حتى عند دارون نفسه والذي عبر عن حيرته وانزعاجه من هذه القضية حيث قال: (ينتابني دائماً شك فظيع حول ما إذا كانت قناعات عقل الإنسان، والذي بدوره تطور من عقول كائنات أدنى، تتمتع بأي قيمة أو تستحق أدنى ثقة)[١].

وقد ولدت حالة الرفض لمثل هذه الضروريات العقلية أو التقليل من شأنها والتي تتجلى بشكل صريح أحياناً، وبشكل أكثر تحفظاً في أحايين أخر، تهويناً شديداً من المجال الفلسفي بشكل عام، وعملية الاشتغال بالنظر العقلي سواءً كان محكوماً بالإطار الديني أو غير محكوم.

---

(١) (But then with me the horrid doubt always arises whether the convictions of man's mind, which has been developed from the mind of the lower animals, are of any value or at all trustworthy). Darwin Correspondence Project.

ولذا فقد أعلنوا في مناسبات متعددة عن موت الفلسفة وانتهائها وعن عدم جدواها وفائدتها، فمن المقولات الشهيرة عبارة هوكنج في أول كتاب «التصميم العظيم»: (الفلسفة ماتت)[1]، (وأن علماء الطبيعة باتوا هم حملة شعلة الاكتشاف في رحلتنا نحو المعرفة)[2]، ويقول بي زي مايرز: (الكثير من الفلسفة سيدمرك)[3]. ويقول كراوس: (الفلسفة حقل يذكرني للأسف بالنكتة القديمة لوودي آلن: أولئك الذين لا يستطيعون أن يفعلوا، يدرِّسون، وأولئك الذين لا يستطيعون أن يدرِّسوا، يدرِّسون الرياضة)[4].

الغريب أن غالب الملاحدة الجدد مع نقدهم اللاذع للمجال الفلسفي فإن عندهم إشكالات حقيقية في فهم المقولات الفلسفية والدينية، وبالتالي الدخول في جدل فلسفي معمق حيال الأسئلة الوجودية الكبرى، والمناقشة الفاعلة مع ما تطرحه الخطابات الدينية في مثل هذه الملفات، وتقديم رؤى نقدية جادة تعبر عن تحقيق فهم صحيح لطبيعة تلك المقولات المنتقدة.

بل إنهم في خضم حماستهم (العلموية) المعادية للرؤية الفلسفية ينتجون مقولات في غاية الغرابة والتناقض، خذ مثلاً لورنس كراوس وكتابه (كون من لا شيء)، فهو يتحدث فيه عن قدرة الكون على إحداث نفسه من العدم، ويزعم أنه يريد بـ(العدم = لا شيء) لكنك سرعان ما تكتشف من خلال مطالعة الكتاب أن هذا (العدم) الذي يتكلم عنه هو في حقيقته فراغ كمي وهو (شيءٌ) وليس عدماً محضاً. وبالتالي يظل السؤال قائماً كيف وجد هذا الشيء؟! الأطرف أن دوكنز في أحد حواره مع الكاردينال (جورج بل) في البرنامج التلفزيوني الأسترالي Q&A حاول أن يشرح مفهوم (العدم) الذي تكلم عنه

---

(١) التصميم العظيم ص١٣.

(٢) التصميم العظيم ص١٣.

(٣) من محاضرته (العلم والإلحاد، حلفاء طبيعيون).

(٤) (Philosophy is a field that, unfortunately, reminds me of that old Woody Allen joke, "those that can't do, teach, and those that can't teach, teach gym). Has Physics Made Philosophy and Religion Obsolete?

لورنس كراوس فقال: (يمكنك أن تنازع في المراد (بلا شيء) لكن أياً ما كان فهو (شيء) بسيط) وهنا قام الجمهور بالضحك، وعبر دوكنز عن استيائه من ضحكهم فقال بانفعال: (لماذا يبدو هذا مضحكاً؟!)، فعلق الكاردينال: (أعتقد أنه من المضحك محاولة تعريف (لا شيء) واستمر الجمهور بالضحك. الغريب أن دوكنز في ذات اللقاء صرح بالتالي: (بالتأكيد أن حدوث شيء من لا شيء مضاد للبديهة، بالطبع المنطق السليم لا يسمح بحدوث شيء من لا شيء، ولهذا الأمر هو مشوق ومثير للانتباه، ويجب أن يكون مشوقاً ومثيراً للانتباه لأجل قدرته على إحداث الكون، يجب أن يكون ثمة شيء غامض هو الذي أخرج العالم إلى الوجود). ولكن يبدو أن حالة الخلط بين (الشيء واللاشيء) كبيرة بحيث ما عاد يلاحظ الإشكاليات التي يطرحها في كلامه. الغريب أنه وقبل هذا اللقاء وفي حواره المسرحي مع لورنس كراوس أظهر احتفاءه بكتابه وانبهاره بفكرة حدوث الكون من لا شيء بشكل حرفي حقيقي، بل له تقريظ في الكتاب للكتاب تضمن مقارنة عمله بعمل دارون، وأنه فتح في مجال الفيزياء من جنس الفتح الذي أحدثه دارون في مجال البيولوجيا.

وخذ مثلاً آخر لدوكنز من كتابه «وهم الإله» والذي يدل على عدم جديته في تفهم المقولات الفلسفية التي يطرحها الخطاب الديني، وعجزه عن مناقشتها مناقشة عقلانية جادة، أو الدخول في جدل فلسفي ناضج، أورد في أول الفصل المخصص لمناقشة حجج وجود الله، وهو الفصل الأهم في الكتاب ثلاث حجج مركزية كلها ترجع إلى معنى واحد، (المحرِّك غير المحرَّك، السبب غير المسبَّب، والدليل الكوني) وفكرتها باختصار أننا بحاجة إلى وجود الله لتفسير وجود الكائنات، إذ هي ممكنة الوجود معتمدة في وجودها على غيرها، فلو اعتمدت على موجودات ممكنة أخرى للزم التسلسل، إذ كل موجود ممكن سيكون مفتقراً في وجوده إلى ممكن وهكذا إلى ما لا بداية، فلزم أن يكون ثمة موجود واجب يقطع التسلسل، تكون

الموجودات الممكنة مفتقرة في وجودها إليه، وهو غير مفتقر في وجوده إلى غيره، فماذا قال دوكنز في مناقشة هذه الحجة المركزية؟

قال: (حتى لو سمحنا بمرور هذا الترف الاستدلالي المريب باستحضار اعتباطي لقاطع للتسلسل اللانهائي وإعطائه اسماً، لمجرد أننا بحاجة إليه، فليس ثمة دليل مطلقاً لوصف هذا القاطع للتسلسل بأي من الأوصاف التي عادةً ما يوصف بها الله؛ كالقدرة المطلقة، والعلم الكلي، والخيرية، وإبداع التصميم، فضلاً عن القول بأنه يسمع الدعوات، ويغفر الذنوب، ويعلم أفكارنا الخاصة جداً)[١]. ثم يستغرق في الحديث عن صفات الله تبارك وتعالى ومدى إمكانية اتصاف الله تعالى بها. وهذا عند التدقيق هروب من محل البحث، إلى بحث أجنبي تماماً، فمن استدل بهذه الحجة إنما استدل بها لإثبات وجود واجب الوجود لا إثبات صفات هذا الموجود، فالقفز على النقاط المركزية في الدليل وتجاوزها إلى بحث مسألة لم يدعها الخصم، ممارسة تنم عن عدم نزاهةٍ أو جهل بأصول الجدل والمناقشة العلمية الفلسفية.

وقد عبر كثير من المختصين في المجال الفلسفي عن إحباطهم الشديد من ضحالة المعالجة الفلسفية في كتاب «وهم الإله» سواءً كان أولئك المختصين متدينين أو ملاحدة.

فمثلاً يقول الفيلسوف (آلفن بلانتنغا) والذي وصفته مجلة «التايم» بأنه (الفيلسوف الأمريكي البروتستانتي الرائد في قضية الإله) في نقده لكتاب «وهم الإله» لدوكنز: (بالرغم من أن هذا الكتاب في الأساس كتاب فلسفي، فإن دوكنز ليس فيلسوفاً وإنما بيولوجي. ومع وضع هذا في الاعتبار فإن كثيراً من الفلسفة التي يعرضها هنا ضحلة في أحسن أحوالها. يمكنك القول بأن غزواته

---

(١) (Even if we allow the dubious luxury of arbitrarily conjuring up a terminator to an infinite regress and giving it a name, simply because we need one, there is absolutely no reason to endow that terminator with any of the properties normally ascribed to God: omnipotence, omniscience, goodness, creativity of design, to say nothing of such human attributes as listening to prayers, forgiving sins and reading inner most thoughts). The God Delusion 77.

الفلسفية في أحسن أحوالها بمستوى طالب (سافامور)[١]، ولكن هذا لن يكون عدلاً بالنسبة (للسافامور). في الحقيقة (وبعيداً عن تضخيم موضوع الصف) فإن كثيراً من حججه ستحصل على درجة رسوب في صف فلسفي لمرحلة (السافامور). فإذا أضيف إلى هذا العجرفة، ونغمة أنا أذكى منك الموجودة في الكتاب، فإن الأمر سيكون مزعجاً فعلاً)[٢].

أما الفيلسوف الملحد (توماس نايجل) البروفسور في جامعة نيويورك فيقول في الكتاب:

(الكتاب عبارة عن نقد ساخر غير مستقيم للدين، فلسفة هواة، قصص رعب تاريخية ومعاصرة، تخمينات أنثربولوجية، وحجج علمية كونية. يريد دوكنز أن يثني المؤمنين ويجرئ الملاحدة)[٣].

ويقول الفيلسوف الملحد (مايكل روس) في نقده لكتاب وهم الإله:

(دوكنز وقح في جهله بالفلسفة وعلم اللاهوت، ولا نُغفل أيضاً جهله بتاريخ العلم)[٤].

ويقول أيضاً:

(طريقتهم في التعامل مع وجهات النظر الدينية مثير للشفقة إلى درجة هائلة. ريتشارد دوكنز في وهم الإله سيفشل في أي كورس يدرس مقدمة لعلم الفلسفة أو الدين. وبفخر ينتقد مجالاً لا يعرف عنه شيئاً. لقد قلت في مكان آخر، لأول مرة في حياتي أشعر بالحزن لأجل الحجة الأنطولوجية)[٥].

---

(١) يعني: طلاب السنة الثالثة في الجامعية تقريباً.

(٢) (Despite the fact that this book is mainly philosophy, Dawkins is not a philosopher (he's a biologist). Even taking this into account, however, much of the philosophy he purveys is at best jejune. You might say that some of his forays into philosophy are at best sophomoric, but that would be unfair to sophomores; the fact is (grade inflation aside), many of his arguments would receive a failing grade in a sophomore philosophy class. This, combined with the arrogant, smarter-than-thou tone of the book, can be annoying). The Dawkins Confusion.

(٣) (The book is a very uneven collection of scriptural ridicule, amateur philosophy, historical and contemporary horror stories, anthropological speculations, and cosmological scientific argument. Dawkins wants both to dissuade believers and to embolden atheists). The Fear of Religion

(٤) (Dawkins is brazen in his ignorance of philosophy and theology (not to mention the history of science).

(٥) (Their treatment of the religious viewpoint is pathetic to the point of non-being. Richard Dawkins in =

ويقول بروفسور البيولوجيا الملحد (H آلن أور):

(أحد أسباب عدم التوسع في سَوق الحجج في وهم الإله يبدو واضحاً: إذ يظهر أن دوكنز ليس جيداً في ذلك، بالتأكيد يعاني من مشكلات متعددة حين يريد أن يناقش فلسفياً. ومن البدهي تماماً أن لديه عدداً من النتائج المحسومة سلفاً وهو مصمم على الوصول إليها. وبناء على ذلك فدوكنز يستخدم حججاً ضعيفة يرى أنها تصل به إلى تلك النتائج، ويبدو أن الحكم على قوة الأدلة المختلفة تعتمد على النتائج التي تفضي إليها)[1].

الملاحدة وإله الصدفة:

من القضايا التي تتأسس عليها الفكرة الإلحادية مبدأ الصدفة، إذ أنها بإنكارها لوجود الخالق، والذي يخلق بعلم وحكمة، لجأت إلى الصدفة والاحتمالات العشوائية كمفسر لحدوث كثير من الظواهر المعقدة، وهو ما يتكرر كثيراً في حججهم ومناقشاتهم.

كيف حدث الكون؟ بالصدفة. كيف ابتدأت الحياة؟ بالصدفة. كيف انضبطت هذه القوانين والسنن؟ بالصدفة... إلخ.

فدوكنز مثلاً حين يتحدث عن مبدأ الحياة والوعي والإدراك يجعل ذلك من قبيل ضربة حظ واحدة وقعت بالصدفة، ودانيل دينيت حين أراد تفسير مبدأ الوعي والإدراك تحدث ثم قال: (ثم وقعت المعجزة)[2].

بل أمر الإيمان بقدرات الصدفة يتجاوز هذا بكثير، تأمل في هذا المثال المعبر عن إيمان دوكنز العميق بقدرات الصدفة في الفعل والعمل، والذي

= The God Delusion would fail any introductory philosophy or religion course. Proudly he criticizes that where of he knows nothing. As I have said elsewhere, for the first time in my life, I felt sorry for the ontological argument). Why I Think the New Atheists are a Bloody Disaster.

(١) (One reason for the lack of extended argument in The God Delusion is clear: Dawkins doesn't seem very good at it. Indeed he suffers from several problems when attempting to reason philosophically. The most obvious is that he has a preordained set of conclusions at which he's determined to arrive. Consequently, Dawkins uses any argument, however feeble, that seems to get him there and the merit of various arguments appears judged largely by where they lead). A Mission to Convert.

(٢) انظر كتاب أنتوني فلو «هنالك إله» xvii.

يجعل من تلك الأسئلة المعقدة المتعلقة ببداية الكون والحياة أسئلة سهلةً بالنسبة لدوكنز، يمكن أن يكون جوابها المحتمل إن لم يكن هو الجواب الصحيح: الصدفة، يقول في كتابه صانع الساعات الأعمى:

(المعجزة هي شيء يحدث ولكن على نحو مفاجئ جداً. فلو أن تمثالاً رخامياً لمريم العذراء قام بالتلويح لنا بيده فجأةً فينبغي أن نتعامل مع الأمر كمعجزة؛ لأن معرفتنا وخبرتنا تخبرنا بأن الرخام لا يتصرف على هذا النحو)[١] ثم يقول موضحاً موقفه من هذا المثال: (في حالة التمثال الرخامي، الجزيئات في الرخام الصلب تقوم باستمرار بالتدافع ضد بعضها باتجاهات عشوائية. وتدافع هذه الجزيئات المختلفة على هذا النحو يلغي أثر هذا التدافع ولذا يبقى يد التمثال في وضع ثابت. ولكن لو حصل بالصدفة المحضة أن جميع الجزئيات قامت بالتحرك بنفس الاتجاه في نفس اللحظة، لتحركت اليد. ولو أنها بعد ذلك تحركت في الاتجاه المعاكس لعادت اليد إلى موضعها السابق. بهذه الطريقة فمن الممكن لتمثال رخامي أن يلوح لنا. من الممكن أن يحدث. الاحتمالات ضد وقوع مصادفة من هذا النوع مرتفعة على نحو يفوق الخيال، لكنها ليست مرتفعة على نحو لا يمكن حسابه إحصائياً. أحد الزملاء الفيزيائيين قام بالتفضل بحسابه لي. الرقم كبير بحيث أن عمر الكون كله سيكون قصيراً جداً عن مجرد كتابة الأصفار! إنه لمن الممكن نظرياً لبقرة أن تقفز فوق القمر باحتمال مشابه. والنتيجة التي نريد التوصل إليها في هذه الحجة أن بإمكاننا حساب مناطق المعجزات غير المحتملة بشكل أكبر بكثير مما نتخيل أنه معقول)[٢].

---

(١) (A miracle is something that happens, but which is exceedingly surprising. If a marble statue of the Virgin Mary suddenly waved its hand at us we should treat it as a miracle, because all our experience and knowledge tells us that marble doesn't behave like that). The Blind Watchmaker 159.

(٢) (In the case of the marble statue, molecules in solid marble are continuously jostling against one another in random directions. The jostlings of the different molecules cancel one another out, so the whole hand of the statue stays still. But if, by sheer coincidence, all the molecules just happened to move in the same direction at the same moment, the hand would move. If they then all reversed direction at the same moment the hand would move back. In this way it is possible for a marble statue to wave at us).
(It could happen. The odds against such a coincidence are unimaginably great but they are not incalculably = great. A physicist colleague has kindly calculated them for me. The number is so large that the entire age

وقد كرر المثال والكلام في كتابه الأحدث وهم الإله ص٣٧٣، ومثل هذا الكلام يكشف عن إيمان عميق فعلاً بإمكانات الصدفة، وأنه من الممكن أن يُحدث أي شيء، فوجود احتمال ولو ضئيل جداً جداً جداً بشكل لا يوصف لا يجعله عند دوكنز أمراً مستحيلاً أو يستدعي التوصيف بالمعجزة، بل يظل ممكناً ما دام بالإمكان حسابه إحصائياً. وإذا تقبل الإنسان مثل هذا الأمر تحت ذريعة أنه ممكن وإن كان احتمالية تحققه في الواقع ضيئلةً جداً فسيكون في الحقيقة قابلاً لأي شيء.

ولو أضفنا هذا الكلام إلى ما سبق ذكره من تشكيك الملاحدة بالمبادئ العقلية الأولية فكيف ستكون حال المعرفة الإنسانية البشرية؟ فالبدائه العقلية محل تشكيك، وما نستفيده من خبراتنا بالنظر في هذا الكون هو الآخر محل تشكيك، وهو مشهد معرفي وعلمي شديد القتامة، لا يلتزمه أحد باطراد في الحقيقة وهو كافٍ في الكشف عن خلله العميق.

الملاحدة وسؤال الوعي وإدراك الذات:

مسألة الوعي والإدارك وكيف تشكل في ضوء النظرة المادية قضية محيرةٌ فعلاً، إذ كيف ينتج الدماغ بعناصره المادية المحضة مثل هذا النشاط، فتتحقق حالة الوعي بالذات، وإدراك الهوية الذاتية للفرد، إضافة إلى إدراك العالم الخارجي، والتعرف على الذات والمفارق، والأنا والآخر. ولذا فقد عبر دينيت كما سبق عن حجم صعوبة تفسير قضية ظهور الوعي مادياً بقوله: (ثم وقعت المعجزة). بل إن بعض بعض الملاحدة يبدي قدراً من التشاؤم من إمكانية أن يجيب العلم على مثل هذا السؤال، ومع ذلك يرفض قبول التفسير المتعقل لهذه الظاهرة وهي أن الله جل وعلا هو الذي أحدثها.

ولست بصدد الدخول في تفاصيل هذه القضية وحجم التباينات بين

= of the universe so far is too short a time to write out all the noughts! It is theoretically possible for a cow to jump over the moon with something like the same improbability. The conclusion to this part of the argument is that we can calculate our way into regions of miraculous improbability far greater than we can imagine as plausible).

The Blind Watchmaker 159.

النظرة المادية الإلحادية في مسألة تفسير ظاهرة الوعي البشري والنظرة الدينية، لكني مررت على حوار لريتشارد دوكنز يتضمن إشكاليات شديدة العمق فيما يتصل بهذه القضية، بل بما هو أبلغ منها، ويكشف عن مآلات النظرية الإلحادية على مسألة الهوية الذاتية وإدراكها.

في حوار (نك بولارد) مع ريتشارد دوكنز طرح نك السؤال التالي:

(قالت سوزان لاكمور مؤخراً في مجلة (الشكاك): (أعتقد أن فكرة أننا موجودون مجرد وهم، فكرة أن هناك (أنا) في الداخل تقوم باتخاذ القرارات والعمل وهي مسؤولة هو مجرد وهم كبير ضخم، الذات التي نبنيها مجرد وهم لأنه في الحقيقة لا وجود إلا للدماغ وكيميائها وهذه الذات لا وجود لها، وهي لم توجد، وليس هنالك شخص يموت). هل توافق على مثل هذا التفسير الاختزالي لحقيقة من تكون، ومن تكون زوجتك؟

دوكنز: نعم. فسوزان قامت بإبراز عنقها لصالح رؤية معينة لحقيقة ما هي الذات، وهي رؤية أجدني مائلاً إلى اعتقاد أنها من الممكن أن تكون صحيحة، لكنني لا أعتقد أننا وصلنا إلى مرحلة تسمح لنا من التأكد من صحتها. الذي يجعله معقولاً بالنسبة إليّ أمور متعددة. أحدها أن الدماغ والذي ظهر للعالم وفق عملية تطور متدرجة تصل بيننا وبين بقية الحيوانات والتي تتصل بحيوانات ذات أدمغة بسيطة جداً، إلى حيوانات لا عقول لها إلى النباتات. بالتأكيد أن التكهن بأننا لا نعيش بعد الموت تبدو لي احتمالية مرتفعة على نحو ساحق. هذا سيكون اختباراً عملياً جيداً ـ وإن لم نكن قادرين على تطبيقه بطبيعة الحال ـ لكن من جهة المبدأ: إن كانت الذات شيئاً مغايراً للدماغ، فينبغي أن تعيش بعد أن يتعفن الدماغ، وأنا مستعد لوضع مراهنة عالية جداً ـ مدركاً أنه ليس بإمكاني أن أفوز ـ أنه متى ما تعفن دماغي فإن ذاتي لن تبقى بأي شكل من الأشكال.

بولارد: هل تعتقد بأن فكرة (أنا موجود) مجرد وهم؟

دوكنز: حسنا، أنا سعيد حتماً بأننا نتاج لأدمغتنا، وأنه متى ماتت فإننا نزول. القول بأن مفهوم (نحن) مجرد وهم تبدو لي طريقة جيدة للتعبير عن

الفكرة. لكنني لا أتمنى أن ألزم نفسي بالقول بأن شعورنا بأنفسنا مجرد وهم. إنه يعتمد على ما تعنيه. بالتأكيد أشعر أن ثمة (أنا)[1]. وكما ترى أن دوكنز يبدو مستعداً جداً للتسليم بأن وعي الفرد بذاته، وشعوره بهويته الذاتية المميزة له عمن سواه، وإحساسه بمعنى (الأنا) مجرد أوهام، ولئن حاول دوكنز أن يبدو دبلوماسياً في تقديم جوابه ليخفف من وقعه على القارئ، لكنها كلمات كافية في التعبير عن الفكرة بشكل واضح، نعم حاول دوكنز أن يبدو أكثر عقلانية في اللحظة الأخيرة من هذا الحوار لكنه في الحقيقة حاد عن موضوع البحث، ولم يأت بشيء ينقض تأصيله المتقدم، فمجرد الشعور (بالأنا) والوعي بها ليس محل البحث أصلاً فهي قضية بدهية يجدها هو وغيره ضرورة من أنفسهم، ولكن السؤال المهم هل ثمة ما يبرر حقيقةً لهذا الشعور أو بمعنى آخر هل ثمة شيء حقيقي موجود يصح أن يطلق عليه (أنا) يبرر لشعورنا بوجودنا أم أن الأمر مجرد وهم ولا وجود حقيقي لشيء اسمه نفس أو أنا أو هوية ذاتية مميزة.

والمقصود بما سبق جميعاً التنبيه على أن الرؤية الإلحادية للوجود مليئة بالثغرات والثقوب، وهذه الثغرات كثيرة وكبيرة، وأنه لا يصح أن يتوقف فقط

---

(١) Susan Blackmore said recently in The Skeptic: 'I think the idea we exist is an illusion... The idea that there is a self in there that decides things, acts and is responsible... is a whopping great illusion. The self we construct is just an illusion because actually there's only brains and chemicals and this "self" doesn't exist-it never did and there's nobody to die'.

Would you agree with that kind of reductionist explanation of who your wife is, who you are?

- Yes. I mean, Susan is sticking her neck out for one particular view of what a self is, and it's one that I am inclined to think is probably right; but I don't think we are yet in a position to substantiate that.

What makes it seem plausible to me is various things. One is that brains have come into the world by a gradual process of evolution and we have a continuum from ourselves through all the other animals to animals that have very simple brains, to animals that have no brains at all, to plants.

Certainly, the prediction that we don't survive death seems to me to be overwhelmingly probable. That would be a good operational test-not that we can actually test it, but in principle: if a self is something other than brain stuff, then it should survive when the brain rots-and Id place a very heavy bet (which I realise I could never actually win) that when my brain rots my self will not in any sense exist.

* Do you believe that the idea that I exist is an illusion?

(Well, I'm certainly happy that we are a product of brains and that when our brains die, we disappear. To call us an illusion is possibly a good way to express it. But I wouldn't wish to commit myself to saying that our sense of self is an illusion. It depends what you mean. I certainly feel that there's a me). the simple Answer-with Nick Pollard.

في مناقشة هذه الظاهرة عند حدود سؤال الخالق، بل ينبغي الغوص في دراسة مآلات وآثار هذا التنكر لوجود الخالق على البنية المعرفية، والرؤيه الكونية، والموقف من الأسئلة الغائية والقيم والأخلاق وغيرها. وأن الله ليس هو الوهم الوحيد في التصور الإلحادي، بل القيم الأخلاقية المطلقة وهم، والإرادة البشرية الحرة وهم، ومعنى الوجود وغاياته وهم، والمبادئ العقلية الأولية وهم، وحالة الوعي بالذات وهم، بل الإنسان بمكوناته الروحية اللامادية والمشكلة لحقيقة إنسانيته مجرد وهم. والأمر كما عبر الملحد (ويل بروفاين) بروفيسور تاريخ علم الأحياء في جامعة كورنيل بشكل واضح صريح: (لا آلهة، لا حياة بعد الموت، لا قاعدة حقيقية للأخلاق، لا معنى نهائي للحياة، ولا إرادة حرة للإنسان، إننا مرتبطين جميعاً على نحو عميق بالمنظور التطوري، أنت هنا اليوم وسترحل في الغد، وهذا كل ما في الأمر)[١].
ويقول: (يبدأ الأمر بالتخلي عن الإيمان بالإله، ثم التخلي عن الأمل بحياة بعد الموت، وحين تتخلى عن هاتين الفكرتين فإن بقية الأمور تأتي بطريقة سهلة نسبياً، حيث تفقد الأمل بأن هناك مبادئ أخلاقية مطلقة، وأخيراً لا وجود لإرادة إنسانية حرة، إذا آمنت بالتطور فلا يمكنك أن تأمل في وجود أي إرادة حرة، ليس هناك أدنى أمل في وجود أي معنى عميق في الحياة الإنسانية. نعيش، ونموت، ونفنى، نفنى بشكل نهائي حين نموت)[٢].

(١) من الفلم الوثائقي (مطرود) (expelled).

(٢) المرجع السابق.

تأصيل المنهج الشرعي في التعامل مع الشبهات والإشكالات

من القضايا المنهجية المهمة التي ينبغي بث الوعي حولها المنهج الشرعي في التعامل مع الشبهات والإشكالات، إذ أن جزءاً لا بأس به من الإشكالات المتصلة بملف الإلحاد يعود في الحقيقة إلى افتقاد المنهجية العلمية الصحيحة في التعاطي مع الشبهات والإشكالات.

وما من شك أن للشبهة تأثيراً كبيراً في حرف المسار العقدي للإنسان، إذ (القلوب ضعيفة والشُبَه خطافة)[1] كما قال الإمام الذهبي، ولذا كان لكثرة الواردات الفاسدة على النفس دوراً هائلاً في إفساد القلب، فإن القلب المنهمك في مطالعة الكتب أو تصفح المواقع المتضمنة للتصورات الفاسدة، والتشكيكات، والشبهات عرضةٌ لتشرب تلكم المفاهيم المنحرفة، بما ينعكس سلباً على برد اليقين، وصلابة الإيمان، وقد أحسن ابن تيمية النصح لتلميذه ابن القيم حين قال له: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشْربتَ قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات أو كما قال)[2].

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦١.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٤٣.

وما من شك أن أعظم وأجل نعم الله على العبد توفيقه للإيمان واستشعار هذا المعنى يبعث الطمأنينة في النفس والفرح بنعمة الله تعالى، ومسؤولية المحافظة على هذا الإيمان، وقد استشعر الصحابة والسلف عظيم نعمة الله عليهم، وعبروا عن شعورهم هذا بشكل صريح يكشف عن مقدار حفاوتهم بهذه النعمة، فعن معاوية بن قرة أن سالم بن عبد الله حدثه عن ابن عمر قال: ما فرحتُ بشيء من الإسلام أشد فرحاً بأن قلبي لم يدخله شيء من هذه الأهواء[١]. وقال أبو العالية: ما أدري أي الغُنمين عليَّ أعظم: إذ أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوى[٢]. وسأل المرُّوذِيُّ الإمام أحمد بن حنبل: من مات على الإسلام والسُّنَّة مات على خير؟! فقال له أحمد: اسكت، من مات على الإسلام والسنة مات على الخير كله[٣].

وإذا تدبرت في الكتب المعنية بتتبع الآثار السلفية خصوصاً في المجال العقدي فسينكشف لك فعلاً مدى التحوط الذي كان يبديه سلفنا الصالح في تعاطيهم مع الشبهات والإشكالات والآثار في هذا الشأن كثيرة جداً، فمن صور ذلك التحوط العقدي أن رجلاً جاء إلى الحسن فقال: يا أبا سعيد، تعال حتى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه[٤]. وقال رجل من أصحاب الأهواء لأيوب السختياني: يا أبا بكر؟ أسألك عن كلمة قال: فولى أيوب، وجعل يشير بإصبعه: ولا نصف كلمة ولا نصف كلمة[٥]. ودخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله. قال: لا. قال: تقومان عني وإلا قمت. فقام الرجلان فخرجا،

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي ١/ ١٣٠.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي ١/ ١٣١.
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص١٨٠.
(٤) الشريعة للآجري ١/ ٤٣٨.
(٥) الشريعة للآجري ١/ ٤٣٩.

فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرآ آية فيحرفانها فيقر ذلك في قلبي[1]. وكان ابن طاوس جالساً، فجاء رجل من المعتزلة، فجعل يتكلم قال: فأدخل ابن طاوس إصبعيه في أذنيه، وقال لابنه: أي بني، أدخل إصبعيك في أذنيك، واشدد، ولا تسمع من كلامه شيئاً، قال معمر: يعني أن القلب ضعيف[2]. وليس هذا التحوط في حقيقته ناتج عن ضعف معرفي كلا. بل صحة التصور عندهم مبنيةٌ على حجج وبراهين ومعرفة للحق في مثل هذا الثوابت الشرعية، فلا مصلحة من إصغاء الأذن بعدها إلى شيء من الباطل والذي قد يجتذب القلب صوبه. خصوصاً وأن الأمر جد، إذ هو متعلق بأعظم المهمات في حياة الإنسان المسلم، ورحم الله مالك بن أنس إذ قال: الداء العضال التنقُّل في الدين، وقال: قال رجل: ما كنتَ لاعباً به فلا تلعبَنَّ بدينك[3].

وإذا تدبرت في أحوال كثير ممن يتقصدون موارد الشبه والإشكالات وجدت قدراً من هذا التقصد عائداً إلى شيء من الغرور المعرفي الذي يظن صاحبه في نفسه خيراً فينكشف جهله مع بواكير ما اطلع عليه من الشبهات، فالسلامة لدين المرء متى ما قدر ـ ولم تكن ثمة مصلحة شرعية معتبرة ـ مباعدة مثل هذه الموارد، والتعرف على الحق بدلائله الصحيحة، أما البروز لكل شبهة وإشكال فطريق طويل، وصاحبه عرضة لكثير من الزلل والخطأ والخطل.

ولست بصدد تفصيل القول في هذا المنهج هنا، وإنما الإشارة إلى أهمية الاعتناء بهذا المبحث المنهجي المهم جداً، والتنبيه إلى ضرورة بث الوعي حياله بين الناس، وذكر شيء يسير جداً من مساراته ومعالمه.

فمن القضايا المهمة المتعلقة بالتعاطي مع الشبهة والإشكال ضرورة أن يتعامل معها المسلم متى ما اطلع عليها باعتبارها شبهة وإشكال، تستدعي

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي ١/ ١٣٣.

(٢) الإبانة لابن بطة ٢/ ٤٤٦.

(٣) الإبانة الكبرى لابن بطة ٢/ ٥٠٦.

البحث والتأمل والإزالة، لكنها ليست أمراً مسلماً تستدعي الترحل عجلاً إلى موقف عقدي جديد. تأمل في هذا الأثر الذي نقله معن بن عيسى عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: انصرف مالك بن أنس يوماً من المسجد، وهو متكئ على يدي فلحقه رجل يقال له أبو الجويرية كان يتهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي. قال: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتك اتبعتني. قال: فإن جاء رجل آخر، فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه، قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا عبد الله، بعث الله عَزَّ وَجَلَّ محمداً ﷺ بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين. قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل[1].

ومن القضايا المفيدة في التعامل مع الشبهات تجريدها عن البهرجة اللفظية، والإفضاء مباشرة إلى بنية الشبهة الداخلية، بالتعرف على الأركان التي تقوم عليها، وصلة تلك الأركان بالنتائج، إذ أنه كثيراً ما يكون لقالب الشبهة اللفظي أو البلاغي أو النفسي تأثيراً كبيراً في إحداث حالة القبول بتلك الشبهة، فاللغة الوثوقية، والنمط الساخر، والأمثلة الطريفة، والأسلوب الغامض، وسحر البيان وغير ذلك، مؤثرات حقيقية في قبول الفكرة، دون أن تكون هذه بذواتها معايير موضوعية لتصويب الفكرة أو تخطئتها، إذ مرجعية الصواب والخطأ إنما هي إلى المعاني المندرجة تحت الألفاظ. فلو أن الشبهة تجردت عن (سحر البيان) واطلع عليها الإنسان كما هي بمعناها المباشر المختصر، لما كان موقعها من نفسه كموقعها مع البهرجة اللفظية، بل لعل بطلانها ينكشف بمجرد ذلك.

ومما يتصل بالمسألة السابقة ضرورة التعرف على ما يُعرف بالمغالطات المنطقية، وهي أدوات تستعمل في تمرير الأفكار المغلوطة والتوصل إلى نتائج باطلة، وإن بدت للوهلة الأولى لبعض الناس احتجاجاً علمياً مقبولاً. فالكشف عن طبيعة المغالطة الموجودة في تركيب بعض الشبهات كفيل بإزالة ما تحدثه

---

(١) الشريعة للآجري ١/ ٤٣٧.

من لبس وإشكال، فمن المغالطات الشهيرة مثلاً والتي يكثر استعمالها في مقامات الجدل والمناظرة المصادرة على المطلوب، والتعميم المتسرع، والحيدة عن موضع الإشكال، والقدح الشخصي، والمغالطة البعدية، والسببية الزائفة، والاحتكام للجهل، ومهاجمة رجل القش وغيرها. والاهتمام بكشف طرق تزييف الوعي هذه يفتح الباب إلى الاهتمام بأصول علم الجدل والمناظرة، ومن أهم ما كتب فيه من كتب في الدائرة الشرعية: الكافية في الجدل لإمام الحرمين الجويني، والمعونة في الجدل لأبي إسحاق الشيرازي، والمنهاج في ترتيب الحجاج لأبي الوليد الباجي، وعلَم الجَذَل في علم الجدل لنجم الدين الطوفي، وآداب البحث والمناظرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ومنهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد لعثمان علي حسن وغيرها، وهو فرع علمي جدير بالكتابة والبحث، ومن يطالع ما كُتب فيه يعلم أن ثمة مجالاً للإضافة والزيادة.

ومن الأصول الشرعية الكبرى في مجال التعامل مع الشبهات قاعدة المحكم والمتشابه في الشريعة، المشار إليها في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾. (فمن تأمل هذه الآية وما تضمنته من منهجية علمية قرآنية في التعاطي مع نصوص الوحي فستنزاح عنه أثقال الشبهات وتتطاير هباءً منثوراً، ومن غفل عنها أو تغافل فسيظل مضطرباً حائراً أمام سيل الشبهات والإشكالات والانحرافات.

الوحي كما أخبر الله، فيه النص المحكم الذي يجب التزامه، والنص المتشابه الذي يلزم رده إلى المحكم، فإذا غاب عن الباحث قاعدة المحكم والمتشابه فلن يتميز له المراد الإلهي، وسيبقى متردداً متذبذباً يقفز مع كل أطروحة، ويربكه كل اعتراض. ومن رحمة الله تبارك وتعالى أن جعل محكمات الكتاب غالبةً على الكتاب، حيث وصف المحكم بأنه (أم الكتاب) أي: (أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما

بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض والحدود، وسائر ما يحتاجون إليه، في عاجلهم وآجلهم، وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن معظم الكتاب، وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب، تسمي الجامع معظم الشيء أما له، فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر أمهم، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة أمها)[1].

فإذا علم هذا فلا يكفي أن يدعي الشخص التسليم لقراءته القرآنية دون ملاحظة هذه القاعدة العظيمة إذ قد يكون متعلقاً بالنص المتشابه معرضاً عن النصوص المحكمات، ومتى ما تعلق المرء بالنص المتشابه دون المحكم كان ذلك أمارة على الزيغ، والوقوع في حبال تبعيض الوحي، والتعلق بالنص الأقل حضوراً ووضوحاً على حساب النصوص المحكمة الواضحة، وقد تولى الله في هذه الآية الكريمة ذم من سلك هذا السبيل، كما حذر النبي ﷺ أيضاً منهم فقال ﷺ بعد ذكره للآية المتقدمة: «فإذا رأيت الذين يَتَّبِعُونَ ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»[2])[3].

وهذه المنهجية في التعاطي مع ظاهرة المحكم والمتشابه في الوحي، برد المتشابه إلى المحكم وجعل المحكم أصلاً، يمكن أن يطبق في المجال المعرفي بشكل عام، فلا يصح أن تضرب الأصول المحكمة في مجال من المجالات المعرفية بفروع متشابهة، بل ينبغي أن يسعى الناظر في التوفيق بينها بوجه تفسيري صالح لهذه المتشابهات، مع استبقاء المعنى المحكم للأصل المحكم. فكما تطبق نظرية المحكم والمتشابه في المجال الشرعي، فهي قابلة للاستثمار والتطبيق في المجال الكوني أيضاً بالاستمساك بالمحكم الكوني ورد المتشابه الكوني إليه، كما يعبر الصديق الشيخ عبد الله الشهري الباحث المهتم بقضايا الفكر والإلحاد.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ١٨٩.

(٢) رواه البخاري (٤٥٤٧)، وأبو داود (٤٦٠٠)، والترمذي (٢٩٩٤)، والإمام أحمد في المسند (٢٦٢٤٠).

(٣) من كتابي ينبوع الغواية الفكرية ص٢١١.

أختم هذه الفقرة بالتأكيد على خطورة التسليم بالمقدمات الفاسدة، فإنها تجر صاحبها شعر أو لم يشعر لتقبل نتائج وقضايا فاسدة، ففحص المقدمات والتأكد من سلامتها عملية في غاية الأهمية، وقد يتعجل المرء أحياناً في نظره لبعض المقدمات وفحصها، فيسلم لها دون استيفاء واجب النظر فيها، فيدخل عليه الخلل في نتائجه من جهتها، ويصعب عليه في كثير من الأحيان ملاحظة أن الخلل إنما دخل عليه منها، يقول ابن تيمية: (فابن سينا أصلح تلك الفلسفة الفاسدة بعض إصلاح حتى راجت على من يعرف دين الإسلام من الطلبة النظار. وصار يظهر لهم بعض ما فيها من التناقض فيتكلم كل منهم بحسب ما عنده؛ ولكن سلموا لهم أصولاً فاسدة في المنطق والطبيعيات والإلهيات، ولم يعرفوا ما دخل فيها من الباطل، فصار ذلك سبباً إلى ضلالهم في مطالب عالية إيمانية ومقاصد سامية قرآنية خرجوا بها عن حقيقة العلم والإيمان، وصاروا بها في كثير من ذلك لا يسمعون ولا يعقلون بل يسفسطون في العقليات ويقرمطون في السمعيات)[(١)].

وكما سبق فليس المقصود استيعاب الكلام حول منهجية التعاطي مع الشبهات وإنما التنبيه إلى أهمية هذا المبحث المنهجي وضرورة نشر معالمه وأحكامه بين الناس خصوصاً مع هذا الانفتاح العلمي والمعرفي الهائل، والذي زاد من تدفق الشبهات والإشكالات في مشهدنا الثقافي.

---

(١) مجموع الفتاوى ٩/١٣٦.

ترسيخ الحضور القرآني
في قضايانا الفكرية والعقدية

ليس من المستغرب أن يكون القرآن الكريم ـ وهو كلام الله تعالى ـ واحداً من أعظم أسباب الهداية والثبات، وأن تكون الهداية والتثبيت من أجلّ الحِكَم الربانية في تنزيل هذا النص المقدس، قال تعالى مبيناً وجه الحكمة في تنزيل القرآن صراحةً: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

فالقرآن إنما جاء ليهدي ويثبت المؤمن على هذه الهداية، وهذا التثبيت للنفوس لا يتم بقراءته جملةً واحدةً، وأن يُمر عليه سريعاً بختمةٍ عجلى، وإنما تكون بقراءته منجماً على الأيام، بتدبرٍ وترتيلٍ، وتشرب لمعانيه العظام مراراً وتكراراً، وقد أشار القرآن إلى أثر التنجيم والترتيل والتدبر في الثبات، وأن ذلك يخالف القراءة دفعةً واحدةً فلا يحصل بها هذا الأثر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾. فانظر كيف كان لتنجيم نزول القرآن أثرٌ في إحداث الثبات، وكيف أن في تفرقته ليقرأ على مكثٍ تحقيقاً لغايات تنزيله، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

وإني أعتقد جازماً أن أكبر التحديات التي تواجه الدعوة في مستقبل الأيام هو في إعادة (النص القرآني) ليكون الأصل الذي ينبني عليه فهم الدين، وتشكيل التصورات والقناعات، وليكون هو (الحَكَمُ الحقّ) في تقييم مختلف الأطروحات والرؤى والأفكار، ولتترتب وفقه أولوياتنا العلمية والتربوية والدعوية وغيرها.

إن أعظم ما يمكن أن يتحقق للدعاة من نجاحات يكمن في إحداث ذلك التفاعل (الإيماني العميق) (بالنص القرآني) بالانتقال من مجرد القراءة اللفظية له إلى (عوالم التدبر) والتي تحقق لأصحابها الانتفاع الحق بالقرآن الكريم، وتستتبع ثمراتها الإيمانية والعلمية والعملية.

إننا بحاجة إلى شحن الشباب المسلم وتعبئتهم للإقبال على (القرآن الكريم) ليستقبلوا هداياته وبركاته وعلومه، ووالله لو أفلحنا في تصحيح بوصلتنا الدعوية بهذا الاتجاه لقطعنا شوطاً بعيداً في بناء الشباب العلمي والمعرفي والإيماني ولأرحنا أنفسنا من عناء تتبع كثير من بلايا الشبه الفكرية المعاصرة.

وحين أتحدث هنا عن «فضاءات التدبر» فإن أعني ذلك بكل ما في لفظة (التدبر) من حمولة العلم والعمل، فالمدارسة القرآنية المطلوبة تتجاوز تلك القراءة السطحية للنص القرآني إلى إحداث قراءة وقراءتين وثلاث وأربع... تفجر لصاحبها هدايات (النص القرآني)، وتفتح له آفاق (المعرفة القرآنية)، وتدخل المرء في زمرة (أهل القرآن) الذين هم (أهل الله وخاصته).

وكم أتحسر حين أتذكر من نفسي شيئاً من الإغراق لفهم شيء من عميق كلام شيخ الإسلام أو لحل عويصةٍ من كتب المخالفين أو الموافقين، ثم لا أجد من نفسي ذات الحماسة في تقليب النص القرآني في محاولةٍ لتعميق الفهم، واستجلاء أبعاده ودلالاته، ومظاهر جلاله وجماله، وكأن المطلوب هو التعبد بمجرد إقامة الحرف دون ملامسة المعاني.

ولقد تعجبت من حالي حين طربت مرةً لعبارة مرت عليّ من كلام الباقلاني في جعل الكلام العربي على أنحاء ثلاث: شعر ونثر وقرآن، في بيان رتبة البلاغة القرآنية، وسألت نفسي ما بالك لا تجدين ذات الطرب حين تمر بسمعك دلائل فضل القرآن من السُّنَّة النبوية، (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[1] (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)[2] (اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمان رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه (١٧٩)، وأحمد (١٢٣٠١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٧٩).

لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة)[(١)] إلخ.

هل عدم التأثر بأمثال هذه الفضائل عائد إلى أدواء قلوبنا، أم هو راجعٌ لجهلنا وقلة علمنا، أم أن كثرة تردادها أفقدها ذلك الوهج والتأثير، أم هي جميعاً، أم ماذا؟!

وأخذت أتحايل على النفس طلباً للتأثر وقلت لها: بالله استحضري موقف صحابة النبي ﷺ حين قرعت هذه الكلمات أسماعهم لأول مرة كيف كانت دهشتهم وعظيم تأثرهم، وتفاعلهم الوجداني معها.

فبدأت الحياة تدب للقلب، وأخذت النفس تنشرح للنص، ووالله لو صلحت نفوسنا لكان في استشعار أن الكلام كلام الله ما يحملنا بذاته على الإقبال على هذه الكلام قراءة وتأملاً وتدبراً وعملاً، ورضي الله عن عثمان حين قال: (لو طَهُرَتْ قلوبُكم ما شبعتُم من كلام ربكم)[(٢)][(٣)].

وللمعالجة القرآنية للقضايا العقدية امتياز على غيره، إذ هو يقدم معالجةً وجدانيةً إيمانيةً عقليةً، فجديرٌ بمن أقبل عليه بصدق أن ينتفع به، وأن يهتدي بمظاهر إعجازه وما تضمنه من الحجج والبراهين.

ومن المهم جداً ترسيخ هذا الشعور الإيماني بأن هذا الكلام كلام الله تعالى، لا بمجرد التوارث أو العاطفة فقط وإنما أن يعلم الإنسان أن الكلام كلام الله، بما يستلزمه مقام (العلم) من لوازم بحثية ودراسية. ومن أحسن الكتب المؤلفة في هذا السياق، وهي تجربة علمية مباركة قابلة للبناء عليها، والانطلاق منها كتاب «النبأ العظيم» لمحمد أحمد دراز.

أختم هذه الفقرة بذكر آيات من القرآن أحسب أن فيها قدراً من المعالجة لبعض إشكاليات الخطاب الإلحادي، وهي مما يزرع في نفسي الطمأنينة

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد ص١٢٨.

(٣) ما سبق منقول من كتابي ينبوع الغواية الفكرية ص١٢٠.

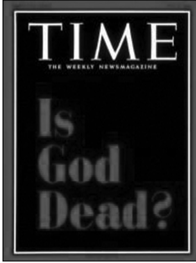
والسكون بعد كل تماس لي مع هذا الملف، يقول الله تبارك وتعالى في آخر سورة غافر:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ويقول جل وعلا في آخر سورة الجاثية:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

الخاتمة



في الثامن من أبريل سنة ١٩٦٦م نشرت «مجلة التايم» الأمريكية عددها الشهير، والمثير للجدل، والذي كان عنوانه الرئيس: «هل مات الله؟» لتعود ذات المجلة في السادس والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٦٩م لتضع على غلافها عنواناً مضاداً تماماً: «هل الله عائد إلى الحياة؟».



وبعد ثلاثين سنة قامت (مجلة إكونومست) في عددها المخصص للألفية الثانية بكتابة نعي لله تعالى لتعود بعدها بثمان سنوات لتكتب على غلافها «باسم الله» معترفةً بأن الدين سيلعب دوراً حقيقياً فاعلاً في عالمنا المعاصر.

نعم..

لقد قالها نيتشه من قبل: مات الإله!

لكن نيتشه مات.

وتبعه ملاحدة كثر.

والله حي لا يموت.

عقولنا تحت القصف

للشيخ عائض بن سعد الدوسري

قبل سنوات ليست بالقليلة، اتصل بي أحد الشباب مبدياً رغبتَه الشديدة في مقابلتي بصورة شخصيَّة، رحبتُ به ودعَوتُه لزيارتي في منـزلي، وقد خُيِّلَ إليَّ من حديثه المرتبك، والقلق في الهاتف، أنه يُخفي بعض الأسئلة الخاصة والحرجة.

أتى إليَّ في الموعد الذي تم تحديده، وكان أولَ شيءٍ استوقفني منه مظهرُه، الذي يوحي أنه شاب متدين فاضل.

لقد كان متردداً في طرح ما عنده، متحفظاً غاية التحفظ؛ ولذا بدأتُ في الكلام لأبيِّن له أنني لا أحب الرسميات، وليس عندي أي تحفظ في مسائل التدارس والتعلم للوصول إلى الحقائق، وكلنا نتعلم من بعضنا، وكلنا قد يُشكل عليه أشياءُ كثيرة.

وجَدَ في هذه الكلمات راحة نفسية، ومع ذلك قال بحذر ومداراة: **هناك بعض الأخوة تُشكل عليهم بعضُ الأفكار، وتزعجهم بعض الخواطر، ولم يجدوا لها حلّاً!**

ثم أكمل كلامه ـ وقد أزعجه الارتباك ـ بقوله: أحد الزملاء عنده بعض الأسئلة الخاصة جدّاً، وهو يخاف أن يسأل أحد العلماء أو طلبة العلم؛ لما سيترتب عليه من مشاكل معتادة، وقد قصدتُك؛ لعلمي باهتمامك بهذا الموضوع.

فقلتُ: على الرحب والسَّعة، سواء كانت تلك الأسئلة لصاحبك أو لك.

تلعثم وارتبك ثم قال: لا، لا، ليست لي؛ بل لصديقي.

بدأ في طرح أسئلة تدور حول «**المسائل الوجودية الكبرى**» وناقشني فيها، وبعد نهاية كل مسألة يُوفِّق الله ـ تعالى ـ للإجابة عليها بصورة شافية، أرى وجهه يتهللُ استبشاراً، عندها أيقنتُ أنها أسئلته، وليست أسئلة غيره.

كان ذلك منذ زمن، ثم ازداد اهتمامي بهذا الموضوع، وأمضيتُ سنوات ليست بالهينة في دراسة بعض الشخصيات القلقة في الوسط الإسلامي؛ من أمثال: **أبي عيسى الوراق**، و**ابن الراوندي**، وانتهاءً **بعبد الله القصيمي**، وقد نشرتُ بعضاً منها في بعض الصحفِ والكتب.

كنتُ أعتقد اعتقاداً جازماً أن بلادي ـ السعودية ـ في منأى عن تلك الأخطار الفكريَّة، كان ذلك اعتقادي الراسخ حتى زمنٍ ليس بالبعيد، إلا أن مظاهر العولمة والانفجار الثقافي الهائل، والذي خرج كالمارد من قمقم وسائل البث المباشر والاتصالات الحديثة؛ كالقنوات الفضائية والإنترنت، ثم التقارب الفكري والثقافي الهائل مع الآخر ـ جعل أبوابَ المجتمع مفتوحة على مصراعيها لكل شاردة وواردة، ولكل فكرة وعقيدة، هذا الانفجار الثقافي جعل «**الكتاب الإلكتروني**» بصيغه المختلفة في متناول الجميع، وبضغطة زر واحدة يصبح أي كتاب ـ مهما كان مَشربُه ـ بين يديك.

إن هذه الظاهرة البشرية، والعولمة الثقافية، فتحتِ الأبوابَ على مصراعيها، وجعلت عقول الشباب تحت القصف الدائم والمركَّز مِن الآخر، ومَن يتبع له من المتعاطفين معه، فأنتجت أسئلة فكرية وعقدية جديدة، في إطارٍ فارغ من أي فكرٍ أصيل عند هؤلاء الشباب، وساعد على تنامي ذلك غفلةٌ من أهل الفكر الأصيل، فتشكلت قناعات جديدة، ورؤى حديثة، وأصبحت هذه الأسئلةُ المحمومة، والأفكارُ الجديدة نشطةً في أوساط بعض الشباب والمراهقين، والذين لم تكن لهم خلفية ثقافية دينية متينة. ولعل ما نسمعه أو نشاهده اليوم من روايات أو قصص أو مقالات صدرت من هؤلاء

الشباب، ليس إلا القطرات الأولى من هذا الطوفان القادم، طوفان التمرد الفكري بكافة مستوياته وأشكاله.

إن هذا المخاض والحِراك الدائب، يتم في غفلة طويلة، ونوم عميق من قِبَل المهتمين والمختصين بالشأن التربوي والديني، وإنني أزعم أننا في هذا الوقت نواجه تمرداً فكريّاً مقنَّعاً، وعما قريب ـ لا قدر الله ـ سيصبح تمرداً علنيّاً، قد يقلب معادلات كثيرة، ويغيِّر تصورات عديدة كانت راسخة ونمطية عن مجتمعنا، قد يحدث هذا في أي لحظة؛ ما لم يُسارع أهل الاختصاص في التدخل لوقف أو تخفيف حدة هذا الطوفان المستتر، والحديث هنا ليس عن تمردٍ على أعرافٍ، أو آراء معينة سائدة، أو اختيارات فرعية، وإنما تمردٌ يمسُّ الأصول الكبرى لعقيدة الإسلام النقية.

لقد كانت الشهوات ـ التي تزيِّنها وتدعو إليها أغلب القنوات الفضائية ـ هي الخطرَ الأعظم الذي كان يواجهه الشبابُ، وكان المشايخ والدعاة والوعاظ يركزون جهودهم عليها تحذيراً ومعالجة؛ لكن موجة أخطر وأعظم ـ يَهون عندها ذلك الخطر ـ وهي موجة الانحراف الفكري، والخلل العقدي، أصبحت اليوم على وشْك اقتحام عقول الشباب بشكل كبير؛ بفضل القنوات الفضائية، ومنتديات الإنترنت، والروايات.

إنها حرب عقائدية وفكرية، تستقطب كافة القدرات والعقليات؛ لزعزعة الثوابت العقائدية، وخلخلة الأمن الفكري عند الشباب، وإنني أزعم ـ آسفاً ـ أن تلك الحرب نجحت نجاحاً كبيراً في التسلل إلى شريحة من شبابنا، في ظل غفلتنا وتساهلنا.

لقد شُغل أهل الفكر ونُخب المثقفين والدعاة، عن هموم الشباب ـ ذكوراً وإناثاً ـ وخصوصاً أسئلتهم الحرجة والذكية، بصراعات ومعارك داخلية، فتَّت في اللحمة الفكرية، وشككت الشباب في قيمهم ورموزهم، كما حصل في المواجهات التي دارت بين بعض طلاب العلم في الفترة الماضية حول مسائل منهجية تتعلق بمسيرة الدعوة إلى الله، أكثرها مما يقبل الاجتهاد والتأويل.

لقد أنتجت تلك المعارك ضحايا، وبأشكال مختلفة، وخرَجت من تحت عباءتها تياراتٌ جديدة، نفضت عنها غبار وأنقاض تلك المعارك؛ كالعقلانية الإسلامية، والإصلاحية التنويرية، والليبرالية الإسلامية، كما يسميها البعض، لقد كان أغلب هؤلاء هم من أبناء الصحوة السابقين، والذين أرادوا أن يُبينوا عن سخطهم على ما حدث ـ بالإضافة إلى أسباب أملتْها طبيعة المرحلة ـ بانتحال تلك الأشكال الجديدة للتصحيح، مع بقاء بعضهم في الأغلب ـ محسنين الظن ـ داخل إطار المبادئ الكلية للإسلام.

وأنتج الوضع الجديد معركةً جديدة بين التقليديين ـ كما يحلو للبعض أن يسميهم ـ وبين فريق التنويريين والعقلانيين والليبراليين الإسلاميين ـ كما يصفون أنفسهم ـ وتمحور الصراع حول شرعية مبادئ الحرية، والديمقراطية، والعدالة، والأنسنة، والمجتمع المدني، والموقف من الآخر، مع رفع الفريق الثاني شعارَ التمسك بالأصول والثوابت، كما يفهمها هو.

وقد استنـزف هذا الصراع قدراتِ الطرفين، وهممَه وجهودَه، وضم فريق شعارات التنوير أطيافاً عديدة ومختلفة ومتناقضة من اليمين إلى اليسار، وربما استقوى في ذلك بأطراف خارجية، حتى وصل الحال بقلة منهم إلى الخروج من الدائرة بشكل كلي، وإعلانه الانسلاخ من كل ما يمت إلى الأمة من مقدساتٍ وثوابتَ.

وفي موازاة تلك التيارات التنويرية وما رافقها من نقد وانتقاد، كان هناك تيار آخر يتشكل في ضوء الوضع الجديد، وهو تيار شبابي حديث، منقطع عن الجذور، ومتمرد على التصورات التقليدية والتنويرية، منكر للرب، هاجر للعبادات، ويقتات على النقد والصراع الجديد بين ما يُسمى **بالمحافظين والليبراليين الجدد**، وتجاوزت ذلك ـ بفضل التقنيات الحديثة، وإجادة اللغات الأجنبية، والابتعاث ـ إلى الارتكاز والتمحور حول الروايات الأجنبية بمختلف أشكالها، والكتب الفلسفية، وأطروحات المذاهب الفكرية الحديثة، فأنتج ذلك المخاض جيلاً شبابيّاً منقطع الانتماء والجذور عن مجتمعه، يحمل ثقافة مستوردة، قائمة على الشك، وناقمة على الثقافة المحلية، وحاقدة ومبغضة

للنمطية، تتخذ النسبية ديناً، ولا تعترف بوجود حقائق ثابتة، كل ذلك مع ضعفٍ شديدٍ في التصورات الشرعية.

ومما زاد الأمرَ سوءاً، عند هؤلاء الشباب، أمران:

الأول: الحملة المحمومة في وسائل الإعلام على المتدينين، وعلى أنماط التدين، تلك الحملة الشاملة في الصحف والقنوات والمسلسلات، والتي تناولت الدين والمتدينين دون معرفة دقيقة أو تمييز، ودون حسبان للجوانب السيئة والنتائج الخطيرة التي سوف تنتجها حملة التشكيك والتشويه، مع أمنٍ مِن محاسبٍ ورقيب.

لقد ربطوا مظاهر الدين والتدين في تعاطيهم معها ـ يُظن أنها مقصودة ومدروسة ـ بالإرهاب، والعنف والتطرف، وسوء الأخلاق، والغباء، والجهل، والتدمير. لقد كانت حملة مركزة، وجرعة قاتلة، حطمت إلى حد كبير أسس **القوة الناعمة** (أي قوة القيم والمبادئ وأسسها الفكرية) التي كان المجتمع يتحلى بها.

الثاني: ممارسات منحرفة حملت بصمة التدين؛ كما فعلت الفئة الضالة في ترهيب المجتمع، بالإضافة إلى تصرفات كثيرٍ من المتدينين ـ على الأقل في الظاهر ـ والتي تحلت بالقسوة والخشونة في التعامل مع الآخرين، والتحزبات والتكتلات داخل مجتمع المتدينين، ووُجِدَ منهم مَن انبرى لتصنيف الناس، وكأنهم قضاة في محاكم للتصنيف، كل ذلك أدى ـ إلى حد كبير ـ إلى تحطيم لحمة البناء الداخلي وتصدُّعه، وخروج تلك الصراعات القاسية والخشنة للعلن، وتجاوزت دائرتَها الضيقة وانتقلت إلى عامة الناس، وتعصب بعض طلاب العلم لبعض العلماء ضد البعض الآخر، وازدادت الشُّقة، واتسعت الهوة بين العلماء أنفسهم وأتباعهم من طلبة العلم، حتى تساءل الناس: **ما هي الجامية، وهل هي الجهمية؟ وما هي القطبية، وهل لها علاقة بالقطب الشمالي، أو الأقطاب الصوفية؟!**

ولماذا العالم الفلاني الكبير يسفه رأي العالم الفلاني الآخر في مسائل فقهية فرعية؟ وكل ذلك يجري على الصفحات اليومية للصحف ومواقع الإنترنت على الشبكة العنكبوتية المفتوحة للجميع.

نشأ وترعرع هذا الجيل الجديد في هذه البيئة التنازعيَّة القلقة، وأضحى الواقع يفرز ـ بطريقة مقصودة وغير مقصودة ـ شباباً لا يؤمن بثوابته؛ بل يزدريها ويحاربها، وقد ظهر شيء من آثاره من خلال الروايات التي تُطرح بين حين وآخر، ومن خلال اللقاءات التلفزيونية والكتابات الحادة ـ والتي تصل إلى الإلحادية ـ والتي تنقلها لنا الشبكة العنكبوتية ومنتديات الإنترنت، التي تزعم أنها سعودية!

لقد كنتُ أُشكك في انتماء كثير من تلك الأسماء ـ التي تكتب في تلك المنتديات ـ إلى وطننا، وكنتُ أظنهم أجانبَ يتخفون بالأسماء الوطنية؛ لتمرير أفكارهم الإلحادية، لكن بعد متابعة دقيقة لتلك المنتديات وتلك الأسماء، وطريقتها في الكتابة، ولغتها ولكناتها، وما كُشف منها عن طريق الصدفة، دلَّ دلالة واضحة أن كثيراً منها ينتمي لنا ولبيئتنا، وهذه حقيقة مؤلمة جداً.

ثم زاد قناعتي الجديدةَ رسوخاً، ما حدث لي شخصيّاً في السنوات الأخيرة، حيثُ قابلتُ واتصل بي كثير من الشباب الذي يُخفي إلحاده، أو على أقل تقدير شكوكه في كل شيء!

لقد زارني ـ فقط ـ السنة الماضية في مدينة الرياض ما يُقارب ثمانية من الشباب، كلٌّ منهم على حدة، وهم ـ والله ـ من أذكياء الشباب، وعلى قدرٍ عالٍ من الثقافة العامة، وقد صارحوني بإلحادهم، وأنهم يريدون الحوار الأخير؛ لكي يصيروا إلى إحدى نتيجتين لا ثالث لهما: إما أن يستقروا على إلحادهم، ويصلوا إلى يقين في ذلك، وإما أن أُشككهم في إلحادهم، لنبدأ الطريق من جديد نحو الإيمان.

لقد قال أحدهم: بقي لدي ١ ٪ من القابلية للإيمان، وأتيت لك لأمتحن هذه النسبة، وأقطع الأمر. وأحدهم أخبرني برغبته في الانتحار. وآخر يقول: إني كل يوم كأني آكل الثلج المالح؛ بسبب الشبهات الإلحادية التي تعصف به، وتزلزل كيانه. وإحدى الفتيات كانت مُتدينة، وشديدةَ الحماسة للدفاع عن دينها، وهي على خُلقٍ عالٍ وثقافة جيدة، وبعد سنوات من دخول الإنترنت، ومحاورة الفرق والطوائف والأديان المختلفة، أصبحت ملحدة!

أحد الشباب الذين سافروا للابتعاث إلى إحدى الدول الأوروبية، وكان من أذكياء الشباب، وقد أعجب به مشرفه الأكاديمي، وكان المشرف ملحداً، فاختصه بالعناية والرعاية، يقول لي هذا الشاب: «**لقد أطلعني مشرفي على خفايا حياة الخلية، والصراع داخلها، والفوضى التي تعم الحياةَ كلها من أعماق المحيطات المظلمة، حيث تتصارع الحيتان بلا هوادة، إلى الحشرات الدقيقة التي تسبح في الآفاق، لقد أقنعني بالإلحاد، وأصبحتُ ملحداً**».

ومجموعة أخرى من الشباب، يتجمعون كل نهاية أسبوع، ويعقدون جلسات فكرية، تُروَّج فيها الأفكار، وتوزَّع فيها الكتب الإلحادية. ومجموعة أخرى من طلاب التخصصات العلمية يُناقشون نظرية «**تشارلز دارون**» بإعجاب وإكبار، ويعبِّرون عن إيمانهم بها في ثوبها الجديد المطور، وأنه لا وجود لخالق لهذا الكون، وكل هذا بفضل ما تبثه بعض القنوات العربية، والمحسوب بعضها على السعودية.

بعض هؤلاء الشباب الذين التقيت بهم، أخبَروني أن أصحابهم كثرة كاثرة، ولكنهم يبقون قلة خطيرة في مجتمعنا، وأنهم لا يرغبون في الحضور في هذا الحوار؛ لسببين: إما الخوف، وإما أنهم لا يحتاجون إلى هذا الحوار؛ لقناعتهم بما هم عليه.

إن ما مضى ليس إلا مجرد عرضٍ سريع لواقعٍ يجهد في التخفي، وإلا فإنه أكبر وأشمل من أن تحيطه مثلُ تلك الكلمات، لكنني أرغب بإلحاح أن أعقبَ على ما سبق ببعض النقاط المهمة، وسوف أتحدث في الحلقة القادمة ـ بإذن الله ـ عن دور الدولة ودور العلماء في هذه المرحلة.

تحدثتُ فيما سبق عن توصيف الحالة التي يمر بها بعض الشباب من أبناء هذا الجيل، والملابسات التي أفرزت ذلك، أما الآن فسوف أتحدث عن واجبنا جميعاً تجاه هذا الجيل، دولةً وعلماءَ وطلابَ علم.

أولاً: دور العلماء في صيانة عقول الشباب:

مما يحزنني حزناً شديداً، أنه حينما يسعى بعض العلماء لتنبيه العلماء

وطلاب العلم إلى وجود تلك الحالات، وما يترتب على انتشارها من خطر، في ظل غياب دورهم المهم في دفعه، يُواجَهون ـ للأسف ـ ببرود وتجاهل، وتكرار عبارة: **نحن بلد التوحيد!**

هذا صحيح، لكننا نتعاطى مع بشر، ومع شبابٍ ومراهقين، قد طمعت فيهم الجهات المشبوهة، والمنظمات الدولية، وربما بعض (الطوائف والفرق)، وغفل عنهم الرقيب، وغاب المثال الصالح، وتصارعت الأفكار أمامهم، وتساقطت الرموز، وقَصَفَتْ عقولَهم الأفكارُ الخارجية، مع لين العود، وحداثة السن، وقلة المحصول الشرعي، فماذا تنتظرون من هؤلاء؟

إن الأفكار عند هؤلاء الشباب الطريين تبدأ بشكل وساوس عابرة، ومع تجاهلنا لهم، بل وخوفهم منا، تزداد تلك الوساوس والإيرادات، لتصبح إرادات، ثم اعتقادات راسخة.

والحديث هنا ليس عن بعض الكتبة المفتونين، من أرباب الشهوات، وطالبي الشهرة، الذين يُلبِسون شهواتِهم ونزواتهم لباسَ الفكر والفلسفة، وإنما حديثي عن شبابٍ نابهين صادقين مع أنفسهم، غير أن الحيرة تحيط بهم، وتزعزع تصوراتهم، وغالباً ما يتصفون بالذكاء والنباهة، والرغبة في اقتحام كل مجالٍ فكريٍّ يشرعُ أمامهم، فورود الإشكالات الفكرية والشبهات العقدية على أمثال هؤلاء أصبح أمراً مألوفاً في هذا العصر، يتعرض له المؤمن المثقف، فضلاً عن الشاب الغر السطحي، وإن من أقل واجبات العالم حمايةَ هذا الجيل من مخاطر تلك الأفكار المسمومة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: «**وأما المؤمن المحض فيعرض له الوسواس، فتعرض له الشكوك والشبهات وهو يدفعها عن قلبه، فإن هذا لا بد منه**».

وكيف يستطع هؤلاء الأغرار أن يدفعوا شبهات الإلحاد عن أنفسهم، وفاقد الشيء لا يُعطيه؟ وكيف لهم أن يدفعوها بواسطة العلماء وهم يُخوَّفون منهم، فيحال بينهم وبين الوصول إليهم؟!

لقد حدثني أحد الشباب ـ الذين تأثروا ببعض الشبهات ـ أنه ذهب إلى

أحد العلماء الكبار؛ كي يدفع عنه آثار تلك الشبهات بالحجج العقلية والنقلية، فإذا به يُصدم بهذا العالم الجليل وهو يطرده من مجلسه، ويُهدده باستدعاء الشرطة!

لقد بيَّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الناس حينما تتخبطهم الشبهات والشكوك، وتحيط بهم الطوائف المتعددة والمختلفة، البعيدة عن الهدى، ويغيب العالم الرباني الذي يَهدي الناسَ إلى مسالك الأنوار، ولا يجدون من يُنقذهم منها، فإن عقولهم تضطرب بالشبهات، وتتأصل فيها، وخصوصاً الأذكياء.

يقول ابن القيم واصفاً واقعاً شبيهاً بما أتخوفه على شبابنا: «**فعظُمت البلية، واشتدت المصيبة، وصار أذكياء العالم زنادقةَ الناس، وأقربهم إلى التدين والخلاص أهل البلادة والبله**».

هذه الكلمات من ابن القيم تُعد أمراً عظيماً يستحق التوقف عنده كثيراً؛ من أجل رسم منهجية في التعامل مع العقليات الذكية والمتميزة، التي قد تنحرف بسبب الآراء الضالة ـ إرهابيةً كانت أم إلحادية ـ في ظل غياب الرموز والأعلام الهادية.

إن تقصير العلماء والدعاة اليوم كبيرٌ في دفع تلك الشبهات عن الشباب، وقد فقد كثير من الشباب ثقتَهم في بعض العلماء؛ لأن بعضهم يمثل بحد ذاته مشكلة في طريقة تعامله مع هؤلاء الشباب، وبعض آخر يمثل مشكلة أخرى أكبر بسبب الآثار المدمرة للصراع الداخلي الذي حصل ويحصل بينهم.

إن حاجة الناس في عصرنا الحاضر للعلماء وطلبة العلم، والمعالجة الناجعة لتلك المواضيع المتصلة بتلك الإشكالات الجديدة ـ حاجةٌ ملحة وضرورية، وهي معالجة يجب أن تتسم بالحكمة، واتباع النص، وموافقة العقل السليم، وإشباع رغبة النفس باليقين والاطمئنان.

ومما نحمد الله عليه، أن دِيننا متينٌ، وأنه لا تعارض بينه وبين العقل أو العلم السليمين، بل ثبت أن ما يأتيان به إنما هو في حكم التابع للدين، الجاري مجراه؛ وإنما الخلل ينبع من أفكارٍ وافدةٍ نشأتْ في بيئة يشيع فيها الإلحاد، فتغلغلت في عقول هشة، فوجب على العلماء وحراس العقيدة أن يبينوه للناس.

قال ابن تيمية: «ما عُلم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع ألبتة؛ بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط. وقد تأملتُ ذلك في عامة ما تَنازع الناسُ فيه، فوجدت ما خالف النصوصَ الصحيحة الصريحة شبهاتٍ فاسدةً يُعلَم بالعقل بطلانها؛ بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع».

وقال: «والقول كلما كان أفسد في الشرع، كان أفسد في العقل، فإن الحق لا يتناقض».

يا أيها العلماء الكرام، إن القنوات الفضائية المخالفة، والمواقع المعادية عقديّاً تشن حرباً لا هوادة فيها على الدين، وتواصل بثها للشبهات حول آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وحول التفاسير، وتنشر ما علق بالتراث من الغث والضعيف، والموضوع والخرافي، زاعمةً أن هذا هو ديننا، وموردةً الشبهاتِ بوسائل حديثة، وتقنيات خطيرة.

والشباب كما هو معلوم، وهم الأكثرية الغالبة في مجتمعنا اليوم، وهم في الوقت نفسه الشريحة التي تدمن مطالعة الإنترنت (تشير الدراسات أن ٩٠٪ من متصفحي الإنترنت من الشباب) ومشاهدة القنوات ـ صاروا بهذا ضحية للشبهات السياسية والدينية. ولا شك أن اهتزاز هذين الأمرين في الشريحة الشبابية، يعني تغيرات جذرية في الخارطة الفكرية بشقيها السياسي والديني لا قدر الله.

هذا هو الواقع، وهذه هي ضريبة التقنية، التي لا يمكن مواجهتها بالمنع، أو سياسة التكتم، أو وضع الرأس في التراب. لا بد من مواجهة الفكر بمثله؛ لمقاومته وصده، ولا بد من الاستفادة من التقنية؛ لكبح شر الجانب السلبي فيها أو تخفيفه.

إن سياسة التكتم أو المنع أو الحجب قلَّت فاعليتُها، وضعفت جدواها، وعُزلة العلماء وصدودهم لم يعد أمراً مقبولاً، وتنازعهم فيما بينهم أصبح اليوم أكثر قبحاً ودمامة. لقد أخذ الله على العلماء العهد والميثاق بالبيان والتوضيح للناس، توضيح أمر الدين الصحيح، والذب عنه وحراسته، ولا بد لهم من مواكبة الأحداث ومتابعة المستحدثات من الشبهات والرد عليها.

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية، حينما قام أحد الحائرين ـ من أمثال بعض شبابنا ـ بإرسال مجموعة من الأبيات الشعرية، يشكك بها في القدر، إلى مجلس شيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها قوله:

إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي
دَعَانِي وَسَدَّ البَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي
قَضَى بِضَلَالِي ثُمَّ قَالَ ارْضَ بِالقَضَا فَمَا أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي فِيهِ شِقْوَتِي
فَهَلْ لِي رِضَا مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي فَقَدْ حِرْتُ دُلُّونِي عَلَى كَشْفِ حَيْرَتِي

فما كان من شيخ الإسلام إلا أن نظم في ذلك المجلس قصيدةً يرد فيها بإحكامٍ على قصيدته، وهي قصيدة طويلة فصَّل فيها الشيخ الردَّ، وأبان الأمر، ومنها:

سُؤَالُكَ يَا هَذَا سُؤَالُ مُعَانِدٍ مُخَاصِمِ رَبِّ العَرْشِ بَارِي البَرِيَّةِ
وَهَذَا سُؤَالٌ خَاصَمَ المَلأَ العُلَا قَدِيماً بِهِ إِبْلِيسُ أَصْلُ البَلِيَّةِ
وَمَنْ يَكُ خَصْماً لِلْمُهَيْمِنِ يَرْجِعَنْ عَلَى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِياً فِي الحَفِيرَةِ
وَأَصْلُ ضَلَالِ الخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ هُوَ الخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ
فَقَوْلُكَ لِمَ قَدْ شَاءَ مِثْلُ سُؤَالِ مَنْ يَقُولُ فَلِمَ قَدْ كَانَ فِي الأَزَلِيَّةِ
وَذَاكَ سُؤَالٌ يُبْطِلُ الْعَقْلُ وَجْهَهُ وَتَحْرِيمُهُ قَدْ جَاءَ فِي كُلِّ شِرْعَةِ

وبغض النظر عن فاعلية الجواب من عدمه، إلا أن موجب الإيراد لهذا المثال هو تبيان سرعة استجابة العالم الرباني لمقتضيات الحال، أفلا يجب علينا أن نتحلى بمثل تلك المبادرة السريعة، والاستجابة الفورية للمستجدات الحديثة، كما كان يتحلى بها العلماء الكبار؛ أمثال ابن تيمية وغيره؟

ثانياً: دور الدولة في حراسة العقيدة:

دور الدولة مهم جدّاً في صيانة الفكر، وحراسة العقيدة، ورعاية الملة، ومراقبة الأفكار الوافدة، وأي دولة مهما كانت ـ ومنها الدول الغربية المتقدمة ـ فإنها تقوم على أسسٍ فكرية وعقائدية، قبل أن تقوم على أسسٍ سياسية، والفكر والعقيدة هي البنية التحتية، والقواعد الأساسية للاستقرار والثبات، ولا

تخلو دولة من قيمٍ فكريةٍ ترعاها وتحرسها، وتُقاس قوتها بقوة تلك الأرضية الفكرية.

ومتى ما اختُرق النطاق الفكري لأي دولة، أو زُعزع أمنُها الفكري، أو فكِّكت منظوماتها القيمية، فإنها تفقد **(قوتها الناعمة)**، التي هي في الحقيقة مبدأ تماسكها وترابطها.

وضع وزير الدفاع الأمريكي «**رامسفيلد**» قواعدَ مهمةً في السياسة والقوة، ومن أهم تلك القواعد قوله: «**إن الضعف يحرض عليك الآخرين**».

وإن أخطر أنواع الضعف هو الضعف العقدي والفكري، والذي سوف يُحرض جميع أشكال وأنواع الأفكار الأخرى المعادية لك، لاختراق نطاقك الفكري ومنظومتك الأمنية، لتفقد المنظومة تماسكها وجوهريتها، وجاذبيتها وقوتها.

إن الأحداث الإرهابية التي حدثت في السعودية سُبِقت باختراقٍ فكريٍ خارجي وافد (ليس المجال لإيراد الأدلة والوقائع حوله)، وسهل تلك المهمةَ وجودُ التقنيات الحديثة، وتم تجنيد مئات الشباب في هذا المسلك الإرهابي، عن طريق إقناعهم بواسطة الفكر أو **(القوة الناعمة للتكفيريين)**، لقد أثاروا القتل والدمار أينما حلُّوا، وكانت بدايتهم مجرد فكرة!

وإن المواجهة الفكرية اليوم مواجهة الأفكار الإلحادية، التي لا تقل خطراً عن مواجهة الإرهاب والأفكار التي تقف خلفه؛ لأن هذه المواجهة تُهدد ديننا وأمننا الفكري ووطننا؛ لأنها في حقيقتها انقلاب فكري له تبعاته المتشعبة سياسيّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً... إلخ.

لقد ذكر «**جوزيف ناي**» ـ مدير مجلس المخابرات الوطني الأمريكي، ومؤلف كتاب «**القوة الناعمة**» ـ أن جدار **برلين** كان قد تم اختراقه بالتلفاز والأفلام السينمائية، قبل زمن طويل من سقوطه في عام ١٩٨٩م؛ لأن مطارق الثقافة اخترقته قبل أن يسقط!

وهذه حقيقة واقعية، يشهد لها أنني شخصيّاً قد قُدرَ لي أن أكون حاضراً

في إحدى المحاضرات خارج بلدي، وكان المحاضِر يتحدث عن التأثير الفكري للقيم والأخلاق، ومما قاله: «**إننا الآن نُركز على السعودية لاختراق مجالها الفكري، ولم يَعد الأمر صعباً؛ لأن التقنية تخدمنا في ذلك، ويمكننا أن نصل لعقول الشباب هناك بسهولة**»!

ولعل المراقب للمشهد السعودي المحلي يلحظ المتابعة الدقيقة، والاهتمام المتزايد للغرب بالخارطة الفكرية السعودية، وإجراءهم العديد من استطلاعات الرأي العام حول مختلف القضايا الفكرية في المملكة.

إن واجب الدولة تجاه هذا الأمر مُهم جدّاً، فإن «**الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**»، وإن الحصانة الفكرية، بتمحيص الأفكار، وصيانةِ عقول الشباب، وفتحِ الحوار معهم ـ واجبٌ شرعي وعقلي، يُحتمه الشرع والواقع، وإن ترك تلك الأفكار الدخيلة والعقائد الفاسدة تسرح وتمرح في عقول الشباب، لَمهدِّدٌ بضمور القوة الناعمة التي تمتلكها الدولة، والتي تمثل شرعيتها الدينية والسياسية، فإذا فسد الشباب فمن للوطن؟!

إن من أهم واجبات ولي الأمر ـ وفقه الله ـ محاسبةَ القنوات الفضائية التي تبث ما يُفسد العقائدَ، ويفكك المنظومة الفكرية، ويُخل بالأمن الفكري، أو على الأقل منعها من ممارسة نشاطها داخل الحدود وباسم الوطن والوطنية، وكذلك محاسبة الصحف والمجلات والمطبوعات والمواقع التي تنشر الإلحاد، أو تحارب الدين، أو تستخف بقيم مجتمع أرضِ الرسالةِ والوحي ودولة التوحيد؛ بل لا بدَّ أن يكون للصحافة الوطنية دورها القوي والحاضر في صد تلك الانحرافات الفكرية الوافدة، لا أن تكون قناةً للترويج لها، وكم أتمنى أن تضع الدول الإسلامية الأنظمة واللوائح الصارمة لمحاسبة المحرضين على العقيدة والدين، كما هو الحال بالنسبة للأمور السياسية.

لقد نشر موقع (BBC) على الشبكة قبل أربع سنوات دراسة حول «**تأثير الإنترنت على المجتمع**»، ومما جاء في هذه الدراسة؛ ما يلي: «تعتزم جامعة **أكسفورد** البريطانية افتتاح معهد مكرس كليّاً لدراسة تأثير الإنترنت على المجتمع، ومن المؤمل أن تكون بريطانيا بفضل المعهد في مقدمة الدول التي

تبحث في تأثيرات الإنترنت على المجتمع ككل. وتقول جامعة **أكسفورد**: إن المعهد سيكون أول مركز أبحاث متعدد التخصصات والتوجهات في العالم، وأنه سيجري أبحاثاً، ويقدم توصيات واستشارات حول السياسات الحكومية في المجالات التي يتوصل فيها إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها».

إنه مما يؤسف له أن تهتم بعض الدول بمثل هذا الأمر، وترصد له الأموال الطائلة، ويغفل بعضنا عنه ـ لعلمي بوجود بعض الدراسات المحدودة التي لم يتم تفعيل نتائجها ـ فبلدنا اليوم يتعرض لهجمة شرسة من قِبل جهات مشبوهة، عَبر وسائل الاتصال الحديثة ـ وخصوصاً الإنترنت ـ وهذه الهجمة هي محاولة للسيطرة على المنظومات الفكرية، وعلى عقول وقلوب الناس، وإن الهزيمة السياسية والاقتصادية والثقافية ـ بل والعسكرية ـ يسبقها عادةً هزيمةٌ فكرية في العقول.

لقد حكى قديماً «الصلاح الصفدي» أن الخليفة العباسي المأمون لما هادن ملك قبرص؛ كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان الفلسفية، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك القبرصي خواصَّه من ذوي الرأي، واستشارهم في ذلك، فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إليه، إلا أن أحد رجاله الحذاق خالفهم جميعاً، وقال: جهزها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها. فتأمل كيف كان أثر ذلك على واقع الخريطة الفكرية في ذلك الزمان!

إن هذه القصة تدل أن الحرب الفكرية قديمة، وليست بالجديدة، وإن إفساد الوطن يبدأ بإفساد الشباب فكريّاً.

قال العلامة **ابن خلدون**: «إن كتب أولئك المتقدمين ـ الفلسفة ـ لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، تصفَّحها كثير من أهل الملة، وأخذ من مذهبهم مَن أضله الله من منتحلي العلوم»، وقال: «وهذه العلوم عارضة في العمران؛ كثيرة في المدن، وضررها في الدين كثير، فوجب أن يصدع بشأنها، ويكشف عن المعتقد الحق فيها».

وهذه المخاطر القديمة ليست حكراً على الماضي البعيد؛ بل هي مخاطر

متجددة وحديثة، والدول العظمى تسلك نفس السياسات القديمة، سياسة فرض **القوة الناعمة** (الفكر والقيم)، ولم تتغير أهمية الفكر وخطورته، فالفكر يبقى هو القوة الحقيقية لأي أمة، واختراقه من الداخل اختراق للأمة والدولة.

يذكر «**جوزيف ناي**» صاحب كتاب «القوة الناعمة»: «**إن قوتنا الناعمة قُيض لها أن تساعد على تحويل الكتلة السوفييتية من الداخل**».

ويشرح هذا الكلام باستفاضة، فيقول: «**برغم أن الاتحاد السوفييتي قد فرض قيوداً ورقابة على الأفلام الغربية، فإن الأفلام التي نفذت عبر مصفاة القيود والرقابة، كانت مع ذلك قادرة على أن تُحدِث آثاراً سياسية مدمرة، وكانت بعض الآثار السياسية مباشرة أحياناً، ولو غير مقصودة**».

ثم يفسر ويعرف «جوزيف ناي» **القوة الناعمة**: بأنها الجاذبية التي تنشأ عن قيم وأخلاق وثقافة بلد ما. أي بمعنى آخر أن مدى هذه القوة الناعمة (الفكر) تقاس بمدى جاذبيتها، وإمكانية اختراقها للآخر، وتأثيرها في قيمه وثقافته.

ويؤيده السناتور الأمريكي «**تشاك هاغل**» بقوله: «**تعتمد القيادة الأمريكية على قدرتنا على الإقناع والاجتذاب، إن قوة أمريكا الناعمة؛ أي قوة ثقافتنا وقيمنا وجاذبيتنا، يجب أن تنعكس بوضوح في سياستنا الخارجية ودبلوماسيتنا**»، فما بال القارئ إذا اجتمع غزو عسكري معزز بغزو فكري للمنطقة؟**!**

ويؤكد السناتور الأمريكي «تشاك هاغل» على أهمية «**القوة الناعمة**»، فيقول: «**لا يمكن تبديد القوة الناعمة، وإلا فقدْ نفقدُ الجيل القادم**».

نعم، هذا صحيح، لا يمكن لأي دولة حكيمة وعاقلة أن تبدد وتفرط في جاذبيتها العقدية، وقوتها الفكرية، إلا إذا أرادت أن تفقد جيلها القادم.

وإن حال الواقع ـ الموصوف بالانفتاح الثقافي غير المحدود ـ دون قدرة ولاة الأمر ـ وفقهم الله ـ على الضبط التام لتلك القنوات والمواقع الآثمة، التي تنشر الإلحاد، وتزين الكفر، وتثير الشبهات العقائدية والسياسية، فحينها لا أقل من وجود القنوات المتخصصة التي تدافع عن العقيدة، وكل ما يدخل

ضمنها من سياسي وديني، وتبينها بأسلوب حديث وعصري، وهذا ـ والله ـ من أهم الواجبات في هذا العصر على أهل القدرة وصناع القرار، فإنه عصر تلاطمت فيه الفتن، وفُتن الشباب بالشبهات الإلحادية وتبعاتها الدينية والسياسية، وكثرت القنوات المفسدة، ولم يوجد حتى الآن البديل المتخصص القادر بتقنية ومهنية على حماية الهوية الثقافية، ومواكبة روح العصر، وإذا وجد ـ وهو ممكن ـ فهل يتفضل أصحاب القرار بتبنِّيه وتفعيله؟

المعركة اليوم هي معركة عقول وأفكار:

نحن في عصر تقدمت فيه التقنية بشكل هائل، وأصبحت الأفكار تشكل خطورة فائقة في التأثير والانتقال، حتى قيل: **إن الحرب الحقيقية في هذا العصر هي حرب معلوماتية فكرية بالدرجة الأولى،** فبواسطة الأفكار والمعلومات يمكن تدمير أقوى النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية، وتفكيك أشد القيم تماسكاً.

وتكمن خطورة حرب الأفكار في أنها تهدف إلى إخضاع الإنسان من خلال السيطرة على تفكيره، والوصول به إلى النتائج التي يريدها الخصم، دون الحاجة إلى استخدام القوة، وإنما من خلال بناء إدراكات وإيحاءات لديه توصله إلى مرحلة التسليم لإرادة الآخر، والقبول بها وكأنها الحل الأمثل.

ومن خلال التجربة نعلم يقيناً أن الفكر لا يواجه إلا بالفكر، وحرب المعلومات لا تواجه إلا بالمثل، وعلى نفس المستوى، وبنفس الأساليب والأنساق.

إن من يأكل الطعام الفاسد أو المسمَّم فإنه سوف يموت أو يتسمم بما أكل، وإذا كان هذا هو شأن الطعام الفاسد المسمم، فإن شأن الأفكار المسممة والفاسدة على العقول أعظم وأخطر.

والأفكار ـ مهما اعتقدنا أنها بسيطة أو ساذجة، وأننا في بلد التوحيد ـ إذا تُركَت دون نقد أو مواجهة، قد تكتسب قوة هائلة، يصعب بعد ذلك مواجهتها.

لقد أدرك الغرب قَبلنا خطورةَ وتأثير الأفكار، فسُلطانُها غير محدود بمكان أو زمان أو أشخاص، ولذلك قال المفكر الألماني «**هاينه**» محذراً من مغبة الاستخفاف بسيادة الأفكار وتأثيرها: «**إن الأفكار الفلسفية التي يطرحها أستاذ من مكتبه الهادئ قادرة على إبادة حضارة بكاملها**»!

لقد كتب «**روبرت رايلي**» ـ مدير إذاعة صوت أمريكا، والذي ظهر لأول مرة في صحيفة «واشنطن تايمز» بتاريخ ٢٨/ ١/ ٢٠٠٢م ـ مقالاً بعنوان: «**كسب حرب الأفكار**» ومما جاء في ذلك المقال، قولُه: «**الطبيعة الحقيقية للصراع، صراع المشروعية الفكريّة في قلوب وعقول الناس، وليس القوة العسكرية. إن الحروب تخاض ويتم فيها تحقيق النصر أو الهزيمة في عقول الناس، قبل وقت طويل من بلوغها نهايتها في ميدان قتال بعيد**».

وهذه حقيقة يثبتها الواقع، فكم من هزيمة عسكرية كانت نتيجة حتمية للهزيمة الفكرية والنفسية ـ الاتحاد السوفيَّتي مثلاً ـ وذلك من خلال ما يبثه الخصم من أفكارٍ ومعلومات مضللة، ينشط بها ضمن الصفوف الداخلية لأي مجتمع؛ من أجل تفكيكه، وتحطيمه معنويّاً ونفسيّاً.

إن الغرب مع الانفتاح الذي يعيشه، إلا أن كبار المفكرين فيه يُوصون بإلحاح على مراقبة الأفكار الوافدة، ونقدها وتمحيصها، قبل أن تتمكن وتُشكل خطراً على المجتمع، ومن ذلك تفتيشهم وتقاريرهم التي يرفعونها حول الكتب المتواجدة على رفوف المكتبات في المراكز الإسلامية في الغرب، وشكواهم حول مناهج المدارس الإسلامية هناك؛ بل وقرارهم الأخير ـ والصادر منذ أيام في أمريكا ـ بحق تفتيش رجال الأمن والجمارك للحواسب الآلية الشخصية للقادمين إليها، ومصادرة ما بداخلها بعد أن عجزوا عن معرفة ما بداخل عقول هؤلاء الوافدين الزائرين، وهذا يطرح تساؤلاً مشروعاً عن مدى عودة القوى المتقدمة لممارسة المكارثية مرة أخرى، باسم حرب الأفكار، وحماية القيم والمبادئ الفكرية**!!**

يقول الباحث الغربي «**إيزايا برلين**» محذراً من ترك الأفكار المخالفة دون تصدٍّ لها: «**إن إهمال الأفكار من قِبَل الذين ينبغي أن يعتنوا بها ـ أي من**

قِبَل مَن تدربوا على تبني نظرة ناقدة للأفكار عموماً ـ قد يؤدي أحياناً إلى اكتسابها قوة كاسحة، لا يمكن مقاومتها أو كبحها، تفرض على أعداد هائلة من البشر».

وهذه حقيقة يشهد لها الواقع اليوم، سواء تجاهلنا هذا الأمر، أو كابَرْنا في قبوله، وما الثمار المرة التي نراها على المستوى الأخلاقي والفكري للجيل الحديث إلا خيرُ شاهد على خطورة تلك الأفكار وقوَّتها، مع غفلتنا عن نقدها واحتواء الشباب.

إنني أعتقد أننا في هذا العصر معرَّضون لمواجهة المرحلة الثالثة من «**طوفان الأفكار الوافدة**»، حيث كان «**الطوفان الأول**» في بداية عصر الترجمة في العصر العباسي، حينما تُرجمت الكتب اليونانية، فدخلت الفلسفات المختلفة إلى المجتمعات الإسلامية، فأفسدت كثيراً من العقول بقصفها بوابلٍ من المحدثات والشبهات.

وقد أنتج ذلك الطوفان مدارسَ فلسفيَّةً وكلامية، زعموا أن علومهم براهين صادقة، وأدلة باهرة، وعقليات راسخة، لكن الفلسفة لم تنتج يقيناً كما زعموا، بل كانت عاملاً رئيساً في زعزعة العقيدة، وخلخلة اليقين عند الناس، وتفاقمت الجناية على العقيدة بسبب كثيرٍ من مسائلها التي كان عليها مبنى علم الكلام، فتحوَّل الإيمان إلى مسرح للشبهات، ومرتعٍ للوساوس، التي أنتجتها براهين الفلسفة المتكافئة، وأدلتها المتضادة، فعظمت بها المصيبة، وتفاقم بسببها الداء.

وقد شهد أحد أعمدة المدرسة الكلامية والمنطقية، وهو **الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن حاصل الفلسفة والكلام ضعيف، حيث قال: «**المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدّاً، مشرف على التزلزل بكل شبهة؛ بل الإيمان الراسخ إيمان العوام**». وقال الإمام **القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّناً حالَ هؤلاء: «**وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك، وببعضهم إلى الإلحاد**».

وقال **ابن تيمية**: «إن جمهورهم ـ أي الفلاسفة وأهل الكلام ـ أوقع الناسَ في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أن سمعتُ أو رأيتُ مُعرضاً

عن الكتاب والسُّنَّة، مُقبلاً على مقالاتهم، إلا وقد تَزَنْدَقَ، أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده».

وقد عاش هذا الجيل والذي قبله آثار «**الطوفان الأول**»، وأكلوا من ثماره المرة، وقد أحسنوا الظن به، حتى إن **الغزالي** زعم أن المنطق هو: «**لباب النظر**»، و«**محك النظر**»، و«**معيار العلم**»، و«**القسطاس المستقيم**»، وأنَّ هذا العلم آلة تعصم الذهن من الخلل في الفكر، وذهبَ إلى أنَّ من لم يتعلمه فلا ثقة في علمه.

لكنه بعد خوضه لغمار ذلك كله، إذا به يسجل في كتابه «**المنقذ من الضلال**» تجرِبتَه المريرة والحزينة، ويحكي قصته المثيرة، ومحنته العجيبة، بعد ردحٍ من الزمن مع هذه العلوم، مع أنه العالم النحرير، والفيلسوف الخطير!

يقول أبو حامد الغزالي: «لم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري، منذ راهقت البلوغ قبل العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجَّة هذا البحر العميق، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، لا أميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، فلما خطرت لي هذه الخواطر، انقدحت في النفس، فحاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حدَّ الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني، ثم لما أحسستُ بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله ـ تعالى ـ التجاء المضطر الذي لا حيلة له».

وقد تتابع أعلام هذه المدرسة على الاعتراف بجناية تلك الفلسفات الوافدة على دينهم وعقولهم؛ فقد قال **الجويني** في مرض موته: «**اشهدوا عليَّ أني قد رجعت عن كل مقالة قلتُها أخالف فيها ما قال السلف الصالح، وإني أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور**».

وقال **الشهرستاني** بعد اكتشافه المتأخر بوار علم المنطق، وضعف

الفلسفة وعلم الكلام في زراعة اليقين: «**عليكم بدين العجائز؛ فهو من أسنى الجوائز**».

وقال الفخر الرازي: «**اعلموا أني كنت رجلاً محبّاً للعلم، فكنت أكتب في كل شيء؛ لأقف على كميته وكيفيته، سواءً كان حقّاً أو باطلاً، ولقد اختبرتُ الطرقَ الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتُها في القرآن، وأقول: ديني متابعة الرسول ـ ﷺ، وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما**».

هؤلاء كانوا ضحايا «**الطوفان الأول**» مع أنهم من أكابر العلماء، وأفاضل المتكلمين، فكيف بالشباب الأغرار الطريين، الذين يواجهون أخطر طوفانٍ عقائدي وفكري في هذا العصر؟!

ثم جاء بعده «**الطوفان الثاني**»، وقد كانت الأمة في أضعف حالاتها، فغزاها المستعمر عسكريّاً وثقافيّاً، وكان الطوفان عبارة عن خليطٍ من الأفكار والفلسفات الإلحادية، والشيوعية، والعلمانية، والوجودية، والقومية، فأنتج هذا الطوفان ضحايا لا حصر لهم، مع تفاوت درجات تغيرهم، منهم: رفاعة الطهطاوي، وقاسم أمين، وهدى الشعراوي، وحسين مروة، وعبد الله القصيمي، والشيوعيون والماركسيون العرب، والقوميون، والبعثيون، ونحوهم.

لقد شغلوا الأمةَ عقوداً بهذه الأفكار والفلسفات الوافدة، وكان لها ولهم ضحايا من الشباب، فانتشرت الفلسفات الوجودية والإلحادية، والأطروحات الثورية، وانتشرت الثورات اليسارية في أرجاء الوطن العربي، لقد بدأت الأمور بفكرة، وانتهت بثورات عديدة!

يقول العالم المعروف «**مصطفى محمود**» في كتابه الشهير «**رحلتي من الشك إلى الإيمان**»: «جئتُ في زمن تعقَّد فيه كل شيء، وضعف صوت الفطرة، حتى صار همساً، وارتفع صوت العقل، حتى صار لجاجة وغروراً واعتداداً، وكانت الصيحة التي غمرت العالم هي: العلم، العلم ولا شيء غير العلم، وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومُثلنا العليا، وكان

الشرق العربي هو التخلف والضعف، والتخاذل والانهيار، وكان طبيعيّاً أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق، وهو السبيل إلى القوة والخلاص».

ثم لما اندحرت الدول الاستعمارية، وسقطت دولة الشيوعية، وانهارت أكثر تلك الأفكار الوافدة، وخَبَتِ الثوراتُ البائسة، وأذن الله للصحوة الدينية المباركة، جُدد للأمة أمر هذا الدين، بعد اندراس كثيرٍ من معالمه، وأصبح الانتماء للقومية أو البعثية أو الشيوعية مسبةً وعاراً وشناراً.

ثم جاء بعده «**الطوفان الثالث**»، حيث شاء الله أن تتنازع الصحوة، ويتعارك العلماء، ويتشاتم الدعاة، وتغيب القدوات ـ بل أصبح البعض قدوة سيئة ـ مع محاصرة عالمية للدعوة والدعاة؛ بسبب ظهور الجماعات المتطرفة، التي أساءت للإسلام، وأضرت بالمجتمع، فتسلطت الشبهات على الناس في زمن التقنية الحديثة، وانشغال الدعاة بصراعاتهم الخاصة، وسبابهم المشين، ثم تزامن ذلك مع ذلة عامة أحاطت بالأمة، وضعف وتخلف على الأصعدة كافة، فأعقب ذلك قلقٌ عام، وتغيرٌ واضح في أفكار وسلوك الجيل الجديد، الذي تمرد على كل شيء تقليدي، هكذا يسمونه.

وقد كان للقنوات الفضائية ومنتديات الإنترنت الدور الرئيس في إفساد عقول الشباب، ودعوتهم للتمرد على الدين وأهله، وقد وجدوا آذاناً مصغية من هؤلاء المراهقين، في وقتٍ صد فيه كثير من العلماء وانشغلوا عن واجباتهم، وزاد الطينَ بِلة عدمُ وجود المحاسب والرقيب!

إن خطورة هذه المرحلة تتمثل في سرعة انتقال الفكرة، وسرعة انتشارها وتأثيرها، إن خطورة الفكرة تتمثل في **أنها هي التي تصنع الفعل!**

إن الجيل الجديد يئن تحت وطأة الغزو الفكري الجديد، ويُطحن الآن تحت طاحونة «**حرب الأفكار**»، وإن جماعات عديدة مشبوهة قد نشطت في الارتباط بشبابنا عبر عمليات اتصال واسعة، عمليات يتفاعل بمقتضاها متلقي الرسالة الفكرية، بمقتضى ما يريده المرسِل، وفي هذا التفاعل يتم نقل الأفكار

والمعلومات الموجهة بقصد ممارسة أكبر قدر من التأثير على المُرسَل إليه؛ من أجل تغيير أفكاره.

ومن خلال تجربتي الشخصية وجدت أن كثيراً من الأسماء الوهمية والمستعارة، التي تكتب في منتديات وساحات الحوار ضد ديننا أو بلادنا، إنما هي جهات تابعة لجهات ومؤسسات استخباراتية، ومنظمات وجماعات معروفة، وقد كان لها ـ وللأسف ـ قدرة هائلة في تغيير أفكار كثير من القراء، وتسريب معلومات موجهة من أجل أهداف خبيثة تمس الدين والوطن.

ولقد وجدتُ نشاطاً محموماً من مؤسسات دينية دولية ـ مخالفة ـ تتظاهر بالإلحاد، وتنشر الكتب الإلحادية وتبثها في المنتديات باسم مسلمين، تلبيساً على الشباب، ودعوة لهم إلى التمرد والعصيان، ومن الأمثلة على ذلك:

مؤلف كتاب «**قسٌّ ونبيٌّ**» المسمى «**أبو موسى الحريري**»، ليس إلا راهباً لبنانيّاً من الرهبنة اللبنانية البلدية المارونيَّة، ويقيم في منطقة كسروان، وهذا ما صرح به صاحبه «نبيل فياض» وما خفي أعظم.

وكذلك تسريب مؤلفات تحارب الإسلام، تحمل أسماء غربية؛ لإعطائها صبغة العلمية والموضوعية؛ ككتاب «**قراءة سريانية ـ آرامية للقرآن**»، الذي زعم أن اسمه «**كرستوف لكسنبرغ**»، وهو في الحقيقة ليس إلا كاتباً سوريّاً، مجهول الدين والمذهب، من شمال شرق سوريا، يقيم في ألمانيا.

لقد سجل التاريخ الإسلامي أسماء رجال عظماء، واجهوا بالعلم والإيمان الطوفان الأول والطوفان الثاني، وسخَّرهم الله للوقوف في وجه تلك الفتن والتصدي لها، وحماية وحراسة العقول من الشبهات والشكوك.

ونحن في أمسِّ الحاجة في هذا العصر إلى رجال عظماء يواجهون بالعلم والإيمان والفكر السليم الطوفانَ الثالث، الذي بدأت تتشكل سحابته السوداء في الأفق، وإلا فإن العواقب ستكون وخيمة جدّاً لا قدر الله؛ لأن الطوفان الثالث يختلف كثيراً عن السابقَيْنِ، كمّاً ونوعاً وتأثيراً، ويختلف في أنه يُركز تركيزاً خطيراً على قلب ومنبع ومصدر الإسلام، بلاد الحرمين الشريفين وأهلها، نسأل الله أن يحميها وجميع بلاد المسلمين.

ومع تقديري لجهود الدولة المبذولة ـ حفظها الله ـ في مواجهتها، التي لا هوادة فيها، لمواجهة أفكار الفئة الضالة، إلا أنني أحسب أن الغالبية الصامتة من أفراد المجتمع تأمل وترغب في توسيع هذه المواجهة، لتشمل الطوفان القادم، وأزعم أن الوقت قد آن لإدراج هذه المواجهة ضمن الخطط الإستراتيجية لأصحاب القرار؛ حتى لا يأتي يوم نعض فيه على أصابع الندم، ونتأمل عندئذٍ ـ وبكل أسى ـ الآيةَ الكريمة: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٤٤]، فهل يستجيب القادة، والعلماء والدعاة وأهل الفكر، لحماية عقول شبابهم، وقوتهم الناعمة، وأمنهم الفكري؟

قال «**فرانك أنلو**» في كتابه «**القيادة والتغيير**»: «راقب أفكارك جيداً، فإنها تصبح كلمات، راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً»، **وأقول: ارصدوا الأفكار الوافدة والغريبة، فإنها ستصبح كلمات تتحول إلى أفعال، قد تدمر كيان المجتمع ونظامه السياسي والاجتماعي القائم**. اللَّهُمَّ إني قد بلغتُ، اللَّهُمَّ فاشهد.

المادة النقدية للفكرة الإلحادية

للشيخ سلطان العميري

حين أخذت الفكرة الإلحادية تنتشر في الفكر الغربي بشكل كبير، وبدأت تنتقل شرارتها إلى الفكر العربي، أخذ العلماء والمفكرون في التأليف ضد هذه الفكرة، وتوسعوا في البحث عن الأصول الفلسفية والعلمية التي اعتمد عليها دعاتها، وفي المقابل قاموا بجمع الأدلة والشواهد الدينية والعقلية والعلمية والفلسفية والتاريخية الدالة على بطلانها وفساد مكوناتها.

وقد حاولت في هذه الورقة أن أقوم بجمع أكبر قدر من المؤلفات التي احتوت مادة علمية وفكرية مناقضة للفكرة الإلحادية، التي يستطيع القارئ من خلالها تكوين رؤية نقدية حول فكرة الإلحاد، وبينت فيها عنوان الكتاب واسم المؤلف وبعض الأخبار عن طباعته، وتعريف مختصر به وبفكرته، ولكن قبل أن نستعرض ـ أخي القارئ ـ تلك المؤلفات أتمنى أن تمر على التنبيهات التالية:

١ ـ لم يكن القصد من هذه الورقة استيعاب كل ما كُتب في نقد الإلحاد، ولا كل ما طُرح حوله، وإنما الغرض رصد قدر من المؤلفات التي يمكن من خلالها إثراء الموضوع، ويتمكن القارئ من تكوين مادة علمية ونقدية مناسبة حول الفكرة الإلحادية.

٢ ـ هناك مؤلفات فلسفية وعلمية تناولت في أثنائها موضوعات الإلحاد ومستنداته، وكذلك هناك مؤلفات أخرى تناولت موضوعات مفردة مما تشتغل

عليه الفكرة الإلحادية بكثرة؛ كقضية الشر، ونظرية دارون وغيرها، ولم أذكر منها شيء في القائمة؛ لكثرتها وطولها.

٣ ـ من المقرر لدى الباحثين أن الفكرة الإلحادية تستند غالباً على نوعين من الأدلة: النوع الأول: الأدلة الفلسفية؛ كالأصول الفلسفية المادية وقضية الشر، وسؤال من خلق الله، والنوع الثاني: الأدلة العلمية، وهي متنوعة، فبعضها راجع إلى علم الفيزياء وبعضها إلى علم الفلك وبعضها إلى علم الجيولوجيا وغيرها من العلوم، ونتيجة لهذا التنوع قسم بعض الباحثين المعاصرين الفكرة الإلحادية إلى نوعين: إلحاد فلسفي وإلحاد علمي، ولم أجد ـ حسب بحثي ـ كتاباً احتوى جميع المستندات التي يستند إليها الفكر الإلحادي، ولكن يمكن للقارئ أن يحصل نقداً وتفنيداً لأصول المستندات التي اعتمد عليها الإلحاد من خلال استيعابه لمجموع ما ذكر في القائمة من مؤلفات.

٤ ـ لا بد من التنبيه على أن المؤلفات المذكورة متفاوتة فيما بينها في القوة والإتقان، فهي ليست على درجة واحدة في الأهمية ولا في المنزلة العلمية، ولكنها في الجملة تحقق قدراً من الفائدة والإثراء للموضوع.

٥ ـ الترتيب في الجدول عفو جداً، فلم أراع فيه أي معنى، وإنما أقيد ما يرد على ذهني أولا، وعليه فتقديم كتاب على كتاب لا يعني تقدمه في الأهمية أو المنزلة.

٦ ـ إيراد كتاب ما في القائمة لا يعني الحكم على كل ما فيه من أفكار بالصحة والصواب، فيبدو بينا للجميع أن الثناء على مؤلَف ما في موضوع أو فكرة لا يلزم منه الحكم على كل ما فيه بكونه صحيحاً أو سليماً، ومع هذا فقد حاولت التنبيه في الجدول على ما في بعضها من ملاحظات.

٧ ـ وأخيراً أتمنى من كل من يرى أن ثمة مؤلفاً آخر يستحق أن يقرأ، ويرى فيه مادة معرفية ونقدية حول الفكرة الإلحادية أن يقوم بإضافته على الورقة عن طريق التعليق في الموقع؛ حتى نتمكن ـ جميعاً ـ من رصد كل المواد النقدية المفيدة حول تلك الفكرة الخطيرة.

الكتب:

١ ـ قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، لنديم الجسر:

طبعته: له طبعات كثيرة، وأكثرها مصور. وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ الكتاب عبارة عن حوار مطول بين شاب متشكك في وجود الله وبين عالم شرعي، فهو شبيه بالعمل الروائي في انسياب مشاهده وأفكاره.

ـ يعد هذا الكتاب من أقوى الكتب التي عرضت الأدلة العقلية والفلسفية على وجود الله، وكشفت عن مواطن الخلل المنهجي في الفكرة الإلحادية.

ـ اشتمل الكتاب على تلخيصات رائعة جداً لأفكار كثير من الفلاسفة الكبار.

ـ يتميز الكتاب بأسلوب رشيق وماتع جداً، وعميق في نفس الوقت.

ـ ومع هذا فالكتاب لم يخلُ من بعض الأخطاء والملاحظات، ولعل من أبرزها: تأييده لنظرية دارون، وزعمه بأن القرآن مؤيد لها.

٢ ـ الفيزياء ووجود الله، لجعفر شيخ إدريس:

طبعته: مجلة البيان.

ملاحظات:

ـ يتميز هذا الكتاب بالتركيز على أكثر أسئلة الإلحاد العلمية إلحاحاً على الشباب المسلم.

ـ وقدم المؤلف مادة جيدة قام من خلالها بتوصيف الإلحاد في العصر الحديث ورصد أسباب انتشاره.

ـ وكذلك قام بتوضيح قدر كبير من الأدلة الدالة على وجود الله تعالى سواء العقلية منها أو العلمية، ورصد اعتراضات الفكر الإلحادي عليها وقام بالجواب عليها.

ـ خص المؤلف قضية الفيزياء ووجود الله بفصل خاص، وتناول الموضوع من عدة جهات.

٣ ـ الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان:

طبعته: مؤسسة الرسالة، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ تقوم فكرة الكتاب على إثبات أحقية الدين أمام الفكر المادي الجديد عن طريق الاعتماد على نفس الأدلة التي يسلكها الفكر الإلحادي في نقد الدين وهي الاستدلال بالنظريات العلمية الحديثة.

ـ ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تؤسس الاقتناع العلمي لدى الشباب المسلم بصحة العقائد الدينية الكبرى.

ـ حاول المؤلف القيام بأمرين: الأول: إثبات أن النظريات العلمية ـ الفيزيائية والفلكية وغيرها ـ لا تعارض أصول الإسلام، وقد أجاد في هذا الأمر، والثاني: إثبات أن النظريات العلمية تدل وتؤكد صحة أصول العقائد الكبرى للإسلام، وهو في هذا الأمر لم يحسن؛ لأنه لم يخل من التكلف في الاستدلال.

ـ مع أهمية الكتاب إلا أن المؤلف وقع في بعض الأخطاء، ومنها: توسعه في الاستدلال ببعض النظريات العلمية على قضايا العقيدة، وهي لم تصل إلى درجة القطعيات، ومنها: تبنيه لنظرية تحضير الأرواح وقبوله لها.

٤ ـ عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة، لعبد الله نعمة:

طبعته: مؤسسة عز الدين.

ملاحظات:

ـ الكتاب اشتمل على مناقشة فلسفية لكثير من الأسئلة التي يقوم عليها الإلحاد.

ـ وكذلك احتوى على نقاش للمخرجات الفلسفية التي استنبطت من النظريات الفيزيائية وغيرها.

ـ ومما يؤكد أهمية الكتاب أنه استوعب أهم الأبواب التي يدور حولها الصراع مع فكرة الإلحاد، وهي وجود الله والنبوة والغيب واليوم الآخر.

٥ ـ وجود الله، ليوسف القرضاوي

طبعته: مكتبة المعارف، وله طبعات أخرى.

ملاحظات:

ـ الكتاب مختصر جداً، وناقش عدداً من أسئلة الإلحاد.

ـ وهو سهل العبارة أيضاً.

٦ ـ الفجوة المفتعلة بين العلم والدين، لمحمد علي يوسف:

طبعته: منشورات دار مكتبة الحياة.

ملاحظات:

ـ الكتاب عبارة عن رسالة علمية رصينة، وفيه إثارة لكثير من القضايا التي يدور حولها النقاش في قضية الإيمان بالله والاقتناع بالدين.

ـ وفيه أيضاً مناقشة علمية لكثير من المستندات التي يقوم عليها الإلحاد.

٧ ـ الله والعلم، لجان غيتون:

طبعته: دار عويدات.

ملاحظات:

ـ الكتاب عبارة عن حوار بين ثلاثة من علماء الفيزياء المعاصرين، وتحدثوا في كلام طويل أوضحوا فيه كيف أن علم الفيزياء المعاصر يثبت وجود الله ويؤكد ذلك.

٨ ـ براهين وأدلة إيمانية، لعبد الرحمٰن حسن حبنكة:

طبعته: دار القلم ـ دمشق.

ملاحظات:

ـ الكتاب يتحدث عن طريقة القرآن في تأسيس الإيمان بوجود الله.

ـ وفيه استعرض للأدلة العقلية والفلسفية الدالة على وجوده تعالى.

ـ وكذلك استعراض لبعض المستندات التي يرتكز عليها الإلحاد.

ـ ولكن الكتاب فيه إنشاء كثير، وربما مبالغات في بعض الفقرات.

٩ ـ كواشف زيوف، لعبد الرحمٰن حسن حبنكة:

طبعته: دار القلم ـ دمشق، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ الكتاب أوسع من قضية الإلحاد، ولكنه اشتمل على قدر كبير من المضامين الفكرية المتعلقة به.

ـ ناقش الكتاب قدراً كبيراً من النظريات والأصول التي يعتمد عليها الفكر الإلحادي، وتحدث عن أبرز الشخصيات الفكرية والعلمية التي يعتمد عليها الإلحاد، ونقد أفكارهم الخاطئة.

ـ الكتاب فيه حشو وينقصه التوثيق في عدد من فقراته.

١٠ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم، لعبد الرحمٰن حبنكة:

طبعته: دار القلم ـ دمشق، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ الكتاب مخصص للرد على الشبهات الإلحادية التي أثارها صادق جلال العظم في كتابه (نقد الفكر الديني)، ويعد بعضها من أكثر الأسئلة التي يثيرها الفكر الإلحادي في وقتنا الحالي.

١١ ـ عصر الإلحاد خلفيته التاريخية وبداية نهايته، لمحمد تقي الأميني ـ ترجمة مقتدى حسن ياسين

طبعته: دار الصحوة.

ملاحظات:

ـ اشتمل الكتاب على دراسة لبعض النظريات التي شاعت في عصر الإلحاد، وعلى كشف مواطن الخلل فيها.

ـ وكذلك تضمن تأريخا لأهم المراحل التي مر بها الفكر الإلحادي.

١٢ ـ الله، لعباس محمود العقاد:

طبعته: نهضة مصر، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

- اشتمل الكتاب على استعراض لتاريخ قضية الإيمان بالله عند الشعوب، كلام المؤلف في بعض المواطن لم يكن محرراً بالصورة الجيدة، فأوهم أنه متبني لنظرية التطور.

- استعرض المؤلف أشهر الأدلة التي استُدل بها على وجود الله، وأجاب عن الاعتراضات عليها.

- وكذلك أجاب عن أشهر الدعاوى التي يعتمد عليها الإلحاد؛ كقضية الصدفة وقضية وجود الشر وغيرها.

١٣ ـ الدين في مواجهة العلم، لوحيد الدين خان:

طبعته: دار النفائس، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

- تناول المؤلف في هذا الكتاب أبرز القضايا العلمية التي اعترض بها الملاحدة على الدين، وركز بشكل كبير على أفكار برتراند رسل، وذكر أنه اطلع على كل كتبه واستخرج منها اعتراضاته على الدين، وأجاب عنها، ويعد برتراند رسل من أشهر المنظرين للإلحاد في العصر الحديث، ومن أقواهم حجة.

١٤ ـ الله يتجلى في عصر العلم، مجموعة من العلماء الأمريكيين، ترجمة: محمد جمال الدين الفندي:

طبعته: الكتاب له طبعات كثيرة، ومتوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

- الكتاب عبارة عن ثلاثين مقالاً؛ كتب كل مقال عالم متخصص في العلوم الحديثة، فبعضهم عالم في الفيزياء وبعضهم في علم الفلك وبعضهم في الأحياء، وقد وجه إلى كل منهم السؤال التالي: هل تعتقد في وجود الله؟ وكيف دلتك دراستك وبحوثك عليه؟، وهو بحق كتاب ثري ومليء بالأفكار القوية ضد الإلحاد.

١٥ ـ الإلحاد وآثاره في الحياة الأوربية الحديثة، لصالح إسحاق بامبا صالح:

طبعته: لم يطبع حتى الآن.

ملاحظات:

ـ الكتاب رسالة علمية قدمت في قسم العقيدة بجامعة أم القرى سنة ١٤٠١هـ تحت إشراف الشيخ: محمد الغزالي.

ـ وهو دراسة مطولة عن تاريخ الإلحاد في الغرب وأبرز رجاله وأبرز النظريات العلمية التي ارتكز عليها، وحاول المؤلف أن يقوم بنقد كثير من تلك النظريات، ويكشف عن مواطن الخلل التي وقع في الإلحاد الغربي المعاصر.

ـ ثم ختم المؤلف رسالته بفصول شرح فيها الآثار العلمية والنفسية والمجتمعية والاقتصادية التي ترتبت على الإلحاد في المجتمعات الغربية.

١٦ ـ نقض الإلحاد تحديدات وتنبيهات وإيضاحات، لـ د. هاني يحيى نصري:

طبعته: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

ملاحظات:

ـ استعرض المؤلف في أول الكتاب تاريخاً مطول عن التصور عن الإله لدى البشر وعن كيفية معرفته، وناقش نظريات نشأة الدين.

ـ ثم عرج على الأدلة الفلسفية والعلمية التي يعتمد عليها الإلحاد.

ـ ثم ذكر معنى الإلحاد عند الغرب وعند العرب أيضاً وأشار إلى أصنافه وأقسامه.

ـ وختم حديثة عن الإلحاد المعاصر.

ـ الكتاب جيد في الجملة، ولكن فيه قصور في مناقشة عدد من القضايا والمفاهيم، وأفكاره لم تكن مباشرة بشكل جيدة.

١٧ ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، لمصطفي صبري:

طبعته: دار إحياء التراث، وقد صورت هذه النسخة مراراً، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ الكتاب كبير في حجمه، وهو ليس منحصراً في مناقشة الإلحاد فقط، وإنما ناقش المؤلف فيه قضايا كثيرة جداً، كانت ظاهره في عصره.

ـ وفيه بعثرة في الأفكار وعدم اتساق في ذكرها، وعشوائية في طرحها، وفيه غموض في مواطن عديدة، وتطويل كبير في قضايا عديدة.

ـ يكاد يغني عن الكتاب في مسائل الإلحاد الرسالة العلمية التي قام بها د. مفرح القوسي، وقد طبعت بعنوان (الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد) من إصدارات مركز الملك فيصل.

١٨ ـ رحلتي من الشك إلى اليقين، لمصطفى محمود:

طبعته: دار المعارف، وأعيدت طباعته مراراً، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ تكمن أهمية الكتاب في حكاية المؤلف لأهم الأسئلة التي أدت به للإلحاد، وفي جوابه الذي قدمه على تلك الأسئلة، وهي من أكثر الأسئلة ذكراً في عصرنا.

ـ ولكن المؤلف وقع في خطأ منهجي كبير، وهو تأويل كثير من الأخبار الغيبية تأويلاً رمزياً بحتا؛ كالأخبار عن الجنة والنار، فقد جعلها أموراً رمزية محضة لا تدل على حقيقة في الواقع.

١٩ ـ حوار مع صديقي الملحد، لمصطفي محمود:

طبعته: دار المعارف. وهو موجود بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ دار الحوار في الكتاب حول تسعة عشر قضية، من القضايا التي يثرها الفكر الإلحادي حول الدين، سواء المتعلقة منها بوجود الله أو المتعقلة منها بأصول الدين الأخرى.

ـ الكتاب يحتوي في جملته على رصد جيد لأبرز أسئلة الإلحاد حول الأديان، ولكن نقاش المؤلف في بعض القضايا كان ضعيفاً بشكل واضح.

٢٠ ـ العقيدة في الله، لعمر بن سليمان الأشقر:

طبعته: دار النفائس، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ الكتاب ليس مفرداً لمناقشة الإلحاد، وإنما للحديث عن التصور عن الله تعالى وعبادته، ولكن المؤلف عقد فصولاً ناقش فيه أدلة وجود الله، والأدلة والحجج التي يعتمد عليها المنكرون لوجوده تعالى.

٢١ ـ حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون، لعبد الحليم خفاجي:

طبعته: دار الوفاء.

ملاحظات:

ـ هو عبارة عن حوارات مطولة في السجون المصرية بين الشيوعيين والإسلاميين، وهو مكون من ثلاث وثلاثين حلقة، دار النقاش فيها حول كثير من الأسئلة الإلحادية التي كانت تثيرها المادية الماركسية، وبعضها ما زال يشتغل بها الفكر الآن.

ـ وقد احتوى الكتاب على تحليل لكثير من الظواهر الفكرية والدينية التي كانت في الغرب المسيحي المحرف، وكيف أدى ذلك إلى انتشار أسئلة الإلحاد.

ـ بما أن الكتاب عبارة عن حوار فهو لم يحظ بترتيب أفكاره بشكل جيد، وربما يجد القارئ صعوبة في الوصول إلى الفكرة بشكل متكامل.

٢٢ ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين، لعباس محمود العقاد:

طبعته: مكتبة الأنجلو.

ملاحظات:

ـ نقد المؤلف تفسيرات الملاحدة لنشأة الدين وبين وجه الغلط فيها.

ـ وقاد برصد لأهم الأسباب التي أدت إلى ضعف العقيدة الدينية في الفكر الأوروبي وإلى قوة الإلحاد وانتشاره.

ـ وناقش فكرة الدين الطبيعي وأسباب نشأته.

ـ وتحدث عن علاقة النظريات العلمية الحديثة بفكرة الإلحاد، وكشف عن الخلل في الاستدلال بها.

ـ انتهى المؤلف إلى نتيجة غريبة، وهي أن الأسباب التي أدت إلى نقد الدين قديما أصبحت أسباب لقوته حديثا!!

ـ أولى المؤلف مشكلة الشر اهتماماً خاصاً باعتبارها من أكبر الإشكاليات حضوراً في الفكر الإلحادي.

٢٣ ـ الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية، ليحيى فرغل:

طبعته: الآفاق العربية، وهو موجود بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ احتوى الكتاب على تاريخ مختصر لتطورات الإلحاد المعاصر، وذكر لأهم أسبابه.

ـ اشتمل الكتاب على مناقشة لمستندات الإلحاد العلمية والمادية بشكل مطول.

ـ في الكتاب استعراض لأبرز الشخصيات الفلسفية والعلمية التي ارتكز الإلحاد على آرائهم بحق أو بدون حق.

٢٤ ـ للكون إله، لصبري الدمرداش:

طبعته: مكتبة المنار الإسلامية، وهو موجود بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ صاغ المؤلف أفكاره في الكتاب صياغة حوارية بين أفراد أسرة مؤمنة، وأخذ الحوار يطوف بهم في أرجاء العالم ليكتشفوا دلالاته المبهرة على قدرة الله وحكمته.

ـ تناول الحوار قضايا علمية عديدة في الفيزياء والفلك، وفي نواميس الكون، وكشف عن دلالاتها على الخالق.

ـ استعرض الكتاب الإقرار بوجود الله والتصورات عنه عند كبار فلاسفة العالم.

ـ وكذلك وقف مع الفلاسفة المنكرين لوجود وكشف عن الخلل لديهم.

٢٥ ـ دلائل التوحيد، لجمال الدين القاسمي:

طبعته: دار النفائس.

ملاحظات:

ـ احتوى الكتاب على رصد كبير للأدلة الدالة على وجود الله، والجواب عما يرد عليها من اعتراضات فلسفية وعلمية.

ـ واحتوى أيضاً على مناقشة مطولة للفكر المادي القديم منه خاصة.

٢٦ ـ العلم يدعو للإيمان؛ كرسي مريسون:

طبعته: دار القلم، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ الهدف الأولي من الكتاب هو الرد على أحد الملاحدة حين ألف كتاب بعنوان «الإنسان يقوم وحده»، وقام المؤلف بتأليف كتابه «الإنسان لا يقوم وحده» الذي ترجم إلى العربية بعنوان «العلم يدعو للإيمان».

ـ استعان المؤلف بأمثلة من علم الفلك والجيولوجيا وعلم الحشرات وعلم الأحياء وعلم النبات وغيرها ليستدل بها على وجود الله.

٢٧ ـ العلم من منظوره الجديد، لروبرت م.أغروس وجورج ن. ستانسيو، ترجمة: كمال خالايلي:

طبعته: سلسلة عالم المعرفة، ورقمه في السلسلة (١٣٤)، وهو موجود بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ يتحدث الكتاب عن التطورات التي وقعت في العلم الحديث، وعن النتائج الفلسفية والدينية المترتبة عليها.

ـ وأثبت المؤلفان أن العلم الحديث يقرر وجود الله، وأن للكون بداية وينفي بصورة قاطعة أزلية الكون.

ـ وفي الكتاب شرح مفصل وواضح لكثير من النظريات العلمية التي لها تعلق بقضية الدين نفياً أو إثباتاً من الملاحدة وغيرهم.

٢٨ ـ الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، لمحمد عبد الله دراز:

طبعته: دار القلم، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ يعد هذا الكتاب أحد الكتب المركزية التي أثرت تأثيراً بالغاً في الدراسات العربية عن حقيقة الدين وتاريخه.

ـ وهو بحث من أبدع ما كتب حول مسائل فلسفة الدين، حتى على المستوى الغربي.

ـ ومن الصعب جداً التمييز بين فصول الكتاب، فكل فصل له أهمية خاصة.

ـ وسيجد القارئ فيه متعة عقلية بالغة، ومادة علمية ثرية.

٢٩ ـ الاقتراب من الله، بحث في أصل الكون وكيف بدأ:

وله طبعة أخرى بعنوان آخر، وهو «الله والعقل والكون» لـ بول ديفيز

طبعته: طبعة المشروع القومي للترجمة

ملاحظات:

ـ يعد مؤلف الكتاب من أبرز المفكرين الغربيين الذين ناقضوا الإلحاد، وكتبوا ضده كتابات موسعة.

ـ ناقش المؤلف أبرز الأسئلة التي أثارها العلم حول وجود الله وعلاقته بالكون، وهي الأسئلة نفسها التي استغلها الإلحاد في ترويج فكرته، وبين أنها لا تؤدي إلى إنكار وجود الخالق، وإنما تؤكد وجوده.

ـ يجد القارئ لهذا الكتاب بحثا عن حقيقة الخلق وبداية الزمن، وعن حقيقة السببية والنواميس التي يسير الكون على مقتضاها، وفكرة الخلق من العدم، ونظرية الانفجار العظيم وهل هي ثابتة صحيحة؟! وغيرها من القضايا.

ـ ملاحظة هامة: طبع الكتاب السابق وترجم ترجمة أخرى، وظهر بعنوان: الله والعقل والكون، صادر عن دار علاء الدين، وهي ترجمة سيئة ترتب عليها إخلال بالمعاني في مواطن عديدة.

٣٠ ـ المعرفة في الإسلام، لعبد الله القرني:

طبعته: مركز التأصيل للدراسات والبحوث.

ملاحظات:

ـ تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يثبت الأصول الفلسفية والشرعية التي يقوم عليها الإيمان والمعرفة بالأصول العقائدية للإسلام؛ كقضية وجود الله والإيمان بالغيب واليوم الآخر، بعبارة محكمة وحجة قوية.

ـ ويتضمن أيضاً نقاشاً عميقا لحجج التشكيك في الضروريات، وكشفاً عن مواطن الخلل فيها.

٣١ ـ الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي:

طبعته: دار عالم الفوائد، (كما طبعه مركز تكوين للدراسات والأبحاث أيضاً) والكتاب متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ تكمن أهمية هذا الكتاب في إثبات أن القضايا العقدية لدينا مبنية على أسس عقلية متينة، وفي إثبات أن القرآن متضمن لتلك الأسس على أكمل وجه.

ـ وقراءة هذا الكتاب تكون لدى القارئ حصيلة عقلية تقف عقبة أمام بعض الدعاوى التي يروج من خلالها الفكر الإلحادي.

٣٢ ـ النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، لمحمد عبد الله دراز:

طبعته: دار القلم، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ تكمن أهمية الكتاب في أن مؤلفه استطاع أن يثبت بالأدلة العقلية والتاريخية والحالية بأن القرآن كلام الله، وأنه يستحيل أن يكون مكذوباً أو مختلقاً أو محرفاً.

ـ يشعر القارئ لهذا الكتاب بأنه أمام مشروع عقلي ضخم لا يجد أمامه إلا التسليم بقوة أدلته وصرامة منهجيته.

ـ وهو بحق من أبدع ما كتبه المعاصرون، ومن أقوى ما يؤسس القناعة بصدق القرآن ومن أشد ما يبدد الشكوك حول مصدره وصدقه.

٣٣ ـ الإلحاد في الغرب، لرمسيس عوض:

طبعته: دار الانتشار، وهو متوفر بصيغة PDF

ملاحظات:

ـ لا يعد هذا الكتاب من الكتب الناقدة للإلحاد، وإنما ذكر في القائمة لأنه احتوى على رصد دقيق جداً لتطورات الإلحاد في الفكر الغربي.

ـ ومن خلال قراءته يمكن للقارئ أن يقف على أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الإلحاد في الفكر الغربي وتسبب في انتشاره، ويمكن للقارئ أن يقارن بينها وبين واقعنا الإسلامي.

ـ مع أهمية الكتاب التاريخية إلا أنه مفتقر إلى الترتيب والتنسيق المنهجي بين فقراته وأفكاره، وهو أيضاً خال من التوثيق العلمي والإحالات إلى المصادر العلمية.

٣٤ ـ أفي الله شك؟! بحث في علاقة العلم بالإيمان، لحمد المرزوقي:

طبعته: دار بيسان.

ملاحظات:

ـ قصد المؤلف في هذا الكتاب أن يبين كيف أن تطورات العلم الحديثة ـ وخاصة علم الفيزياء ـ تؤدي إلى تأكيد وجود الله تعالى الخالق لهذا الكون.